من الخادم؟!

جَنْك أَنَس أُوزَرْ

(*Cenk Enes Özer*)

obeikandl.com

من الخادم؟!

Copyright©2016 Dar al-Nile

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة، لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو نقله بأي شكل أو بأية وسيلة، سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير الفوتوغرافي أو التسجيل أو وسائل تخزين المعلومات وأنظمة الاستعادة الأخرى بدون إذن كتابي من الناشر.

تحرير

إسماعيل قيار

تصميم

أحمد علي شحاتة

غلاف

ياووز يلماز

رقم الإيداع

2016/13581

الترقيم الدولي

ISBN: 978-977-801-016-9

رقم النشر

1046

دار النيل للطباعة والنشر

الإدارة: 22 جـ- جنوب الأكاديمية- التسعين الشمالي - التجمع الخامس- القاهرة الجديدة - مصر

Tel & Fax:002 02 25379391

Mobile: 002 01023201002

E-mail: info@daralnile.com

www.daralnile.com

obeikandl.com

من الخادم؟!

تأليف

جَنْك أَنَس أُوزَرْ

(Cenk Enes Özer)

ترجمة

أحمد كمال

obeikandl.com

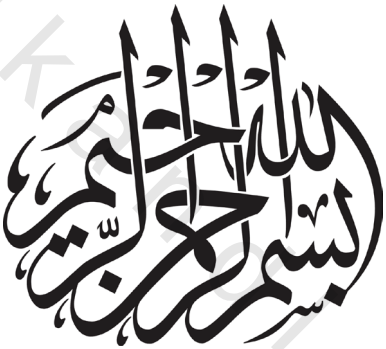

obeikandl.com

فهرس

شخصيات الرواية ٧

أصفادُ الغفلةِ ٩

لا يَصِلُ كلُّ مَن يبحثُ ١٥

اللقاء العجيب ٢٣

بداية الرحلة ٤٣

مكانٌ بدأ فيه كلُّ شيء ٤٩

الجيشان ينزلان إلى الأرض ٦٣

الشياطين كذلك تبكي ٧٥

عملية الإنقاذ ٩٩

عرشٌ بلا سلطان ١٠٧

التحالف السري ١١٧

سِرُّ "كهف الغفلة" ١٣١

obeikandi.com

إما النجاح أو الموت ١٤٣
وتبدأ الاستعدادات للمعركة ١٥٣
متى نصر الله؟ ١٦٣
ماذا حدث في الواقع؟ ١٧١
تفضل، تعرّف إلى "دَاسِم" ١٨١
والآن مع "زَلَنْبُور"! ١٩٩
شراكة "مِقَلَاص" و"مِسْوَط" ٢٠٩
الخطر الداهم: "الأَعْوَر" ٢٢٣
القبر أم رحم الأم؟ ٢٣٧
الخادم ٢٦٣
شخص غريب في المرآة ٢٧١

obeikandl.com

شخصيات الرواية

مَطَر صَنْجَاقْ : البطل

رَهْنُمَا : زوجة "مَطَر"

طَيْفُونْ : صديق "مَطَر" في العمل

إسماعيل : صديق "مَطَر" في العمل

سَلْمَى : صديقة "مَطَر" في العمل

سَمَر : سكرتيرة المدير العام للشركة

قابيل : من أبناء آدم عليه السلام

هابيل : من أبناء آدم عليه السلام

لِيُوذَا : شقيقة "هابيل" التوأم

إِقْلِيمِيَاء : شقيقة "قابيل" التوأم

نَامَحْرَمْ سلطان : الأميرة الجميلة الأجنبية

ومن الشياطين

ثَبَر : يأْمُر بالثُّبُور، وشقِّ الجيوب، ولَطْم الخدود

الأَعْوَر : يزيّن الزِّنَا ويَأْمُرُ به

مِسْوَط : يحثّ الناس على الْكَذِبِ

دَاسِم : يفتن بين الرجل وأهله وزوجه

زَلَنْبُور : يفسد بين الناس في الأسواق

مقلاص : يزيّن لعب القمار والألعاب المحرمة

خَنْزَب والوَلَهَان : يشوّشان على المرء في وضوئه وصلاته

obeikandl.com

obeikandl.com

أصفادُ الغفلةِ

"لا تكن ممّنْ يموتون في العشرين ويُدفنون في الثمانين!"

كان يومًا عاديًّا، طلَعَت فيه الشمس من مشرقها المعتاد، وتساقطت فيهِ أوراقُ الشجر اليابسة على الأرض، والغيومُ تُضفي على الجوِّ شيئًا من حِدّة البرد، كان الموظفون يملؤون الحافلات في طريقهم إلى العمل ولم يتكمنوا من تناول فطورهم في بيوتهم، فيما ينتظر حافلة المدرسة الطلابُ الذين يُفكِّرون في كيفيّة إنجازِ واجباتهم المدرسية فيما بين الحصص، كما كانت أصوات أبواب الدكاكين تتعالى هنا وهناك، ولم يكن ثمة فرق يميّز هذا اليوم عن سائر الأيام.. أو بالأحرى لم يكن هناك أحد يلاحظ هذا الفرق.

كان "مطر" واحدًا من المحظوظين الذين استطاعوا تناولَ وجبة الإفطار في البيت، لكنه فقد شهيَّته بعدما لم يستطع أن يتخلّص من تأثير الحلم الذي حلَمَ به الليلة الماضية، واكتفى ببعض الرشفات من كوب الشاي وبضعِ زيتونات ما استطاعَ ابتلاعَها إلا بصعوبة بالغة، وسرعان ما نهض من فوره كي لا يتأخر عن عمله، فارتدى حذاءه وخرج.

وكعادته اليوميّة فقد أخرج ميدالية مفاتيحه من جيب حقيبته الأيمن الأمامي، ثم أمسك بالمفتاح الصحيح دون أن ينظر إليه، وأقفل به الباب.. استدعى المصعد واستقلّه، وضغط على مفتاح

الطابق الأرضي الذي كان بالفعل مضغوطًا عليه من قِبَل أحدهم، وحينها تذكّر مجددًا ذلك الحلم الذي رآه الليلة الماضية لدرجة أنه شعر بالاضطراب، بل إنه شعر بشيءٍ من الخوف.. لم تكن تفاصيل الحلم واضحةً في ذهنه إلى حدٍّ كبير، لكن صيحات الشخص الذي عرّف نفسه بأنه "الخادم" كانَ لا يزال صداها يُدَوِّي في أذنيه قائلًا:

"ألم تملّ الرتابة؟!"

يبدو أن أحدهم استدعى المصعد من الطابق الأرضي، وكان من الواضح أن المصعد كان سيهبط بهذه الطريقة إلى الطابق ذاته.. حسنًا، فما هو الشيء الذي جعل "مطر" يشعر بالحاجة إلى الضغط على زرّ الطابق الأرضيّ مرة أخرى؟! وأما الشيء العجيب في الأمر فهو أن مطر عندما وصل إلى الطابق الأرضي وفتح الباب لم يرَ أحدًا ينتظر المصعد، وحينها تطوَّرَ الاضطرابُ لديه إلى قلق، وهو الذي عكس ما رآه في فيلم الرعب الذي شاهده الليلة الماضية، فتغلَّبَ على مشاعره بقوله:

"لا بد أن يكون كل هذا بسبب الفيلم الذي شاهدتُهُ قبل أن أنام".

سار مطر نحو مِرآب السيارات، وبينما كان في طريقه إليه أخرجَ مفتاحَ سيارته من جيبِ حقيبتِهِ الأماميّ الأيسرِ، ومن ثمّ ضَغَطَ على مفتاحِ جهازِ التحكُّم عن بُعد دون أن ينظر إليه، ومدَّ يدَهُ لفتحِ باب السيارة، وبالرغم من ملاحظته أن البابَ لم يُفتح فلم يستطعْ أن يمنع نفسه من جَذْبِ مقبض الباب مجدَّدًا،

فضغطَ على مفتاحِ التحكُّمِ عن بُعْدٍ مرة ثانية، ولكن أكثر قوة هذه المرة، وبيده الأخرى كان يجذب الباب بشدّة.. كان من الواضح أن بطارية جهاز التحكم قد نفدَت، لكن هذا الشيءَ بحدِّ ذاتِه لم يُغضبْه، بل ما أغضبَهُ هو تكرارُه لِما فعله في المصعد، وفي الواقع كان من السخيفِ جذبُه لِمِقْبَضِ باب السيارة بالرغم من ملاحظته أن القفل لم يفتحْ بعدُ، بالضبط كما هو الحال بالنسبة لضغطه على زرِّ النزولِ بالمصعد إلى الطابق الأرضي بالرغم من أنه كان مضغوطًا عليه بالفعل، وكان ذلك الصوت لا يزال يتردد في أذنه:

"أَلَمْ تملَّ الرتابة؟!"

في النهاية، فتح مطر باب سيارته بالمفتاح، ثم استقلَّها وجلس بداخلها هنيهةً دون أن يفعل شيئًا، ولم يستطع حينها أن يمنع عقله من التفكير ومخاطبةِ نفسِه على النحو التالي:

"كلَّ يومٍ أستيقظُ في الساعة نفسها، وأستعد للذهاب إلى العمل الذي أذهب إليه كل يوم من الطريق ذاته لأقوم بالأعمال عينها.. وأقضي وقت الراحة ظهرًا كل يوم في الساعة نفسها، ومن ثم أغادر مقر الشركة في الساعة المحدّدة ذاتها لأعود إلى المنزل من الطريق نفسه، وحين أصل إلى المنزل يكون أول ما أفعله هو تناول الطعام.. وبعد ذلك أجلسُ كلَّ مساءٍ أمام شاشة التلفاز لأشاهد المسلسلات والأفلام والبرامج التي تتناول حياة المشاهير التي يُشبه بعضُها بعضًا، ثم أدخل فراشي في الساعة

نفسها.. ثم أبقى مضطجِعًا به تتلاطمني الأفكارُ نصف ساعة قبلَ أن أنام.. فالأيام صارت تشبه بعضَها لدرجة أنني لو سُئلتُ: "في أيِّ الأيام نحن؟"؛ فإنني لا أستطيع أن أردّ عليه دون أن أُفكِّر مليًّا، لا سيما لو سألني أحدهم: في أيِّ يوم من الشهر نحن الآن؟ فمن المستحيل أن أردَّ ردًّا صحيحًا للوهلةِ الأولى، ولكن هذا باستثناء أيام قبضِ الراتب بطبيعة الحال.. آه بالمناسبة، أليس اليوم يوم استلام الراتب؟!".

انطلق "مطر" بسيارته وسار بها قرابة عشرين مترًا، ثم وقف خلف السيارات المزدحمة المصطفّة وراء بعضها بسبب اختناق حركة المرور، وكانت هذه الحالة نادرةَ الحدوث في الشارعِ المقابِلِ لمنزله، وكان من الواضح أن شيئًا قد حدث، والدليلُ على ذلك وجودُ أشخاصٍ يهرولون على الرصيف، لكن شيئًا آخر لفتَ انتباهَ "مطر" بالرغمِ من كل هذا الارتباك الذي كان حوله، فهو قد عَهِدَ الأرضَ المجاورةَ للعمارة التي يسكن بها أرضًا فضاءً فارغةً؛ إلا أنه الآن يجد عليها عمارةً كاملة الأركان.. لم تكن هذه العمارة في طور الإنشاء، بل كانت مبنى مكتمل البناء والتجهيز، وكان سكَّانُه يعيشون حياة طبيعية؛ إذ كانوا يستخدمون النوافذ والشرفات ويُطلّون منها وكأنهم يسكنون هنا منذ زمن طويل.. ازدادت حيرته وتفاقم اندهاشُهُ كثيرًا.. نزل من سيارته وهو يفكر بينه وبين نفسه: "كيف يمكن لهذا أن يحدث؟ أعيش هنا منذ حوالي خمس سنوات، وأمرّ من هذا الطريق كل يوم في الصباح والمساء، وأتذكر جيّدًا أن هذه الأرض كانت فضاء فارغةً

عندما انتقلنا للعيش هنا، لأننا كنا عندما نرغب في وصف عنوان بيتنا نقول للضيوف إنه يقع على بعد مبنين من الأرض الفضاء الواقعة على الشارع الرئيس!".

وبينما تتلاطمه أمواجُ هذه التساؤلاتِ إذ به يمرُّ من بين الناس الذين كانوا يهرولون باتجاه مكان الحادث، فاقترب من أحد الدكاكين الموجودة أسفل المبنى الجديد، وكان صاحب الدكان قد وقف على الباب مباشرة؛ إذ كان ينظر بعينين قلقتين إلى حشد الناس ويحاول فهم ما يحدث.. سأل مطر صاحب الدكان: "المعذرة، منذ متى وأنت هنا؟"، غير أنَّ ردّ صاحبِ الدكان لم يكن كافيًا للحد من فضول مطر؛ إذ كان الجواب:

- أنا هنا منذ حوالي عشر دقائق! وبحسب ما سمعت فإن رجلًا أُصيب بأزمة قلبية بينما كان يقود سيارته، مما أدى لاصطدامِها بعمود الإنارة الموجود على الرصيف، وهذا ما جعله يلقى حتفه.. نسأل الله له الرحمة والمغفرة.

فأجابه مطر:

- لا، لم تفهم قصدي، أنا أسألك لمعرفة منذ متى وهذا الدكان وهذا المبنى موجودان هنا؟

فردَّ الرجل:

- نعم.. لقد افتتحتُ دكاني هذا منذ شهر، لكن إنشاء هذا المبنى اكتمل منذ أربعة أشهر تقريبًا.

ابتعد مطر عن جاره القديم الذي فطن لوجوده حديثًا فحسب دون أن يستطيع أن يهنئه على افتتاح دكّانه، ووقف أمام المبنى المكوّن من ستة طوابق الذي لاحظه حديثًا، غير آبهٍ بحشدِ الناس الذين تجمَّعوا على بُعد ثلاثين مترًا على الجانب الآخر، ورفع رأسه ونظرَ مليًّا إلى المبنى الذي كان موجودًا بالفعل من ذي قَبل، ثم صَرَفَ نظرَهُ تلقاءَ حشدِ الناس المضطربين، ففكَّر في الرجل المسكين الذي ماتَ بعدما أُصيب بأزمةٍ قلبيّة، وقال لنفسه: "ربما يكون ذاك الرجل كذلك لم يرَ قط هذا المبنى مثلي"، وبينما راودته فكرةٌ تقول: "لو كان الموت عبارة عن الانقطاع عما يحدث في هذا العالم فما الفرق بيني وبين هذا الرجل الميت الآن؟!"؛ خَطَرَتْ على بالِهِ هذه العبارة الشهيرةُ التي سَمِعها في مكان ما:

"لا تكن ممّنْ يموتون في العشرين ويُدفنون في الثمانين!"

فاليوم فَهِمَ مطر بشكلٍ أفضل تلكَ العبارة التي سمعَها قبل وقت طويل؛ لأنّه رأى شيئًا ممّا تنطبقُ عليه.

فجأةً أُصيب مطر بالذُّعْر عندما بادرَ أغلبُ سائقي السيارات باستخدام آلات التنبيه، فقد أَخَذَتْ الحركةُ المروريّة المختنقة تنفرج تدريجيًّا، فسارع إلى ركوب سيارته التي أوقفها وسط الشارع، ثم تحرَّكَ بها، وبينما كان يمرُّ من جانب السيارة المصطدمةِ بعمود الإنارة نظرَ إليها ففوجِئَ بما رآه من تحطُّم، وتمزُّق؛ إذ إنه لم يخطر بباله قط أن تصبح السيارة التي طالما حَلم بها في هذا الوضع..

لا يَصِلُ كلُّ مَن يبحثُ

"**لا يَصِلُ كلُّ مَن يبحثُون، ولكنَّ مَن يَصلُ هو ممّن يبحثون**".

دخلَ مطر مكتبه وتُسيطر عليه مشاعر الضجر بسبب تأخُّرِه عن العمل، وكان اليوم يوم استلام الراتب؛ إذ كان لديه الكثير من العمل لينجزَه بصفتِهِ مديرًا لقسمِ الحسابات بالشركة، وبينما راح يجلس على مكتبه قال:

- صباح الخير يا رفاق.

- سيدة سلمى.. من فضلك.. جهّزي قائمة مستحقات الرواتب، أريدُها أن تكون جاهزة بحلول الساعة ...

لم يكمل كلامه؛ إذ فوجئ بعدم وجود السيدة سلمى!

سأل زملاءَهُ عنها لكن أحدًا لم يُجبه، في هذه اللحظة دخلت السيدة سلمى المكتب وهي تحمل "تورتة" وعليها شمعات مشتعلة.. تَرَكَت الأوراقَ التي كانت بيدها الأخرى جانبًا، وبدأت تُردِّدُ في صوت واحد مع زملائها:

- سنة حلوة يا جمييل.. سنة حلوة يا جمييل.. عيد ميلاد سعيد يا مطر!

obeikandl.com

كان "مطـر" غافلًا حتـى عن أن اليوم هو عيد ميلاده، بالضبط كمـا كان غافـلًا عن وجـود المبنى الذي بُني علـى قطعة الأرض الفضـاء المجـاورة لمنزله.. تمامًا كمـا كان غافلًا عن عدم وجود السيدة سلمى على مكتبها!

وبعـد أن احتفـل الموظفون بِعيد ميلاده خـلال بضـع دقائق؛ أحضرت السيدة سلمى الأوراق التي تركتها قبل قليل على مكتبها وقدَّمتها له قائلة:

– هـذه فواتيـر الشـركة يا أسـتاذ مطـر، لكن لم أفهـم ما هذا الظرف!

وضـع مطر الفواتير جانبًا، وفتح الظرف الذي لم يكن مكتوبًا عليه من الخارجِ أيَّ شيء، وإذا به يجد داخله ورقة مكتوب عليها:

"أهنّئـك اليوم.. ليس لأنّك جئت إلى هذا العالم في مثل هذا اليوم قبل سـنوات، لكن لأنّك سـتولد اليوم، إذا كنت مللتَ الرتابة ففتّشْ عني، ولكن لا تنسَ أنه "لا يَصِلُ كلُّ مَن يبحثُون، ولكنَّ مَن يَصلُ هو ممّن يبحثون!".

الخادم

ما أن اسـتطاع مطر أن يُخلِّص نفسـه من تأثيرات ما مرَّ به منذ الصبـاح إلى الآن من مفاجآتٍ وأشـياء غيـر اعتياديّة؛ حتى جاءته هذه الرسـالة التي أعادته إلى قمّة التأثُّرِ وكأن أحدًا قد أراقَ عليه ذنوبًا من الماء البارد.. أراد ألا يظهرَ بمظهرِ المندهشِ فنظَرَ حوله فرأى الجميـع منهمِكًا في عملِهِ.

وهَمْهَم قائلًا:

"من هذا الخادم؟ أين وكيف ولماذا أبحث عنه؟"

فبدأ الجميع ينظر إليه، وسأله "طَيْفُونْ":

- هل تخاطبنا يا أستاذ مطر؟!

من الواضح أنه كان يُفكر بصوت عالٍ بسبب حالة الاندهاش التي سيطرت عليه.. شعرَ بالخجل، ولم يُحِرْ جوابًا سوى كلمة "لا".

مرَّ نهار ذلك اليوم صعبًا على مطر؛ إذ قضى يومه وهو يسأل نفسه: "من هو ذلك الخادم؟"، ناهيك أصلًا عن انشغاله الشديد بتوزيع رواتب الموظفين، وكانت هذه الفكرةُ مثيرةً لدرجةِ أنها كانت بالنسبة له عبارة عن شَغَفٍ جميلٍ، وفي الوقت نفسه خلَقَتْ داخلَهُ خوفًا غريبًا، فذلك الخوف من المجهول اختلطَ برغبته وفضولِهِ بمعرفة ذلك المجهول، وتحوّل هذا إلى إحساسٍ فريد لم يشعرْ به من قبل أبدًا.

كان على مطر أن يهرب من ذلك الشخص المجهول أو يبحث عنه، لكنه لم يكن يرغب في أن يقدم على تنفيذ أيٍّ من هذين الخيارين، غير أن شعورَ الاضطرارِ كان يدفعُه بأقصى سرعة نحو اتّخاذ قرارٍ ما.

لم ينسَ تلك العبارة التي كانت في الظرف، وخصوصًا آخرها الذي يقول:

"إذا كنت مللتَ الرتابة ففتّشْ عني"...

- أليست الرتابة هي سبب الملل الذي أشعر به؟ اليوم هو عيد ميلادي، لقد أتممْتُ اثنين وثلاثين عامًا في سجن هذه الدنيا، أحيانًا ما أحكي لدقائق عن الأحلام التي أحلم بها خلال ثوانٍ من نومي، لكن لو سألني أحدهم لأحكي عما عشته من سنين فلن أستطيع أن أحكي إلا بهذا القدر القليل جدًّا.. فعن ماذا سأحكي والأيام كلُّها متشابهة؟! كما يبدو أنه لن يكون لدي الكثير لأحكي حتى لو عشت اثنين وثلاثين عامًا أخرى في هذا العالم.

كان جدي يقول لي: "يا بنيَّ.. ستُسألُ عن عمرك فِيمَ أفنيتَهُ"، فبماذا سأجيب عن هذا السؤال، هل سأقول لمن سيسألونني: "ليس لديّ ما أحكيه، تعلمون أن أيامي مرّت على المنوال نفسه". لا.. لا.. لقد سئمْتُ هذه الحياة حقًّا! ثم إن خسرْتُها فما الذي يمكن أن أفقده بالله عليكم؟

حسنًا، كيف لي أن أعثر على هذا الخادم؟ لقد كتبَ في ملاحظتِهِ عبارةَ "لا يَصِلُ كلُّ مَن يبحثُون، ولكنَّ مَن يَصلُ هو ممّن يبحثون"! حتى أفقدني القدرةَ على التفكيرِ والتركيز!!".

لقد قال مطر هذه الكلمات وانفجَرَ ضاحكًا على نفسه بسبب عصبيَّتِهِ.

تذكَّر وقتَها حالات مشابهة شاهدها في بعض الأفلام.. ففطن أنّه لا بد أن تكون ثمة إشارة في تلك الرسالة، فبينما كان

في طريقه إلى المنزل بَدَأ يُفكر مليًّا في العبارة الواردة في الرسالة على النحو التالي:

يقول الخادم: "أهنّئك اليوم.. ليس لأنّك جئت إلى هذا العالم في مثل هذا اليوم قبل سنوات، لكن لأنّك ستولد اليوم"، كتبها وكأنَّ ثمة فرقٌ بين مصطلَحي "المجيء إلى العالم" و"الولادة"، وهذا يعني أن ذلك الخادم يرى أنه ليس هناك أي داعٍ للاحتفال بمجيء الإنسان إلى العالم، وأن ما يجب الاحتفال به هو "الولادة".

إننا نستخدم كلمة "وُلد" للأطفال الذين خرجوا من بطون أمهاتهم وبدؤوا يمارسون الحياة في هذا العالم، وهذا يعني أن الميلادَ هو أن يبدأَ الإنسانُ بالحياة. إذًا، أنا سأولد اليوم، أي سأبدأ بالحياة اليوم.. يا له من أمرٍ عجيبٍ! ألم أكن أعيشُ حتى يومنا هذا؟ هل كنت ميتًا؟! لحظة.. لحظة.. ألم أكن موجودًا في هذه الحياة؟! ما الفرق بيني وبين ذلك الرجل الذي مات بأزمةٍ قلبيّة صباح اليوم؟ هو لم يرَ ذلك المبنى المشيد على الأرض الفضاء، وأنا كذلك.. وعندما دخلت مكتبي وألقيت التحية على زملائي لم تكن السيدة سلمى على مكتبها، لكنني لم ألاحظ ذلك!

إن الموتى لا يشعرون بما يحدث حولهم، فما الفرق إذًا بيني وبينهم؟! كما هو الحال عندما أكون غافلًا عن كل شيء في أثناء النوم، ولهذا يسمّون النوم بـ"الموت الأصغر"، والمفهوم من ذلك أننا نقضي بقية يومنا بعد الاستيقاظ من النوم كالذي يسيرُ في أثناء نومه.. أي كأننا ننام طيلة اليوم، أو بالأحرى طيلة العمر.

لقد وصل مطر منزله ولا تزال هذه الأفكار تسلبُ عقله بالتفكير، وبينما كان في طريقه نحو المِرآبِ ألقى نظرةً خاطفةً على المبنى الجديد المجاورِ لمنزله، وحينها مرَّتْ جميعُ الأحداث التي عاشها طوال اليوم سريعًا في مخيّلتِه وكأنها نصب عينيه، لقد كان يومًا طويلًا ومتعِبًا، غير أنه لم يكن يشعرُ بالتعب كما كان الحال في الأيام الماضية.

عندما دخل المنزل شم رائحةَ أكثر الأطعمة المحبَّبةِ إلى قلبه، أو إلى معدته إن صحّ التعبير.. يبدو أن زوجتَهُ لم تنسَ أن اليوم هو عيد ميلاده، فلما سمعت صوت الباب خرجت من المطبخ مبتسمةً وقالت له:

- عيد ميلاد سعيد يا زوجي الحبيب!

ردَّ عليها مطر:

- لا أعرف اليوم الذي جئت فيه إلى هذا العالم، لكن اليوم هو عيد ميلادي في الحقيقة.

ما أصاب زوجته بالذهول، ثم أضاف:

- سأغسل يديّ وآتي حالًا.

تجاذب الزوجان أطراف الحديث وهما يتناولان الطعام وبدأ كلٌّ منهما يُحدِّثُ الآخر عمَّا حدثَ معه خلال يومه؛ لكنَّ مطر كان لديه الكثير ليقصّه على زوجته "رَهْنُمَا" التي لم تجد فرصة للكلام وهي تستمعُ إليه، لكن في نهاية المطاف استطاعت

أن تسأله: "وكيف ستجد هذا الخادم؟"، وهو ما كان كافيًا لإجبار مطر -الذي تحدث قرابة ساعة دون توقُّفٍ- على الصمت للحظة.. بل حتى دفعه للشعور ببعض اليأس.. على أي حال، كانت لدى "رهنما" فكرة أنقذتْهُ من الحيرة، إذ بادرت قائلةً:

- كان والدي ﷺ يقول دائمًا: "لا يَصل كلّ مَن يبحثُون، ولكنَّ مَن يَصلُ هو ممّن يبحثون!" فسألته يومًا عن معنى هذه العبارة، فردَّ "ابحثي دون كلل أو ملل! أثبتي بجهدك أنك تشتاقين إلى محبوبك! وحينها ستلامس يدٌ كتفَك وسيجِدُكِ ما كنت تبحثين عنه.

قال مطر بعدما فكَّرَ برهة:

- بكلِّ تأكيد، ربما لا أستطيعُ العثور على من أبحثُ عنه، لكنه هو الذي سيجدني! بالضبط كما حدثَ في الحلم الذي رأيتُه الليلة الماضية.

كان يتلهَّف شوقًا ليخلدَ إلى النوم، فالسرير لم يعدْ بالنسبة له تابوتًا، بل صار كَرَحِمِ الأم التي سيولد منه مجدَّدًا.. توضأ وقبعَ في سريره وتلا سريعًا جميع الأدعية التي يعرفها، ثم فتح يديه وحاول أن يترجم ما يدورُ في خلده؛ إذ قال:

"يا إلهي! سامحني على ما ضاع من عمري إلى اليوم، واجعل استيقاظي في الصباح هو ولادتي الجديدة، وأن استيقاظي من النوم هو استيقاظٌ من الغفلة، أدعوك أن تطرد ظلمة الذنوب التي في قلبي كما تطرد شمسُ الصباح الظلامَ وتبدِّدُ الرياحُ الغيومَ

وكما ينيرُ قمر الليل دروبَ الصيفِ، أسـألك أن تُبدد غيوم الغفلة وأن تنير عالم قلبي، اللهم آمين!".

شـعر مطر بالدهشـة من هذا الدعاء الذي خرج من بين شفتيه بصـدق وإخـلاص وسلاسـة عجيبـة، وكان كالـذي يتحدث في أحلامه بلغةٍ لا يعرفها أبدًا قبل ذلك، وكأنه لا يتحدّث، بل شـيء يجعله يتحدث، لقد غطّ في النوم بعدما لم يتحمّل عقله المسكين التفكيرَ في المزيد من هذه الأفكار.

obeikandl.com

اللقاء العجيب

استيقظ مطر في الصباح.. نعم، هذا كل شيء، فلم يكن ثمة شيء آخر يُقال بشأنِ الليلة الماضية بأكملها، نام واستيقظ، هذه كل الحكاية! كان ينتابه شعورٌ غريب، يشعرُ وكأنّه تعرَّضَ لخيبةِ أمل.. لكنه تخلّص من غضبه هذا دون أن يفكر أبدًا في التفاصيل، ثم خاطبَ نفسه قائلًا: "لكن لا، هذا الغباء منّي! ألم يقلْ ذلك الرجلُ "لا يَصِلُ كلُّ مَن يبحثُون"، فماذا عليه أن يقول غير ذلك؟".

استطاعَ مطر أن يستفيق عندما غسلَ وجهه بالماء، فالآن بإمكانه التفكيرُ بشكل أفضل.. والآن.. ما الذي أغضبَ مطر ولماذا؟ إن الخادم لم يَعِدْه بشيء أبدًا! لم يقُل له: "أنت من تبحث، وسأجدك على أي حال"، ولهذا فإن أفضل شيء يمكن القيام به في هذه الحالة هو أن ينتظر مطر، ولكن أن يجعلَ انتظاره فعالًا ونشطًا وليس فارغًا، وفي الحقيقة لن يدوم هذا الانتظار طويلًا.

أخذ يحاول رؤية كل ما ينظر إليه بعينيه وسماع كل ما يصل إلى أذنيه، أي إنه بدأ يبحث عن ذلك الشخص، لربما كانت ثمة أمارة في محيطه تقوده للعثور عليه، وفي تلك الأثناء سمع صوتًا من الخارج جذب انتباهه، فتوجَّه نحو صالة منزله التي تُطلُّ

علـى الشـارع، وفتح النافذة، وشـنَّفَ أذنيـه، وكان ذلك الصوت يُشـبه النداء على الجنازة.. لاحظَ أنه سـمع هـذا الصوت مرات عديدة قبل ذلك، لكنه لم ينصت إليه قط، لكنَّه هذه المرة شـنَّفَ سـمعه وأنصـتَ إليه باهتمـام؛ فهو الآن يبحثُ عـن الخادم، كان ذلك الصوت يقول:

"لقـد توفي الأسـتاذ "مطر صَنْجَـاقْ" المقيم في حيّنا وستُشَـيَّع جنازتـه اليوم بعـد صلاة الظهر ليُدْفَـنَ جثمانُهُ فـي "مقبرةِ الغربـاء" التابعة للبلدية، نسـأل الله له الرحمة والمغفرة!".

كاد مطر يصدق تلك الكلمات التي سمعها؛ فكان تمامًا كمن يبدأ الشـك في نفسه ويظن أنه فعل شيئًا ما نتيجة ضغط ادعاءات مـن حولـه برغـم أن الحقيقة بخلاف مـا يزعمون؛ فخـارتْ قُواه وجثـا علـى الأرض.. وكان حينهـا يفكـر في العثـور على مكان الجامـع الـذي صدر عنـه ذلك النـداء ليذهب إليـه ويطّلـع على مـا حـدث، لكنه لم يكن قادرًا على الحركـة أبدًا.. وعندما لاحظَ أنه لا يستطيع حتى التنفُّسَ أرادَ أن يصرخَ بملءِ فيه، كان يرغبُ فـي أن يتمسـك بهذه الحياة، وكأنـه محمول عُنـوة داخل تابوتٍ على الأعناقِ ويسير به المُشَيِّعون إلى مقبرة الغرباء.

دخلت زوجته "رهنما" صالة المنزل وهي قلقة بعدما سمعت صـوتَ انكسـارِ المزهرية التـي هوت إلى الأرض مـع المفرش الذي أمسـك به مطر وهو يسـقط، وفي الحقيقة كان الجميع قد سـمعوا هذا الصوت باستثناءِ مطر الذي أمسكَتْهُ زوجتُهُ وحاولت

مساعدته في النهوض عن الأرض، فكانت من ناحيةٍ تشعر بالقلق كثيـرًا وهي تنظر إلى عينيـه الجامدتين، ومن ناحية أخرى تُحاول إثبـات عـدمِ عجزهـا من خـلال الصـراخ المتقطـع.. وفي تلك اللحظة استفاق مطر واحتضن زوجته وحاول أن يهدِّئَها بقوله:

- هوّنـي عليـكِ، لم أُصَبْ بشـيء سـوى أني شـعرت بدوار بسيط، هذا كل ما في الأمر، يبدو أن ضغطي قد انخفض قليلًا.

جهَّـزَ مطـر نفسـه سـريعًا كي لا يتأخَّـر على عملـه، ذلك أنه كان عليـه أوَّلًا الذهـاب إلى الجامـع ليعرف ماذا حدث، ثم تذكَّر أن الشـيخَ الـذي أعلن ذلك الخبر لن يكـون موجودًا هناك الآن؛ إذْ لا صـلاةَ الآن.. فـكان الطريق الوحيـدُ أمامه لمواجهة الحقيقة هو الانتظار حتى صلاة الظهر ثم الذهاب إلى الجامـع وأداء صلاة الجنازة على جثمانه نفسـه! ربما اسـتغربَ هذه الفكرة وضاقَ بها ذرعًـا، لكـن يبدو أنه لم يكـن أمامه خيار آخر.. ففـي آخر أربعٍ وعشـرين ساعة من حياته لا شـيءَ يبدو خاليًا من الغرابة.. وهذا الأمر مثل سابقيه..

عندمـا وصل إلـى مكتبه كان جميـع الموظفين على حالتهم المعهودة، لكنه نظر إليهم كلًّا على حدة كي يتحقَّقَ من وجودهم، وحيّاهم قائلًا:

- صباح الخير أيّها الزملاء.

لقد أصبحت لديه من الآن فصاعدًا عينان تريان، وأدركَ فورًا أن حـال الجميـع قد تغيَّر، فعلى سـبيل المثـال كان من الواضح

أن السيدة سلمى قضت وقتًا ممتعًا لدى مصفف الشعر أمس بعدما حصلت على راتبها الشهري، كما كان "طَيْفُونْ" -المولع بالأجهزة الإلكترونية- ممسكًا بجوّال جديدٍ، وأما إسماعيل فقد كانت عيناه ترقصُ فرحًا؛ إذ كان قد خطب حديثًا ويبدو أنه قضى بالأمس وقتًا ممتعًا مع خطيبته.

ما إن فتح مطر حاسوبه حتّى وَلَجَ إلى الإنترنت وبحث عن موعدِ صلاة الظهر، وكانت في الساعة (١٢:١٤ظهرًا).. كان عليه أن يخرج إلى وقت الاستراحة مبكِّرًا هذه المرة، فالتفت إلى زملائه وقال دون تفكير:

- يا أصدقاء! عندي صلاة جنازة ومن الواجب عليّ الخروج وقت الظهر مبكرًا بعض الشيء.

فسأله إسماعيل بصوتٍ قَلِقٍ:

- البقاء لله يا أستاذ مطر! هل الميت قريبك؟

وحينها فطنَ مطر إلى ما يجب عليه التفكير بشأنه.. ربما كان يمكن للواحد منا أن يوضِّح درجة القرابة التي تربطُهُ بأحدهم، لكن كيف للإنسان أن يتحدَّث عن قرابتِهِ بنفسه؟!

لم يستطع مطر سوى أن يرد بقوله متلعثمًا:

- نعم... يُعتبر قريبي..

وعندما أشارت عقارب الساعة إلى (١١:٣٢) كان مطر قد غادر المكتب بعدما تلقّى بعضَ التعازي من زملائه، ثم وصل

إلى المقبرة دون أن يفكِّرَ في أيِّ شيءٍ طيلةَ رحلتِهِ التي استغرَقَتْ بالسيارة قرابة نصف ساعة في شوارع المدينة.

دخل المقبرة من الباب الرئيس الذي يقع في نهاية ممر وحيد محاط بالجدران العالية، وكأنهم بنوها على هذا النحو حتى لا يهرب الموتى أو لا يراهم الأحياء ويزهدوا في الدنيا.. بعدها سار في الطريق الموصل إلى منارة الجامع، وكان من السهل عليه في مكانٍ كهذا أُحيط بالأشجار الكثيفة من كل جانب أن يعثرَ على الجامعِ اهتداءً بمنارته العالية.. وكأن منارات الجوامع إشارةٌ تنيرُ دربَ الباحثين، وتقول لهم "النجاة هنا!".

نزل مطر من سيارته، وبينما كان يسير نحو مكان الوضوء لم يستطع أن يمنع عينيه من النظر -ولو خلسة- إلى التوابيت التي تحمل الموتى، لكنه لم يتمكن من قراءة ما كُتب عليها لِبُعد المسافة، أو بالأحرى لم يجرؤ هو على الاقتراب منها.

بينما كان يتوضأ إذ رُفِعَ الأذان، ما جعله يعود بالذاكرة إلى طفولتِهِ عندما كان يُمْسِكُ يدَ جدِّهِ الوحيدِ الذي يحبه كثيرًا ويذهب معه إلى الجامع؛ إذ لم يكن يفارقه أبدًا، وكان دائمًا ما يرفع يديه بالدعاء ويطلب من الله أن يرزقه درّاجة، ثم يخرج مع جدِّهِ ليعودَ إلى المنزلِ ليشتريا وهما في طريق العودةِ الخبزَ الساخنَ والطازجَ من الفرن، وكان مطر دومًا ما يقضمُ طرفَ الرغيف لحلاوته، لكن لم يعد للخبز طعم كما كان في السابق.. أو لم يعد لهذه الحياة التي يعيشها من دون جده أيُّ معنى.

أدّى مطر صلاة الجنازة خلف الإمام ذي الصوت الجهور، ثم خرج أقاربُ المتوفّين إلى صحن المسجد حتى يؤدُّوا آخر مهمّة تجاه أقاربهم الذين فارقوا هذه الحياة.. كان مطر في آخر صفّ، فقال أحدهم "نوينا الصلاة على الحاضرِ من أموات المسلمين!".. كبَّر الإمام وكبَّروا من خلفِهِ.. وكان الجميع يَقِفُ ويدعو، فخاطبهم الإمام "سامحوا من تُوُفِّي!"، فأجاب الواقفون في صوتٍ واحدٍ "لقد سامحناهم!"، وبدؤوا يحملون التوابيت على أعناقهم، باستثناء تابوت واحد.

تقدَّم مطر نحو ذلك التابوت بخطًى خائفةٍ ونظرَ إلى الورقةِ المعلَّقة عليه، ومسح دموعَهُ قائلًا: "ربما تكون عيناي المبلَّلتان لا تريان بشكل جيّدٍ"، لكن اسمه كان مكتوبًا على الورقة بالفِعل، فلم يصدق ما يرى.. إنّه "مطر صَانْجَاقْ" فعلًا!

سارع ليلحق بإمام الجامع على أمل معرفة الحقيقة، وعندما لحق به سأله:

- يا شيخ! ما موضوعُ "مطر صانجاق" هذا الذي تركتم جثمانه ولم تحملوه؟

فأجابه:

- سندفنُهُ في مقبرة الغرباء، سيصلُ اثنان من الموظَّفين ليحملوه وينقلوه إلى السيارة، هذه خدمة تقدّمها البلدية للسُّكّان الذين لا نصلُ إلى أقاربهم.

فسأله مطر سؤالًا منطقيًّا:

- وكيف لهم أن يعرفوا اسمَ شخص مجهول ليس له قريب؟"

فأجابه:

- لقد تلقَّينا ورقةً من فاعلِ خير آثَرَ عدمَ ذكرِ اسمِهِ.. قال إنه سجّلَ اسم المتوفى لدى الجهات المعنية، ولم يكتفِ بذلك بل كتب اسم المتوفى على حجرٍ ليُنصبَ على قبره، حجرٍ غريبٍ بعض الشيء، لكن بما أنه عملَ خيرًا فلا يمكننا ردُّه.

وبينما كان مطر يتجاذبُ أطرافَ الحديث مع إمامِ الجامع وصلَ الموظَّفون إلى التابوت، تصرف مطر بسرعة وأخرج بعض المال ومنحه لحاملي التابوت كي يهتمّوا بعملية الدفنِ ويؤدوها على أفضل شكل، ثم بادر بحملِه وطلب منهم أن يُساعدوه.

كان إمام الجامع على وشك أن يستدير ليمشي، فما كان من مطر إلا أن جذبه من رداء وجدانِه وقال له: "لا تدع ثواب حمل هذا المتوفى!"، فما كان من الإمام إلا أن حمل التابوت من الأمام مع مطر، فيما حمله الموظفان من الخلف، وربما تكون هذه هي المرة الأولى التي يُحمَلُ فيها هذا المسكينُ على الأكتاف، ولكنها ستنتهي به إلى القبرِ وإلى مثواه الأخير.. غير أن مصدر الراحة التي كان مطر يشعر بها هو قدرته على فهم ما يحدث وحل الألغاز المحيطة به، ويبدو أن كل هذه الأشياء كانت صنيعة ذلك الخادم، لكن مطر لم يكن يعرف ما هي لعبته الأخيرة.

obeikandl.com

عندما قال موظفا البلدية "ها هو المكان!"؛ وجد مطر نفسه أمام مشهد مختلفٍ تمامًا عن بقية المقابر الأخرى، وبينما كان الإمام يدعو بالرحمة للفقيدِ ويهيل الموظفان الترابَ عليه في لحدِه؛ تسمَّرَ مطر في مكانه كشاهد القبر المنصوب أمامه، فهذا الحجر كان غريبًا حقًّا كما قال إمام الجامع؛ إذ ليس مكتوبًا عليه تاريخ الوفاة، بل كُتب عليه تاريخ الميلاد فقط "١٤ فبراير/شباط ٢٠٠٧م"، وهو تاريخ الأمس، ذلك اليوم الذي بدأت فيه كل الأحداث الغريبة والعجيبة.

كان المشهد الذي اكتمل عندما أتمّ الجميع أعمالهم وغادروا المكان أكثر جدية وبرودة وإدهاشًا من إعلام الوفاة الذي سمعه مطر هذا الصباح.. لم يستطع السيطرةَ على دموعه فانهمَرت متدفقةً كالمطرِ المتهاطلِ من السماء.. لقد حدَّثَهُ جدّه من قبلُ أنه سمّاه مطرَ حتى يأتي اليوم الذي تنهمرُ فيه دموعه كالمطر.. وكأن اليوم الذي تحدث عنه جدّه من قبلُ قد حان الآن..

شعر مطر بعدها بقليل بِيَدٍ تَرْبِت على كتفه، وبصوتٍ في غاية النعومةِ وهو يُخاطبه.. وهذا ما كان كفيلًا بتبديدِ الغيوم؛ إذ قال:

- هل تعلم لماذا اختار جدك لك اسم مطر؟ سأخبرك، فكما أن المطر وسيلةٌ للرحمة، فكن أنت أيضًا وسيلة للرحمة.. حتى ينجو الناس من مشاكل الدنيا وهمومها.

أدرك مطر حين سمع هذه الكلمات أن اللحظة التي انتظرها قد حانت أخيرًا، لا بد أن يكون هذا هو الخادم.. كان صوتًا

رخيمًا لدرجة تجعل الإنسان يستفيق، وبنفسِ الوقتِ هادئًا لدرجة تجعل الإنسان ينسى جميع مشاكله، ومفعمًا وطافحًا بالأمل.. ممّا يُعيد للإنسان حيويَّته الإيمانية، ولا شكّ أن هذا كان صوت الخادم، وبالرغم من أن مطر كان واثقًا من هذا إلا أنَّ مطر لم يكن مستعدًّا للالتفات والمواجهة فوجَّه إليه سؤالًا دون أن يستدير أو ينظر إليه:

- من أنت؟

- أنا الخادم! مثلك تمامًا..

- لكني لست خادمًا!

- لا تُجِبْ دون تفكير، أليس كل إنسان خادمًا؟ ألا يخدم الناس بعضهم بعضًا؟ فكِّر في يوم عاديّ تعيشه، تذهب إلى عملك لتخدمَ زوجتك، ثم تعمل لتخدم صاحب العمل، كما تدفع الضرائب لتخدم الدولة.. وإذا افترضنا أنك تقدّم كل هذه الخدمات مقابل شيء معين، فماذا عن العبودية التي تربطك بنفسك؟ ألا تدرك أنك تستجيب في كل لحظة لِصوت بداخلك فتخدمه؟!!

يقول ذلك الصوت: "أشعر بالجوع!"؛ فتأكل.. يقول: "أشعر بالعطش!"؛ فتشرب.. يقول: "أشعر بالتعب!"؛ فتنام.. ويكفي أن يأمرك عندما ترغب نفسك في ارتكاب الذنوب، فتقول له: "سمعًا وطاعةً!" وتنفّذ جميع أوامره حرفيًّا دون أن تبالي بحالة الذلِّ التي تُسيطر عليك حينها.. ولهذا فأنت خادم ذليل، أما أنا فخادم عزيز!

obeikandl.com

استجمعَ مطر قواه، ونهض وبدأ يستدير إلى الوراء ببطءٍ شديد، ومن هول ما رأى فقد نسيَ للحظةٍ أن يلتقط أنفاسه.. إنّه ذلك الإنسان المبارك الذي كان يعتقد أنه مَلَك بينما كان حيًّا وقبلَ أن يموت؛ فكيف به وقد رآه الآن قائمًا على قدميه بعد الموت!! إنه الشخص الذي يتمنّى أن يراه مجدَّدًا.. يذكره مغمورًا بالشوق مرَّةً في اليومِ على الأقل.. وكلما ذكره تحرَّق قلبه شوقًا لرؤيته.. إنّه جدُّه النوراني صاحبُ اللحيةِ البيضاءِ الذي كان عندما يحكي أحدُ أصدقائه عن حلمه بقوله: "لقد رأيتُ جدًّا نورانيًّا ذا لحية بيضاء"؛ يُداعبه قائلًا: "لقد رأيتَ جدي مرَّةً ثانية".

عندما رآه مطر أكبَّ عليه واحتضنه..، لقد كانت رائحته التي استنشقها ساحرة لدرجة أنه لم يكن يشكُّ في أن جدَّهُ قادمٌ من الجنّة أو أن ما يحدثُ لا يمكن أن يكون حقيقيًّا.. وبعد مرور وقت طويل لَفَتَ انتباهه شيءٌ لم يلاحظه خلال حالة الدهشة التي سيطرت عليه في البداية، ألا وهو أن دموعه التي انسكبت من عينيه كانت تتبخَّرُ ما إن تلامس كتفَ جدِّه! ولو كان هذا يحدث بسبب الحرارة لكان يجبُ أن تحترق يداه أيضًا من الحرارة! وما إن شعر مطر بهذه الحالةِ غيرِ المفهومةِ حتى رجع إلى الوراء ببطءٍ، وكان يحاول فهمَ ما يحدث؛ إذ كان من المستحيل أن يفهم أي شيء لو لم يساعده الخادم بعباراته التي أوضحت له الأمر على جناحِ السرعة:

- أنا من "زمرة الخادمين" التابعة لـ"وحدة المجاهدين" بـ"جيش الخير"، ولقد كُلِّفت بتدريبك خصّيصى.. ظهرتُ لك في صورة

أكثر الأشخاص قربًا إلى قلبك وهو جدُّكَ لأنك لن تكون قادرًا على رؤيتي في صورتي الأصلية، وهو ما سيسهّل مهمتنا..!

- اعذرني، لكن لم أفهم شيئًا مما قلت.

- نحن في خضمِّ حربٍ مستمرةٍ منذ آلاف السنين على الأرض بعدما بدأت في السماء، فهذه الحربُ دائرةٌ بين الخير والشر، وبين الشياطين وبني آدم وبين.. عزازيل (الشيطان) وآدم عليه السلام.. فجيشُ الخيرِ هو من يدعم الخير، وأما "جيشُ الشرِّ" فهو من يدعم الشر، ومن يُدير شؤونَ جيشِ الخير هو مجلسٌ مشكَّلٌ من خيرةِ الأرواح في الملإِ الأعلى، وفي مقدِّمتهم "حظيرة القُدس"، وهذا المجلسُ يتَّخِذُ قراراتِهِ الخاصة بالتدابير اللازمة من أجل إنقاذ الإنسانية من المِحَن الدنيوية والأخروية.. ولهذا، فعلى سبيل المثال يتَّفِقُ أعضاء هذا المجلس الموجودون في ذلك اليوم على تدريبِ أفضل عباد الله وأكثرِهم صفاءً ومساعدتِه في مهامه بين الناس، وينصُّ هذا الاتّفاق على ضرورة إنزال العلوم التي ستكون سببًا في تحصيل خير الناس وهدايتهم على قلب ذلك الشخص على هيئة وحيٍ أو حلمٍ أو إلهامٍ، وأن يظهر له أحدُ ملائكةِ "حظيرة القُدس" فيُكَلِّمَهُ بشكلٍ شفوي، حتى إن لزم الأمرُ تُرسَل إليه قوّات خاصة لتساعده هو والمؤمنين معه.. ولقد كُلِّف جميع الأنبياء بهذه الطريقة.. كما تتدخّل الوحدات الفرعية لتنفيذ هذه القرارات، وإحدى تلك الوحدات هي "وحدة المُراسِلين" التي تتألف من الرسل والملائكة، وتقوم بجميع أعمال الوحي والإلهام والاستخبارات.

وبنظراتٍ حائرةٍ حملقَ مطر نحوه متعجّبًا.. لكن الخادم لم يأبه بذلك وواصل كلامه:

- وثمة وحدة ثانية تُسمى "وحدة المحافظين"، وتتكوّن من الملائكة والبشر؛ إذ تتولّى مهمّة حماية سائرِ الوحدات الأخرى ودعمها سواء عن طريق الدعاء أو التدخل المباشر.. وأما الوحدة الثالثة فهي "وحدة المجاهدين" التي ننتمي إليها، وهي تتولى مهام أكثر مقارنة بوحدات الدعم الأخرى، وتتألف من الرسل والأولياء والملائكة.. ويندرج تحتها زُمَرٌ فرعية ووحداتٌ أصغر.. إحداها "زمرة العلماء" التي تتكون بالكامل من الأولياء، إلا أن مهمّتها تتلخص في تعلُّم وتعليمِ جميع العلوم الضرورية من أجل الانتصار في هذا الصراع.. كما أن هناك "زمرة المحاربين" التي اكتسبت هذه التسمية لأنها تتكون من "المغاوير" الذين يشتبكون مباشرة مع العدو.. والآن لننتقل للحديث عن "زمرة الخادمين".

وبينما مطرُ في غمرة العجبِ؛ تابع الخادم حديثه:

- وأما مهمّتنا الأساسية نحن "زمرة الخادمين" فهي إنقاذ الأبرياء الذين لم ينضموا إلى أي من الطرفين بعدُ، وليس الاشتباك مع العدو.. وعلاوةً على أن جميع الأنبياء ينتمون إلى هذه الزمرة، فإن هذه الزمرة تضمُّ العديد من الملائكة والأولياء الذين يسعون لإنقاذ البشرية.. ولقد صارت زمرتنا ضعيفة لأن جبهتها أصبحت هي الجهة المنوط بها التعامل مع معظم الصراعات

التي يشـهدها هذا الزمان الـذي تعيش فيه أنت.. أضفْ إلى ذلك أن المائة عام الأخيرة شهدت وضْـع جيش الشرِّ جميـع مخططاته بهـدفِ مهاجمتنـا، بـل نجح في السـعي جاهدًا لضـم الكثير من الأبرياء إلى صفوفه، الأمر الذي صعّب مهمتنا كثيرًا.. ففي الوقت الذي نسـتطيـع فيه أن نصل إلى إنسـان واحد يسـتطيعون هم أن يصلوا إلى ألف إنسـان، وللأسـف فإن زمرتنا لا تستطيـع مجاراة هذه القوة.

تعجّـب مطـر ولم يعـد يعرفُ مـاذا يقول أمام ما يسـمعه من الخادم!! لكنه سأله عن أول شيء خطر بباله:

– حسنًا، ولماذا اخترتموني أنا بالذات؟ وما علاقتي بكلِّ هذه الأحداث؟!

– أما زلت تأكل بذور الزيتون؟

– نعم، لكن ماذا بعد؟!

– مَن طلب منك أن تفعل هذا؟

– أنت.. أأأقصد جدي هو من طلب أن أفعل هذا.

– يا مطر، لم يكن جدك الذي كنت تحبه إنسانًا عاديًّا؛ إذ كان من أكثر الخادمين الذين قابلناهم وفاء.. فهو كان يهتم بك بشكل خاص، ولم يكن هذا الاهتمام هباءً منثورًا.

– نعم، لم أكنْ أنا فقط من يلاحظُ ذلك، بل كان سائرُ أحفاده يُدركون ذلك، وكانوا يغيرون منّي بالذات بسبب هذا الاهتمام.

- بالضبط كما غار إخوة يوسف لما كان يكنّه أبوه يعقوب عليه السلام له من حب وتقدير، لكن جدك لم يكن يهتم بذلك، لأنه كان يعرف شيئًا ما، كان يعرف بأنه سيأتي اليوم الذي تكون أنت كذلك "خادمًا"، ولولا ذلك لما طلب من جميع معارفه في "زمرة المحَنّكِين" التابعة لـ"وحدة المحافظين" أن يتضرَّعوا إلى الله بالدعاء لأجلِ ذلك، وها قد حان الأوان.

حاول مطر فهمَ الموقف بقوله:

- حسنًا، وهل أنا مجبرٌ على قبولِ هذه المهمة؟

- لا، لستَ مُجْبَرًا بكلِّ تأكيد، فهذه مسألةُ عرضٍ.. ومن ثمَّ فقبولٌ أو رفضٌ، ولكن لا تنسَ أن الحيادية لن تنفعَك أبدًا. اسمعني، كان الحيوانات في الغابة قد انقسموا إلى مجموعتين، مجموعة تسير على أقدامها ومجموعة تطير بأجنحتها، وأرادت كلُّ مجموعةٍ منهما السيطرة على الغابة، ولهذا دخلتا في حرب ضروس، ولم يبق أحدٌ على الحياد باستثناء النعامة، وعندما كانت المجموعة التي تسير على أقدامها تطلب منها أن تنضم إليها كانت تقول "كيف أنضم إليكم وأنا طائر؟"، وعندما كانت المجموعة التي تطير تطلب منها الطلب نفسه كانت تقول "كيف أنضم إليكم وأنا لا أستطيع الطيران؟".. وفي النهاية وضعت الحرب التي استمرت لسنوات أوزارها، وأُعلن السلام، وصار أعضاء المجموعتين الذين كانوا أعداء الأمس أصدقاء اليوم، وأصبحوا يمرحون معًا كل يوم، لكنَّ أحدًا منهم لم يشأ أن يضمَّ

النعامة إلى صفِّهِ أبدًا، فقُضي عليها بسبب الوحدة.. ما أريد أن أقوله لك يا بني: "إنه ينبغي حتى للطائر أن يُحَدِّدَ الفريقَ الذي ينضمُّ إليه".

وتابع الخادم كلامه بهذا المثال:

- لو كنت قد شهدت اليوم الذي كان سيدنا إبراهيم عليه السلام سيُلْقى فيه في النار التي كان النمرودُ قد أشعلَها واستعَرَت حتى صارت تلتهمُ الطيور المحلِّقين في أعالي السماوات على ارتفاع مئاتِ الأمتار فوقها، والتي أتَتْ على الأخضر واليابس في المساحة المحيطة بها، وبينما الأمر كذلك ظهرت حمامةٌ في السماء، وكانت تطيرُ ناحية النار التي كان يهرب منها جميع الطيور وهي تحمل في منقارها قطرة ماء، وعندما رآها أحد الطيور الذي كان يهرب من النار وهي تطير كالمجنونة، سألها: "إلى أين تطيرين هكذا؟"؛ فأجابت: "سمعت أنهم أشعلوا نارًا ليرموا فيها إبراهيم عليه السلام، ولهذا أنا في طريقي لإطفاء هذه النار"، فسألها ثانية: "وهل تعتقدين أنكِ ستطفئين هذه النار العظيمة بقطرة الماء تلك التي تحملينها في منقارك؟"، فأجابت: "أعرف أنا أيضًا أن هذه القطرة لن تطفئ النار، لكن غرضي أن أوضح الطرف الذي أدعمه!

تابع حديثه قائلًا:

- لا تنسَ أنه ليس هناك مسافة بين الجنة والنار، فهذا الطريق يوصل إلى إحداهما، فاختر الطريق الذي تريد!

استحى مطر أن ينظر إلى ساعتهِ، بعد ما جالَ بخاطره أنه تأخر عن العمل، ولهذا شعر ببعض الاضطراب، وحينها أدرك الخادم الأمر، فنظر إليه بابتسامته الحنونة التي لم تفارقه طيلة اللقاء قائلًا:

- لا تقلق.. لا تقلق.. انظر إلى ساعتك.

لم يصدق مطر ما رآه، فلقد كانت ساعته تُشير إلى الساعة (١:٠٢ظهرًا)، وكان يتذكر جيدًا موعد أذان الظهر الذي بحث عنه على الإنترنت، كان في الساعة (١٢:١٤)، فبعدَ أن صلّوا الظهرَ؛ أدّوا صلاة الجنازة، ثم وصلوا إلى المقبرة ودفنوا ميّتهم، وبعدها أخذ يتحدّث مع الخادم لحوالي نصف الساعة، لكن عقارب الساعة لا تزال تشير إلى (١:٠٢) وكان مطر على وشك الاعتقاد أنه أصيب بالجنون لولا أن الخادم فسّر له هذه الحالة بقوله:

- يمتلك بعض الخادمين أسلحة خاصة بهم، فما تعيشه في هذه اللحظة يسمى "بسطَ الزمان"، أي إنك تمضي وقتًا طويلًا في لحظة ما وكأنك انسلخت من قيد الزمان.. وسترى الكثير من الأحداث المشابهة طيلة فترة مرافقتك لي.. وسيكون من الأفضل أن تستعدّ لذلك جيّدًا.

مطر:

- هلَّا تسمحون لي بسؤال أخيرٍ: كيف لشخص لم يتركْ ذنبًا إلا واقترفه أن يكون وسيلة لإنقاذ الإنسانية؟

وبينما قالها مطر لم يكن حتى هو مدركًا رقيَّ لغتِه في خطاب الخادم، إذ إنه يقول له: "أنتم.. أنتم.." بدلًا من "أنت"..

الخادم:

- لـن أقول لـك إن الذنوب التي ارتكبتَها في الماضي شـيءٌ جيّـد، لكن أريـد أن تعلم أن بإمكانك اسـتغلالها في فعل الخير، فأنـت مـن بيده تحويـل هذه الوضعيـة إلى ميزة إيجابيـة؛ إذ إنك بحالتك هذه تعلم جيّدًا لماذا يرتكب الناس الذنوب وما يفكرون فيه قبلَ اقترافها وبعده، كما تعرف الوسائل التي يستخدمها جيشُ الشـر الـذي يوقـع النـاس في الذنـوب.. فهذه ليسـت معلومات نظريّة، بل إنها أشـياء تعلَّمْتها بعدما جرَّبْتَها بنفسك.. ولهذا فإنك تفهمُ جيّدًا كيفية التعامل مـع الكثير من البائسين الذين لم ينضمُّوا بعدُ إلى صفوف جيش الخير، كما أنك تعلم أنه لا يوجد إنسـان معصوم سـوى الأنبياء.. وربما يكون هناك أناس يظنُّون أنفسـهم بـلا ذنـوب فيقعون في براثن مرض احتقار المذنبين! وهذا سـيِّئٌ للغاية.. فالمهمة التي سـتكلَّف بها تكاد تكون من المسـتحيل أن يقوم بها أشخاص كهؤلاء.. ذلك أن سِرَّ هذا العمل يكمنُ في أن يكون ذلك الشـخص إنسـانًا بين البشـر.. صدِّقْني وأرِحْ نفسَكَ.. فـإن ما عليـك تعلُّمه من أجل تنفيذ هذه المهمة سـيكون أسـهل مـن فهـم كل هـذه التفاصيل.. دعني أبشـرّك بأنـي حصلت على إذن خاص من مجلِس القيادة بأن تتعلَّم كل شـيءٍ سـأعلِّمك إياه عن طريقِ المعايشة.

استغرب مطر كثيرًا، تمتمَ قائِلًا:

- كيف هذا؟ لم أفهم!

فأجابه الخادم:

- سيكون هذا المكان هو المكان الذي سنلتقي به يوميًّا من أجل أن أُعَلِّمك، ولهذا فيجب عليك أن تصلِّي الظهرَ في هذا الجامع القريبِ من المقبرة، ثم تأتي إلى قبرك أنت ههنا.. وبالمناسبة، لا تأتِ مرة ثانية وأنت ترتدي ساعة في يدك.. أغمض عينيك وأنت تستعيذ بالله وتقرأ البسملة من أجل قراءة سورة الفاتحة، ولا تفتحهما إلا بعد أن تنتهي منها وتقول "آمين".. ستكون هذه القبور بابًا للعبور إلى عالم آخر، بالرغم من أنها كذلك بالنسبة لجميع الناس! لكن أريد أن أنبِهك إلى ذلك من الآن، مهما كان المنظر الذي ستراه عندما تفتح عينيك فإياك أن تخاف أو تغلق عينيك.

وسرعان ما بدأ مطر يشعر بالخوف، فسأل الخادمَ:

- هل يجب عليّ أن أرى كل شيء؟ ألن يكون مناسبًا أن نكتفي بالشرحِ كما شرحت لي اليوم؟

- أنتَ محقٌّ بالشعورِ بالقلق، لكن اعلم أن هناك ثلاث درجات لليقين، ألا وهي:

١- علم اليقين ٢- عين اليقين ٣- حق اليقين

وقد كان الأنبياء يعرفون كل شيء بحقِّ اليقين، كالأشياء التي تعلمها نبينا محمد ﷺ في رحلة المعراج.. وسيكون من الصعب عليك فهم هذا إن شرحته كذلك.. وأما علم اليقين فهو معرفة

شيء في مستوى المعرفة فقط، ومعظم العلماء ينتسبون إلى هذه الفئة، فما تتعلمه مني عن طريق السمع هو علم اليقين.. وأما عين اليقين فهو أقوى منه. فهل يمكن أن نساوي بين أن يشرح الإنسان ما سمعه وبين أن يشرحَ ما عايشه؟!

لذا فإنك ستتعلم كل شيء عن طريق المعايشة.. فلو آمنت بهذه الطريق سيكون من الأسهل أن تساعد الناس، فإيمان كهذا سيكون أقوى سند لك لتثبيتك في طريق هذه الخدمة الشاقة.. وقد استطاع الأنبياء كذلك أن يمثّلوا الحقائق لأنهم آمنوا بمستوى حق اليقين، ولهذا لم يتراجعوا عن دعوتهم أبدًا.

مطر:

- اسمح لي أن أذهب، فرغمَ أنّني أمتلك الكثير من الأسئلة التي أريد معرفة أجوبتها، لكن أعتقد أن وقتنا اليوم لن يسع لذلك.

الخادم:

- لا تنسَ! نحن الآن في حالة "بسط الزمان"، فإذا أردت يمكن أن نبدأ تدريبنا ونُنهيه كله في هذه اللحظة، لكن الأفضل أن تتعلم بشكل تدريجي حتى يسهل عليك الفهم.. ألا ترى أنك حينما تتناول الطعام ببطءٍ وبشكلٍ تدريجيٍّ فإنّك تهضمه بشكل أفضل؟؟

تصرَّفَ مطر بعفويّة وحاول تقبيل يد الخادم الذي تمثل في صورة جده الذي اعتاد على تقبيل يده منذ الصغر؛ إذ لم يكن

يبـرحُ مكانـه دون أن يقبّل يده ويسـمـع منه الدعاء له بالخير، غير أن الخادم لم يسمح له بفعل ذلك، وقال له:

- إيـاك أن تنسـى! مـا أنا إلا خادم، وأنا هنـا لخدمتك لتكون أنت كذلك خادمًا في المسـتقبل القريب.. لذا عليك ألا تسـمح لأحد أن يُقبّل يدك طوال حياتك في الخدمة!

مطر:

- كما تريد يا سيدي، سامحني..

قالها وهو يبتعد رويدًا رويدًا.

لقـد أصبح منذ ذلك اليـوم من الذين اختـاروا فريقهم بدقة، ولـم يبـقَ سـوى أن يُثبِتَ ذلـك بالفعل، فهذا الطريق الذي يسـير إليه بين القبور وتحيط به الأشـجار من كل جانب سـيوصله إلى الجنة، وعندما يصلُ إلى هناك سيسـعدُ بكثرة الناس الذين لحقوا به أكثر من النعم التي سـيتنعّم بها، ذلك أن هذا الطريق هو طريق الخادمين.

obeikandl.com

بداية الرحلة

عندما وصل مطر في المساء إلى منزله كان يشعر بشغف لا يوصف بشأن ما سيعايشه في اليوم التالي.. وقد لاحظت زوجته "رهنما" حالته حتى بدأت تطرح عليه الأسئلة الواحد تلو الآخر في محاولةٍ منها لِفهمِ ما حدث.. لكن مطر كان يعتقد أن عليه ألا يحدّث أحدًا بشيء عن هذا، ذلك أنه كان يرى أن كل هذه الأشياء من النوعية التي لا يمكن فهمها دون معايشتها.

قال في نفسه: "عليّ الاستعداد للرحلة، لكن يجب أن يكون هذا الاستعداد مختلفًا بقدر اختلاف الرحلة على أقلّ تقدير".

سأل زوجته عن المكان الذي حُفِظت به كتبُ جدِّه القديمة، فأجابَتْهُ بردٍّ أظهرَ له مدى الغفلة التي كانت تُلازِمُهُ منذ سنين، إذ قالت:

- يمكن أن تبحث عنها في الخزانة التي نضع فيها الأشياء المهملة التي لم نعدْ نستخدمها!

- أبحث عنها أين؟ في مكان تخزين الحطب؟!

- ألم تقل لي إنها غير ضرورية، ولهذا لم أنظر حتى إلى ذلك الصندوق!

لـم يسـبق لمطر حتـى تلك اللحظة أن شـعرَ بهـذا القدرِ من الخجل أمام نفسه؛ إذ كيف كان له أن يُلقي بالإرث الوحيد لجدِّه الذي كان يحبه كثيرًا في مكان تخزين الحطب؟!

ألم يكن جدُّه قد اسـتأمنه على هذه الكتب دونَ سـائر أحفاده الآخريـن بعدما حافـظَ عليه من البيـعِ والتفريـطِ حتى في أحلك ظروفهِ المعيشيّة؟

توجَّه مطر ووجهه تعتليه حمرة بسـبب الخجل من نفسـه إلى مـكان تخزيـن الحطب، وشـعر بفرحة عارمة عندمـا رأى الكتب وكأنه اكتشـف كنزًا.. انتزعَ الصندوق الذي يحوي كل شـيء بقي له من جدِّه، وسـارعَ إلى الصعـودِ إلى المنزل، وعلى الفور انتقل إلـى غرفـة الصالون الباردة، وهي المـكان الوحيد الذي يمكن له أن يجلس فيه بمفرده، ومن ثم وبكلِّ حماسٍ فتحَ الصندوق الذي غطاه التراب.

كان لهـذه الأشـياء التـي أمامه الآن قيمة خاصّة في نفسـه؛ إذ أماناتٌ مقدّسةٌ تركها له أحدُ أوفى الخادمين في "زمرة الخادمين".. كانت فوق الصندوق سبحةٌ مكونة من تسـعٍ وتسعين حبة، عندما التقطَها شعر بالرغبة في أن يُمطِرَ كلَّ حبَّةٍ فيها بتسـعٍ وتسعين دمعةً من عينيه.. ولم يكن السـبب في هذه الرغبةِ هو فقط تذكُّرُهُ لتلك الأيام الخوالي التي كان يرى فيها هذه السبحة بين يدي جدِّه، بل إنّه في الوقت نفسه وجدَ أن الرائحة التي نشرَها الصندوق فوَّاحةً في الغرفة كانت هي نفسها التي شمَّها عندما احتضنَ الخادم قبل ساعات..

التقَـطَ الكتـابَ الذي فـي أوَّل الصندوق، واحتضنـه أوَّلًا، ثم فتح إحدى صفحاته دون أن ينظر، وكان الكتاب يحتوي على كل شيء يلزمه من أجل الرحلة، إذ إن عينه وقعت على العبارة التالية:

"ابنوا ما هدمتم، نظِّفوا ما لوَّثتم، حوِّلوا سيِّئاتكم إلى حسنات، لَمِّعوا وجودَكم الذي اسودَّ بالذنوب، أعيدوا ما أخذتـم إلـى صاحبه، لقد هرَبْتم من سـيِّدِكم وبعُدْتُم عن عبوديَّتِهِ، عودوا إليه فورًا وتوبوا".

نظر مطر إلى غلاف الكتاب، وكان مكتوبًا اسـمه عليه "الفتح الربّانـي والفيض الرحمانـي لِعبد القادر الجيلانـي"، فقال: "اللهم ارضَ عـن هؤلاء الرجال!".. ثم توجَّهَ بخطواتٍ ثابتة نحو الحمام واغتسـل؛ إذ كان يريـد تطهيرَ نفسِـهِ من كلِّ الذنوب التـي اقترَفَهَا حتى ذلك اليوم، وكان عازمًا على أن يُزيل حِمل الذنوب من على ظهره وينطلق في رحلته كالمسـافر الذي يتخلَّص من كلِّ شيءٍ لا يلزمـه خلال رحلته.. بدأَ يتضرَّعُ بإخـلاصٍ طلبًا للعفو والمغفرة، واستشـهد على ذلك بدموعـه التي انهمرَت مـن عينيه.. ثم صلى العشاء وأوى إلى فراشه.. ولم يكن هناك داع لأن يجلسَ في فراشِهِ -كما اعتاد من قبل- لنصف ساعة حتى ينام، ذلك أن أمامه طريقًا طويلًا سيسيرُهُ وصلاة صبحٍ سيستيقظُ لها ليصلِّيها في وقتها.

شـعرت "رهنما" بالقلق عندما اسـتيقظت لصـلاة الفجر ولم تجـد زوجها في الفراش؛ إذ كانت قـد اعتادت على أن تراه نائمًا فـي كلِّ يـوم كانت تسـتيقظ فيـه للصـلاة.. كانت هـذه الوضعية تُزْعِجهـا، لكنها كانت تؤمن بأنه سـيتغير يومًا مـا.. تملَّكها الأملُ

للحظة، ثم قفزت من فراشها وبدأت تبحث عنه، فسمعت صوتًا غامضًا قادمًا من صالة المنزلِ، فَتَحَتْ البابَ برفقٍ ورأتْ مطر ساجدًا ويُتَمْتِمُ ببعضِ الأشياء.. أحسَّت حينَها أنها امتلكت العالم؛ إذ كان من المُدْهِش بالنسبة لها أن ترى أن اللهَ قد قَبِلَ فجأةً دعاءَها الذي طالما تضرَّعَت به منذ سنوات.. أغلقت الباب برفق حتى لا تزعجه وذهبت لتتوضَّأ.

أخذ مطر يصلي ويتضرَّع إلى الله لدقائق غير آبه ببرودة الجو في الصالون.. فما كان يبكيه بحرقة ليس حزنَه على الأخطاء التي ارتكبها في الماضي، بل فرحًا بسعة رحمة الله.. عندما رفع رأسه من على سجادة الصلاة كانت الشمس على وشك الشروق.. لقد ولَّدَتْ له هذه السجدةُ حياةً جديدةً وليس يومًا جديدًا فقط.

تناول الزوجان وجبة الإفطار سويًّا للمرّة الأولى وقد انعكسَتْ الطمأنينة التي شعرا بها قلبيًّا على وجهيهما في صورة ابتسامة لطيفة.. وبعد أن قضيا خمسًا وأربعين دقيقة وهما يتحدّثان إلى بعضهما في بهجةٍ وسرور، لم تكن "رهنما" قد عرفت بعد ما سببُ هذا التغير المفاجئ، غير أن مطر لم يمنحها الفرصة لمعرفة هذا ونهض على الفور محتجًّا بعدم رغبته في التأخُّر عن عمله.

لقد تغيرت نظرة مطر كذلك نحو زملائه في العمل، فأصبح يفكر فيما يحدثه به الخادم ويرغب في أن يفعل شيئًا من أجلهم.. غير أنه لم يكن يعرف كيف يبدأ هذا العمل وكيف ينجزه، وكان يعتقد أن عليه الصبر حتى ينهي تدريبه على يد الخادم.

openkandil.com

خـرج مطـر مـن مكتبـه فـي السـاعة الحادية عشـرة وخمسٍ وأربعيـن دقيقـة.. أي قبل أذانِ الظهر حتى يُـدرِكَ صلاة الجمعة، ووصـل إلى الجامـع الموجود في المقبرة قبـل أن ينهي المؤذن الأذان بقليـل.. كان صحـن الجامع مليئًا كالعـادة بالتوابيت التي تنقـل جثامين الموتى المتراصّين جنبًا إلى جنبٍ، وأقاربهم الذين يرتدون النظارات السـوداء.. يعتقد مطر أن هذه الصيحة إنما هي تقاليـد غربيّـة، ويرى أنهـا إنما ظهرت بدافـع تجاهل الموت في الغالـب، لكن عين الموت كانت أسـود من كل هـذه النظارات.. بعـد أن صلـى صـلاة الجنـازة خلـف الإمـام صاحـب الصوت الجهـور، انتقل -كجميـع الموجودين- إلى المقبرةِ ووقفَ يتأمّل القبرَ الخاص به.

كان كافيًـا بالنسـبة لـه أن يأتي كلَّ يومٍ ليرى قبـرَهُ، فيفهمَ منه معنـى الحيـاة.. فهـل كان مـن الممكن أن يرى هذا المشـهد ولا يفكر بالموت وما بعده؟

أعاد مطر -سـريعًا- التفكيرَ بما قاله الخادم، وكان كلُّ شـيءٍ يسـيرُ على ما يرام.. وبما أنه لم يكن يرتدي سـاعةَ يدٍ، كما طلب منـه الخـادم؛ كان بإمكانـه أن يبتـدِئَ الدرس.. أغلـق عينيه وهو مغمورٌ بمشـاعر مختلطةٍ بين الخوف والحماس، وبعد أن استعاذَ وتلا البسملةَ بدأ يقرأُ آياتِ سورة الفاتحة آية آية.. وفجأة...

obeikandl.com

مكانٌ بدأ فيه كلُّ شيء

كان المشهد الذي رآه مطر رائعًا، كان حشدٌ كبيرٌ من الملائكة الساجدين يملأُ المكان على امتداد البصر.. لفتَ انتباهَهُ استثناءان منتصِبان أمامه وجهًا لوجه في خِضَمِّ هذا المشهد الرائع، وسرعان ما ظهر الخادم إلى جانبه قائلًا:

- الذي يَقِفُ في الوسطِ هو سيِّدُنا آدم عليه السلام خليفة الله في أرضه وجدّ الإنسانية ونبي الله الأوّل لها، وأما الذي يقفُ بين الملائكةِ الذين يرتعدون من الخوف وهم في سجودهم فهو "إبليس" العاصي، عليه لعنةُ الله، رئيس الجان، أو ما يعرف باسمه القديم "عزازيل".. فبالرغم من أن الله سبحانه وتعالى قد أمر قبل قليل جميع الملائكة، بمن فيهم عزازيل، بالسجود لآدم عليه السلام، غير أن عزازيل لم يسجدْ، ما أخافَ الملائكةَ من غضبِ الله، ولهذا فهم يرتعدون خشيةً أن يَقضي عليهم جميعًا في أي لحظة.. فتوجَّهَ الله ﷻ بالسؤال إلى عزازيل قائلًا: ﴿**يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ**﴾، فاستمعَ إلى الرد الذي أجاب به عزازيل وكانت تفوحُ منه رائحة التكبُّرِ والحسَدِ والتمرُّد: ﴿**أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ**﴾.

لم يستطعْ مطرُ أن يُصَدِّقَ ما سمعَهُ، ولم يقدِرْ على أن يُخفِي تعجُّبَهُ من هذه الحالة عندما قال للخادم:

- ولكـن لا أعتقـد أن يكون هـذا الأمر هو فقط سـبب تمرّد كبير كهذا.

فصادق الخادم على مقولة مطر بقوله:

- بكل تأكيد فإن هذا ليس السببَ الوحيد..

ثم تابـع قائلًا:

- بالرغم من أن الله كان قد خلق عزازيل بشكل مختلف عن الملائكـة إلا أنـه كان يُكنُّ محبّة كبيرة لخالقـه لدرجة أنه واصلَ العبـادةَ الحثيثـة علـى مدار قرون حتى رفـع الله قـدره وجعله بين الملائكـة.. وقـد قوي إيمـان عزازيـل بأنه يتمتـع بمكانة خاصة للغاية عند الله لدرجة جعلته لا يتقبل فكرة أن يكون إنسانٌ بسيطٌ خُلِـقَ من طيـن أحبَّ إلى الله وأرفـعَ مكانةً منـه.. وكان يرى أنه تنـازل عـن مكانته لصالـح آدم.. لكن الحقيقـة أنه لو كان مُخلِصًا فـي حبـه وطاعته لله لـكان نفَّذَ أمـره دون أدنى تـردُّد.. وكان من الواضـح، كمـا فهمنا من عـدم تقبله لأمر السـجود لآدم، أن هذا الحب كان نفسانيًّا بالكامل.

وواصل الخادمُ كلامَه:

- هـذا إضافـة إلى أن حالة التمرُّدِ التـي بدَرَت من عزازيل لم تكن مفاجِئَةً، بل سُـبِقَت بتخطيطٍ طويلٍ وانتظارٍ للفرصة والوقت المناسـب لإظهـار جرأتِـهِ، ذلـك أن الله قـد قـالَ قبل خلـق آدم، ﴿**إِنِّي جَاعِـلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَـةً**﴾؛ وحينهـا سـأله الملائكـة قائلين:

﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.. وكان لقب "الخليفة" الذي استُخْدم للتعبير عن الجنس البشري كفيلًا بأن يصيب عزازيلَ بالحزن الشديد، ولهذا اتخذ قراره منذ البداية، وخاطب بعض الملائكة بقوله: "إنني أعبد الله دون توقف منذ زمن طويل؛ في حين أنه بمجرد خلق هذا الإنسان سيكون أعلى مني مكانة! والله لا أقبلُ هذا أبدًا".. ولهذا فإن هذا التمرد هو ثمرة ذنوب الكبر والحسد التي سقط عزازيل في براثنها.

كان بإمكان مطر حتى من هذه المسافة أن يرى نار العداوة وهي تتطاير من عيني عزازيل، ولقد أخافته هذه النظرات لدرجة جعلته يبذل ما بوسعه ليغلق عينيه ويضغط بكل ما أوتي من قوة على ذراع الخادم الذي أمسكه ليحصل منه على الدعم..

تابع الخادم حديثه:

- لقد طُرد عزازيل من رحمة الله عندما قال له ﷻ: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۞ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ فبدأ عزازيل يبحث لنفسه عن طريق للنجاة، لكن بدلًا من أن يطلب المغفرة من الله وينفذ أمره بالسجود لآدم عليه السلام شرع في الانتقام من آدم.

وحينها بدأ عزازيل يتحدث كالمفلس الذي يلعب بورقته الأخيرة؛ إذ قال: ﴿رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، بدأ كلامه بهذه العبارة، لكنه عندما واصلَ حديثَهُ تحوَّلَ الأمر بالكامل إلى تحدٍّ وصراع، فقال: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾.

لقد نجح عزازيل في الحصول على مهلة من الله إلى يوم القيامة، وإن كانت هذه المهلة لم تكن كما أراد؛ إذ كانت فرحته عارمة؛ لكنّه لم يتورَّع عن توجيه التهديدات الترهيبية لآدم، فقال ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾.

عجز مطر عن قول شيء أمام هذا الموقف، فما هذه الجرأة والعصيان والكراهية التي يُضمرها عزازيل!! لقد استطاعَ هذا الشيطانُ الملعون أن يتحوَّلَ إلى كائنٍ شرسٍ لهذهِ الدرجة في حضرةِ خالقِهِ الذي خلقَهُ من عدم، فما الذي سيتورَّعُ عن فِعلِه ضد البشر المساكين الذين اتخذهم أعداء؟!

شعر مطر بالخوف الشديد، وكان يريد أن يبتعد عن المكان فورًا بعدما نسي حتى الخادم الذي كان يقف بجانبه طيلة هذه الأحداث لدرجة أنه عندما استدار إلى الخلف التقت أعينهم، فبدأ الخادم يتابع كلامه ووجهه تعلوه تلك الابتسامة الباعثة على الطمأنينة:

- انتظر قليلًا، اهدأ! سيرتاح قلبُكَ عندما تسمع الإجابة التي ردَّ بها الله عليه؛ إذ قال: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۞ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلا﴾.

أنت كذلك تُلاحِظُ أن آدم عليه السلام لا يتحمَّل أيَّ مسؤوليّة فيما يتعلّق بهذه العداوة، وكل ما في الأمر أن الله اختاره وأحبّه، لذلك فإن العداوة الأساسية التي يُضمِرُها عزازيل موجّهةٌ نحوَ مَن اختاره وليس آدم شخصيًّا، لكن بما أن من المستحيل أن يتَّخِذَ المخلوقُ الخالقَ عدوًّا؛ فقد نصب عزازيل عينيه تجاه آدم عليه السلام وذريته.

سَيُشَكِّل عزازيل جيشًا من فرسانه ومشاتِهِ، وقد أطلَقنا عليه نحن "جيشَ الشرِّ"، ليُعْلِنَ حربًا ضروسًا على الإنسانيّة كلها، وفي مواجهة عدوٍّ أقوى من الإنسان ويحمل الكثير من الحقد عليه كإبليس يُخبرُنا الله بأنه سيكون وكيلًا لعِباده ويريدُ منهم أن يشعروا بعونه دائمًا.

ردَّ مطر متسائلًا:

– ثمّة شيءٌ لم أفهمْه، لماذا منحَ الله عاصيًا كهذا مهلةً إلى يوم القيامة وسلّطه على بني البشر؟ ألا يقدرْ إن أرادَ أن يقهره فورًا!؟

أجابه الخادم على الفور:

– لا شك في أن الله على كل شيء قدير، ولو أراد لقضى عليه في الحال.. لكن فكّرْ قليلًا في الغرض الذي خلق الله البشر والجان والملائكة من أجله.. لقد كان كنزًا مخفيًّا، قوة لا يمكن مقاومتها، فنًّا لا يمكن تقليده، صاحب علم لا يمكن لأحد إدراكه.. أراد أن يُعرَف ويسبَّح ويحمَّد ويكبَّر ويهلَّل..

ولأن الملائكة التي خلقها كانت محرومة من الإرادة الحرّة، فقد كانت عباداتهم بعيدة كل البعد عن الاختيار، ولم يكن لهم أيُّ خيارٍ من قبيل ألا يسجدوا له وينفذوا أوامره.. ولأنهم مسلوبو الإرادة فلم يحدد لهم أيَّ محظورٍ يجب عليهم الابتعاد عنه.. أما التعبير الحقيقي للعبودية كان يمكن أن يجد لنفسه تجسيدًا في الإنسان الذي سيُمنح الحريّةَ ليختارَ بمحضِ إرادته بين أن يعبده وألا يعبده، ومن ثَمَّ يُسبّحه ويحمده ويكبّره ويهلل له ويبتعد عن المحظورات المؤلّفة في الأساس من رغباته ليؤدّي الأوامر التي تُعْتَبَرُ صعبةً على نفسِهِ.

وتابع الخادم كلامه:

- وفي هذه الأثناء بالتحديد يتدخل عزازيل في الأمر لِيُرغِّب الناس في جميع المحظورات التي حرمها الله عليهم، وعندما يعقدون العزم على إطاعة أوامر الله يستخدم سلاح الوسوسة ليمنعهم من ذلك.. وبهذه الطريقة يستطيع أن يجرّ من أبعدهم عن طريق العبودية من بني آدم إلى العذاب الأليم الذي ينتظره.. وكما قلت لك سابقًا، فإننا في فرقة الخادمين نبذلُ أقصى ما بوسعنا لنفسد على عزازيل خدعته هذه، ولقد أقسمنا على أن ننقذ الناس من مصائده.. أقول إنها "خدعة" منه، ذلك أن هناك قواعد لهذه اللعبة، وهذه القواعد قد حدَّدَها الله الذي له حكمةٌ في كلِّ شيءٍ يفعلُه.. وحتى هو ﷻ لم يقضِ على عزازيل قبل قليل بموجب هذه القواعد، وسمح له أن يكون مسلَّطًا على بني آدم.. ولهذا فإن عزازيل وجنودَه وكذلك نحن البشر علينا

أن نتحرَّك وفقَ هذه القواعد.. وإلا فإن الحكمةَ من مجيءِ البشرِ إلى الدنيا، والذي أطلقْنَا عليه اسم "سرِّ الاختبار"؛ تكون قد انْتَفَت، لكن الله لا يسمح بهذا أبدًا.

أصبحَ مطر مدركًا لِحجم خطرِ الشيطان بعدما رأى بعينيه كيف أنَّ الشيطانَ وبِلَمْحِ البصر قد أعلنَ حربًا بلا هوادة ستستمرُّ آلافَ السنين ضدَّ بني آدم غير آبهٍ بلعنةِ الله.. وعندما نظرَ إلى آدم عليه السلام لم يكن يرى إنسانًا سيُفْسِدُ في الأرضِ ويسفك الدماء؛ بل كان يرى إنسانًا طاهرًا لا يحمل همًّا في وجوده سوى كامل العبادة لله جل جلاله، لكنه في الوقت نفسه صار عدوًّا لأكبر قوّةٍ شرّيرة في الكون، وهذا يعني أنه سيكون لعزازيل دورٌ في كلِّ فسادٍ تشهدُهُ الأرض وفي كلِّ قطرةِ دماءٍ محرّمةٍ تسيلُ عليها..

وبينما مطرُ في غمرةِ هذه الأفكارِ سألَهُ الخادم سؤالًا غريبًا للغاية:

- أتريد رؤية الجنة؟

فأجابه مطر والدهشة تعتريه:

- لم أفهم قصدك؟ عن أي جنة تتحدث؟!

- تلك الجنة التي أسكن الله بها آدم وزوجته حواء عليهما السلام بعدما نبّههما بقوله: ﴿**يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى**﴾، وسَتَشْهَدُ بعد قليل النصرَ الأوَّلَ لعزازيل في هذه الحرب.. اقترِبْ وأغمضْ عينيك.

وبأفعالٍ عجيبة فتحَ عباءَتَهُ البيضاء الواسعة على مصراعيها ولفّ بها مطر الذي بدأ يشعرُ بأشياء غريبة ما إن أغلق عينيه.. وبدأ يشعر بالمتناقضات فهو كأنه يسقطُ وهو يرتفعُ، ويلفّ بينما هو واقف، ويتجمَّدُ وهو يحترق، وهي أشياء مستحيلة سُردت لوصف ما كان يشعر به في تلك اللحظة.. وعندما أمرَهُ الخادم بأن يفتح عينيه فتحهما بحماسٍ كبير.

في الوقت الذي يكون فيه كل ما يراه الإنسان ويسمعه ويعرفه ويتكلم به محدودًا إلى هذه الدرجة كيف لأيِّ لسانٍ محدودٍ وكلماتٍ قاصرةٍ أن تَصِفَ ولو النزرَ اليسيرَ الذي رآه من هذا الجمال اللامتناهي؟! فبينما كان مطر يحاول فقط أن يُشاهِدَ هذا المشهدَ الماثلَ أمام عينيه المنبهرتين؛ بادَرَهُ الخادمُ قائلًا:

- انظُرْ إلى هذهِ الجهةِ، ما تراه هما آدم وحواء ﷺ، هذان الشخصان المباركان اللذان أحلَّ الله لهما الجنة كلَّها باستثناءِ شجرةٍ واحدةٍ حُظِرَ عليهما الاقتراب منها، ولو تتذكَّر فكنتُ قد قلتُ لك: إن الملائكة لم يفرَض عليهم أي محظور لأنهم لا يتمتَّعون بحقِّ الاختيار، فهم لا يعصون الله ما أمرَهم ويفعلون ما يُؤمرون.. ولهذا كان يجبُ أن يُحَرِّم الله إحدى هذه النعم الكثيرة حتى يرى مَن يتبع أوامره ممن يعصيها.. أي إن الاثنين -آدم وحواء ﷺ- سيخضعان لاختبار كبير وصعب بعد قليل.. ولقد رأيتَ كيف أن عزازيل رَسَبَ في أوَّلِ اختبارٍ له مع آدم ﷺ، فلنرَ ماذا سيحدث في أوَّلِ امتحانٍ لابنِ آدم مع عزازيل.

كان مطـر يسـتمـع إلـى كلام الخادم مـن ناحية، ومـن ناحية أخـرى لـم يكن قادرًا على أن يحيد بنظـره عن عزازيل الذي كان واضحًـا مـن حالتـه المتوترة هـذه أنه يحيـك مخطَّطًا شـيطانيًّا.. وعندما رأى أن الفرصة التي انتظرها سنحت أمامه استجمـع قواه ولـم يلقِ بالًا لمشاعر الحقد التي بداخله وخاطب آدم وحواء عليهما السلام اللذين كانا يمران من جانبه بطريقة حميمة للغاية قائلًا:

- لماذا لا تأكلان من ثمار تلك الشجرة؟

قالا عليهما السلام:

- لقـد حـرَّم الله تعالى علينا الأكل منها، حتـى إنه حرَّم علينا الاقتراب منها.

قال:

- لكن هذه الشـجرة جميلة للغاية، كما أن ثمارها لذيذة ولا يضاهيهـا فـي ذلـك أي ثمرة في الجنة؛ إذ لم يـأكل أحد أي ثمار أحلـى ولا ألـذَّ منها، ولا أعتقـد أن بإمكانكما أن تأكلا أحلى من هذه الثمار!

قالا عليهما السلام:

- ليس مهمًّا، فنحن نستمتـعُ بكلِّ نِعَمِ الجنّة كيفما نشاء.

قال:

- حسـنًا، هـل تعرفان لمـاذا حُرّم عليكما الاقتـراب من هذه الشجرة؟

obeikandl.com

قالا عليهما السلام:

- لا نعرف.

قال:

- لأنكما لو أكلتما من ثمار هذه الشجرة ستكونان ملكين وستخلدان في الجنة.

قالا عليهما السلام:

- حقًّا؟ ألا تخدعنا؟

قال:

- أُقْسِمُ بالله لكما أنني أتمنى الخير لكما، وإلا فما مصلحتي في ذلك؟!

التقط عزازيل نَفَسًا عميقًا ثم قال:

- في الحقيقةِ إنني أُشفق عليكما لأن عمرَكما سينتهي سريعًا وستموتان، وستبقى نِعَمُ الجنّة كلها على هذه الحالة دون مستفيدٍ، بيد أنكما لو خلدتما في الجنة تأكلان وتشربان فهذا جيّدٌ لكما، وبنفسِ الوقت لن ينقصَ منها شيءٌ؟ فلو كنت مكانكما ما كنت لأفوّت هذه الفرصة.. وحتى لو أكلتما مرة واحدة ماذا سيحدث؟! وبعد أن منحكما الله قيمة لدرجة أنه جعل الملائكة يسجدون لأحدكما لن يغضب عليكما لأنكما أكلتما من ثمار أي شجرةٍ من أشجار الجنة!

obeikandl.com

لـم يُلْـقِ آدم عليه السلام بـالًا لهـذه الكلمـات، لكن حـوَّاء أُعجبت بفكرةِ الخلودِ في الجنّة، لأنها بصفَتِها بشـرًا سـيموت يومًا ما لا محالـة وسـتُحرَم من هذه النِّعَـمِ الجميلة، لكنها لـو تحوَّلت إلى مَلـك سـيكون بإمكانهـا الخلود فـي الجنة، والأهم مـن ذلك أن فاتورة هذا سيكون فقط أكل ثمرة هذه الشجرة.

ما كان لآدم عليه السلام أن يتغافل عن هذا اليمين الذي حلفه عزازيل أمامه.. فلو كان عزازيل يكذب لكان الله قد عاقبه على الفور لأنه حلف باسـمه كاذبًا.. لقد تحوَّل إصرار حواء عليها السلام، الذي زاد بمرور الوقت، إلى عَرْض في نهاية المطاف:

- سآكلها أنا أوَّلًا، فلو حدثَ لي شيءٌ تكونُ قد نجوتَ أنتَ.

وبينمـا كانـا يتجهان نحو تلك الشـجرة؛ قال مطر وقد نسـيَ ذنوبَهُ التي اقترفها:

- لا أُصَـدِّق! كيـف لهمـا أن يفعـلا ذلـك وقـد حذَّرَهُما الله صراحةً من عزازيل؟!

قال الخادم:

- كمـا ترى، هـذا ليس فقط انتصـارًا لعزازيل علـى آدم، بل إن هـذا الانتصار هو انتصارُ الشـرِّ على الخيرِ، إنـه انتصارُ جيشِ الشـرِّ علـى جيش الخير.. وقـد رفـع هذا النصـرُ الأوَّلُ معنويّات عزازيل لدرجةٍ جعلَتْهُ يعتقدُ أنه سـيكون قادرًا على خداع جميعِ بنـي آدم إلـى يـوم القيامـة.. والآن فإن هـذه الحـرب الضروس

ستستمر كذلك على الأرض بعدما طُردَ الشيطانُ والإنسانُ من الجنة كعدوّين بأمرِ الله.

فسأله مطر بحماسة كبيرة:

- إذًا، هل سننزل الآن إلى الأرض؟

أجابه الخادم على الفور:

- نعم، لكن سنذهب إلى قبرك، يكفي هذا القدر اليوم، وسنرى غدًا معًا الصراع الذي خاضه جيشُ الخيرِ في مختلَفِ الأزمنةِ بعد هذه الهزيمة الأولى التي مُنِيَ بها أمام أكبر أعدائه، أغمض عينيك الآن واستَعِذْ وبَسْمِلْ واقرَأْ سورةَ الناس، وعندما تنتهي افتح عينيك.. أُريد أن أنبّهَكَ إلى شيءٍ، وهو أن الوحدات الاستخباراتية التابعة لجيش الشرّ عَلِمَتْ بأمرك ونقل قادتها الأمرَ إلى عزازيل.. ولهذا أريدك أن تكون أكثرَ حذرًا من الآن فصاعدًا؛ إذ إنهم سيهاجمونك كلما سنَحَتْ لهم الفرصة.. فإذا اشتبهت بهجومٍ محتمَلٍ فعليكَ بقراءةِ هذه السورة فورًا، وحينها ستكون قوّات داعمة من "وحدةِ المحافظين" بجانبِكَ لِتَدْعَمَك.

أعرب مطر -كعادته- عن شغفه قبل خوفه؛ إذ قال:

- من أين تعرف هذا؟

- لقد حكيت لك عن "وحدة المراسلين" في أوّل لقاء بيني وبينك، فقسم الاستخبارات بهذه الوحدة يعمل أسرع من نظيره في جيش الشر، ولم نشهد نقلَ معلومات خاطئة كما يفعل هذا

القسم في الجيش المعادي.. انصرف الآن، وإذا قابلت العدو فلا تفسد هيبتك أبدًا وتذكَّر فقط ما قلتُه لك!

فعل مطر ما قاله الخادم، وعندما فتح عينيه وجد نفسه في بداية منطقة المقبرة.. لقد أدرك الآن بشكل أفضل ماهية العدو الذي يواجهه.

بدأت الخواطرُ تُراودُه على النحو التالي:

- إنني أتعجَّبُ من أَكْلِ آدم عليه السلام لتلك الثمرة، لكن ماذا عن الذنوب التي ارتكبْتُها طيلةَ حياتي؟ لقد أطاعَ آدم الشيطان مرّة واحدةً في حياته لِيُطْرَدَ من وطنٍ كالجنة، فماذا عني؟ من يدري كم مرة أطعت فيها هذا العاصي الملعون واتبعتُ أوامره على حساب النواهي التي وضعها الله!! ففي حين أمرني الله أن أستيقظَ في الصباح لِأُصَلِّيَ الفجرَ استمعْتُ للشيطان ونمْتُ في فراشي دون شعور، أمرني الله ألّا أكسرَ قلبَ أحدٍ، فأمسكَ الشيطانُ القلوب وعلَّقَها لي إلى أن أوسعْتُها ضربًا!! لقد أمرني بالابتعاد عن الحرام، فلم أستمِعْ له وجلسْتُ على سفرة الشيطان.. لو كنت لم أستمع إلى ما قاله جدي لكنت قد فقدت الأمل في رحمة الله.. لكن ماذا يمكن أن يحدث؟ وكنتُ أسمعُ جدِّي رحمه الله يقول: "ما قيمة ذنوبك مقارنةً برحمةِ الله؟! يكفيكَ أن تتوبَ منها، فَيُغْفَرُ لك فورًا، يكفيكَ أن تكونَ من التائبين يا بنيّ العزيز!".. رحمكَ اللهُ ورَحِمَنِي يا جدي العزيز!

obeikandl.com

obeikandl.com

الجيشان ينزلان إلى الأرض

أمضى مطرُ يومًا على أحرّ من الجمر.. كان يقرأ سورة الناس باستمرار لعجزِهِ عن معرفةِ متى ومِن أين وكيف سيهاجمُهُ العدوُّ، وكان يُفكِّرُ بينه وبين نفسه مُتَمْتِمًا: "ما أجمل الأمرَ إن أمكنتْ رؤية العـدوّ".. عندما تذكَّرَ أن آدم عليه السلام اتَّبـع كلام عزازيل بالرغم من أنه رآه، فكَّرَ قائلًا: "على أيّ حال لم تكن رؤيتي له ستُفيدُ بشيء، فالشيطان ذكيٌّ لدرجة أنه من المؤكّد سيجد طريقةً لخداعي حتى لو رأيتُه.. ومَن يقول أني لا أراهم أحيانًا؟ ففي نهاية سورة الناس التي أقرأُها باسـتمرار يقول الله عز وجل: إن الشـيطان يمكن أن يكون من الجنّ والبشـرِ على حدٍّ سـواء، فمِنَ الجِنَّةِ والناسِ، هذا فضلًا عـن أنَّ الجـانّ -على حدِّ علمي- يسـتطيعُ أن يتجسَّـدَ في صُوَرِ البشر والحيوانات وحتى الجمادات".. شعرَ مطر حينها أنه محاطٌ بالأعداء من كلِّ جانب، فأعادَ تلاوةَ سـورة الناس ولكن دون أن يُفْسِدَ هيبَتَهُ.

وفـي تلك الأثناء لفت انتباهـه كلام أصدقائه في المكتب؛ إذ كان "طَيْفُونْ" يحاول إقناع "إسماعيل" بأمرٍ ما:

- اسـمعني، إنك سـتتزوج بعد أشـهر قليلة، فهل الزواج أمر سهل يا صديقي؟ ستُنْفِقُ الكثيرَ من المال، تعالَ والعَبْ أنت أيضًا الورق (اليانصيب) قليلًا! ماذا ستخسَرُ بالله عليك؟!

إسماعيل:

- دعـك من ذلك يا صاحبي! مَنْ كسـبَ في هـذه اللعبة إلى اليوم حتى أربح أنا؟! لا يهمّني ما أنفقتُه من مالٍ في هذا ولكنّني أشعر بالحزن كثيرًا حين أخسر اللعب.

- لا تبالـغ! أعلم أن أحدًا لم يربحها خلال الأسابيـع الأربعة الأخيرة، لكن هذا الأمر يعتبر أفضل، هل تعلم كم هو الربح هذا الأسـبوع؟ مليـون ومائتا ألف ليرة.. تخيَّـل.. تخيَّلْ أن تكون أنت الرابح!! أنا أؤمن بأن هذا سـيحدث، فأنت شخص طيب القلب، وحينها لن تنسى صديقك "طَيْفُونْ" بطبيعة الحال!

- حسنًا! أعطني بضـع ورقات وإلا فإنني لن أنجو من لسانك أبدًا!

شـعر مطـر بالذهـول إزاء ما سـمعه، وكانت هذه هـي المرة الأولى التي يتعجَّبُ فيها لما يسمعه بالرغم من أنه سمـع حوارات مماثلة مرات عديدة سابقًا، ذلك أنه بينما كان يسمـع هذا الحوار تذكَّـر مجـدَّدًا الحوار الذي دار بين آدم عليه السلام وعزازيل، هل يمكن أن يحدث تشابُهٌ إلى هذا الحدّ؟ لم يستطـع أن يتدخّل في الحوار الأول، لكنه لم يستطـع أن يسيطر على نفسه كي لا يتدخل الآن، فاستجمـع قواه بصفته "خادمًا"، والتفتَ إلى إسماعيل وقال له:

- فـي رأيـي أنـك محـق فيما تقول يا إسـماعيل، فلـم أرَ في حياتـي أحدًا ربحَ المال من ورق اليانصيب، وكما قلتَ عندما لا تربح بالرغم من كل توقُّعاتك تشـعر بالحزن الشـديد.. لهذا أرى أنك بعدم شرائك لهذه الأوراق تكون قد فعلت الشيءَ الأفضلَ.

شعر إسماعيل بالدهشة لهذا التدخل غير المتوقَّعِ من مطر، لكن كان واضحًا أنه امتنّ كثيرًا لهذه الكلمات:

- أنت على حق يا أستاذ مطر! في الواقع لم أكن أرغب في اللعب، وما كنت سأشتري هذه الورقات إلا كيلا أكسر بخاطر صديقي طَيْفُونْ.. أشكرك كثيرًا.

ثم عاود الجلوس على مقعده الذي كاد أن ينهض منه.

شعر مطر بسعادة غامرة، فلم تشهد حياته الكثير من الأحداث التي جعلته يفرح إلى هذه الدرجة مثلما شهدتْها الآن.. لاحظَ أن طَيْفُونْ انزعج، لكن هذا الانزعاج لم يكن بالقدر الذي يفسد عليه الراحة التي شعر بها بعدما أدّى مهمته كخادم للإنسانية؛ إذ كان يرى نفسه وكأنه أنقذ شخصًا بريئًا من بين فكّي أسدٍ مفترِس، فهو شجاعٌ لدرجة تجعله يجابه الأسود لإنقاذ الأبرياء.. كانت حياته ستكتسب معنى من الآن فصاعدًا؛ إذ كان يرغب بشدة في خدمة الناس بهذه الطريقة.

كان مطر على وشك الخروج مبكّرًا مجدَّدًا حتى يُدركَ صلاة الظهر في الجامع، لكن طَيْفُونْ الذي لم يستطع التعبير عن انزعاجه قبل قليل، قال بعبارات إيحائية دون أن يفوّت الفرصة السانحة أمامه:

- خيرًا يا أستاذ مطر؟ أراكَ تنسلّ مبكرًا مجدّدًا.

فردّ مطر ردًّا أسكت طَيْفُونْ على الفور؛ إذ كان من النوع الذي يُرهِب مَن أمامه:

- إذا سأل عنّي المدير العام فأخبروه أن يتصل بي على الهاتف المحمول!

كان من الواضح أن طَيْفُونْ سيُحاول اختلاق مشكلةٍ ما، لكن الردّ الذي صدر من مطر أظهر له أن مطر لا يهمّه شيء، ولقد كان مطر بين خيارين إما أنه كان سيكذب ليقبل أن يدافع الشيطان عنه، أو يغادر المكتب مباشرة ويستعين بالله ليكون وكيلًا له.. فاختار الثاني وانطلق نحو المقبرة وهو يشعر بالطمأنينة نتيجة اختياره الصحيح.

بدأ يشعر في اليوم الثالث لزيارته للمقبرة وكأنه أصبح واحدًا من سكانها.. شاهد مرة ثانية التوابيت وأقارب المتوفين في صحن الجامع، وكأنه مشهد يتكرَّرُ ولكن بممثلين مختلفين في كل مرة.. كانوا جميعًا ينتظرون إمام الجامع الذي يؤدّي الدور نفسه كل يوم بعدما ينهي الصلاة.

انتقل مطر عقب الصلاة مباشرة نحو واجهة المقبرة.. أغمض عينيه، ثم تلا الفاتحة وفتحهما بعدما قال "آمين":

كانت الروابي الرملية تحيط به من كل جانب، وكان مطر متواجدًا في مكان حار وجاف للغاية.. لفتت انتباهه في الأفق حركات غير واضحة.. وبينما همَّ ليتوجَّه نحوها سمع صوت الخادم:

- إن ما تراه في الأفق هو آدم عليه السلام وعائلته المكونة من اثنين وأربعين فردًا.. تعال! لِنسرْ وأحكِ لك ماذا يحدث.

وتابع كلامه بقوله:

- بعد أن نزل آدم وحواء ﷺ إلى الأرض عثر كلٌّ منهما على الآخر بعد بحث طويل، وتمَّ اللقاءُ على ربوة قريبةٍ تسمى جبل الرحمة، فاستقرا بها وأسَّسَا أسرة.. وقد أنجبت حواء عليها السلام عشرين مرة وفي كل مرة توأمًا مؤلَّفًا من طفلين، ليصبح لديهما أربعون طفلًا.. وفي تلك الأثناء بدأ آدم يشتغل بالزراعة ليوفِّر احتياجات أسرته.. الأهم من ذلك أن "حظيرة القُدس" أرسل له رسولًا أبلغه بمجموعة من القواعد في عشر صفحات مدوّنة بها التدابير التي يجب عليه اتخاذها في مواجهة الشيطان وجيش الشر التابع له، ولهذا يعتبر آدم أول الأنبياء.

اقترب مطر والخادم من المشهد حتى أصبحتْ أعينهم ترى كل شيء بشكل أوضح، وتابع الخادم كلامه:

- المحاصيل بعد حصادِها يحملُها "قابيلُ" على ظهره، فقابيلُ هذا هو أكبر أبناء آدم، وهو كذلك يشتغل بالزراعة كوالده.. انظر إلى الأمام فهذا "هابيل" عائدٌ من رعاية الماشية؛ إذ يعمل هذا الابن الذي ينحدر من الولادة الثانية لأمه حواء في تربية الماشية، والأسرة مشغولة جدًّا استعدادًا لحفل زفاف قد اقترب؛ إذ سيتزوج التوأم الأول من التوأمِ الثاني الذي يليه في ترتيب الولادة، أي إن "قابيل" سيتزوج أخت "هابيل" التوأم "لِيُودَا"، فيما سيتزوج "هابيل" أخت "قابيل" التوأم "إِقْلِيمِيَاء".

أعرب مطر عن تشاؤمه قائلًا:

– لكنني أعتقد أن ثمة مشكلة هنا، يبدو أننا سنشهد حربًا وليس حفل زفاف.. انظر إلى وجه "قابيل" وكيف قطّب حاجبيه عندما رأى هابيل قادمًا، ألا تراه يضغط على أسنانه من الغيظ؟ لو لم تخبرني بأنهما أخوان لكنت اعتقدت أنهما عدوان!

– ليس من الخطإ أنْ نصفهما بالعدوين، ولا يمكن أن نقول إن قابيل مسرور بقرار والده؛ إذ إنه مُصرٌّ على الزواج بشقيقته التوأم.. وبالرغم من أن والديه نصحاه إلا أنه يفضل أن يصغي إلى كلام شخص آخر.

شعر مطر بالشغف لمعرفة ذلك الشخص، فسأل الخادمَ:

– ومن يكون ذلك الشخص؟

فأجابه الخادم:

– انظر حولك ودقق جيّدًا ولنرَ هل ستشاهد وجهًا مألوفًا إليك؟

نظر مطر إلى وجوه الجميع بإمعان، ثم رأى عزازيل وقد حشر نفسه وسط هذا الحشد كالذئب الذي يختلط بالخراف.. عندما رأى عزازيلُ هابيل يأتي، اقترب من قابيل وقال له:

– انظر إليه كيف يسير متكبرًا! سينتزع إِقْلِيمِيَاء التي تحبها من بين يديك، ولهذا فهو يشعر بالكبر والفخر.

قابيل:

– ليفرح مؤقتًا، فهو مخطئ لو اعتقد أني سأسمح له بتنفيذ هذا، فلن يستطيع انتزاع إِقْلِيمِيَاء مني.

تابع عزازيل كلامه:

- إذًا، يجب أن نفعل شيئًا في أسرع وقت، وإلا قُضي الأمر وفقدْت حقك. تعلم أن والدك يحبه أكثر منك، وربما يكون قد اختلق طريقة الزواج هذه لعلمه بأن هابيل يحب أختك، وربما يكون يريد فقط أن يغضبك.

قابيل:

- أنت محق، فهم غافلون عن وجهه الشيطاني المخفي وراء وجهه البريء هذا.. حبهم له أعمى بصيرتهم، فلا يستطيعون رؤية كيف أنه إنسان مُرَاءٍ.. لن يستطيع أحد التغلب عليه سواي.

ثم سار قابيل نحو هابيل، ووقف عزازيل مكانه في الخلف وكان يشاهدهما بمتعة كبيرة، وكانت ضحكاته تُجلجل في المكان حتى أجبرت مطر على أن يغلق أذنيه، كان كحيوان عجيب يصدر صيحات تنمُّ عن إحساسٍ مشكَّلٍ من كلٍّ من الألم والشهوة.

عندما أصبح قابيل وهابيل وجهًا لوجه رآهما والدهما آدم عليه السلام من باب خيمته، فقال:

- قابيل! هابيل! تعالا إلى هنا.

اقترب مطر من باب الخيمة وألقى سمعه لما يقال:

- اسمعا! ثمة طريقة إلهيّة لحل الخلاف بينكما، سَيُقدم كل واحد منكما قربانًا لله، وستنزل نار من السماء لتحرق القربان المقبول وتعلن عن أن صاحبه هو الذي سيتزوج إِقْلِيمِيَاء.

قال هابيل محترِمًا كلام والده ومستسلمًا لأمره:

- كيفما تشاء يا أبتاه..

كما وافق قابيل هو الآخر على هذه الفكرة بقوله:

- إذًا، ليكن ما قلتَ.

خرج الاثنان من الخيمة، فاتبع مطر هابيل، فيما انطلق عزازيل وراء قابيل.. وعندما وصل هابيل إلى المنطقة التي ترعى بها الماشية، دنا أحد الملائكة منه وقال له: "قدِّم أفضل ما لديك من الماشية كقربان لله".

كان واضحًا من الابتسامة التي علت وجه هابيل أنه أعجب بهذا الإلهام الملائكي.. وقد رأى مطر -بهذه المناسبة- للمرة الأولى ملكًا من "وحدة المراسلين" وهو يؤدي مهمته بتقديم الإلهام لهابيل.

ومن ناحية أخرى كان عزازيل يوسوس لـ"قابيل" بقوله:

- تعلم أن إِقْلِيمِيَاء من حقك في الأصل، ولهذا لا تقدِّم جزءًا كبيرًا من محصولك قربانًا، فما ستقدمه سيحرَق أساسًا.. يكفيك أن تقدم حزمة من الحنطة، ولا شك أنك ستفوز بـ"إِقْلِيمِيَاء"، فلا تخسر قدرًا كبيرًا من الحنطة عبثًا!

فرد قابيل:

- صحيح، يكفي أن أقدم هذا القدر من الحنطة! فالله صاحب الجنة التي حكى لنا والدي عنها ليس محتاجًا لحنطتي!

obeikandl.com

اقترب الخادم من مطر الذي أخذ يروي له كيف أن أحد الملائكة ألهم هابيل قبل قليل بما يجب عليه فعله، فردَّ الخادم:

- لا يتمنى الملائكة سوى الخير للبشر، فبحسب المعلومات التي حصل عليها ذلك المَلَك فإن هذا الفعل كان هو الأفضل لهابيل.. وهذا الأمر سارٍ كذلك بالنسبة لجميع البشر.. "فالصوت الذي يسمعونه من داخلهم" يخبرهم دائمًا بالأفضل لهم.. ولا يرى البشر هؤلاء الملائكة، كما لم يرَ هابيل ذلك الملك قبل قليل، لكن يسمعون صوتهم لا محالة، ذلك أن ضميرهم الداخلي يترجم ما يسمعونه.. سأريك لاحقًا كيف تعمل هذه الآلية بالتفصيل، لكن اقترب الآن وأغلق عينيك! لنرَ أيَّ القربانين سيتقبله الله.

وقف الاثنان في أحد الجوانب وبدآ يتابعان ما يحدث بحماس كبير.. أحضر قابيل حزمة من الحنطة ووضعها ورجع إلى الخلف، أما هابيل فوضع أجمل خرافه وعاد إلى مكانه بأدب.. كان آدم عليه السلام حاضرًا كشاهد عليهما، كما كان عزازيل ينتظر بجانب قابيل وهو متحمس لما سيحدث.. نزلت النار المنتظرة على قربان هابيل، فشعر عزازيل براحة كبيرة وتنفّس الصعداء فرحًا، فقد سُرَّ كثيرًا عندما لم يقبَل قربان تلميذه الذي وسوس له، لتسير الأمور كما خطط لها.. غادر قابيل المكان وهو غاضب، فتبعه عزازيل فورًا وقال له:

- كان واضحًا أن هذا سيحدث، فهم يفعلون كل شيء لينتزعوا منك حقك.. لستَ مجبرًا على أن ترضى بما حدث.. فكِّرْ قليلًا، من سبب هذه المشاكل؟

- أَوَ هناك غير هابيل؟!

- أنت محق، إذًا، لو تخلصت من مصدر المشكلة زالت بلا رجعة.. ليس أمامك مخرج آخر إن كنت تريد إِقْلِيمِيَاء!

- معك حق، لم يبقَ أمامي سوى طريق واحد لمنع هذا الزواج، ألا وهو التخلص من هابيل، وحينها تصبح إِقْلِيمِيَاء ملكًا لي!

لم يمر وقت طويل على هذا الحديث الذي دار بين عزازيل وقابيل حتى أراق الأخير دماء أخيه البريء، الذي لم يكن له أي ذنب في شيءٍ، وسط ضحكات عزازيل المتعالية.. لقد انزعج مطر من هذا المشهد حتى إنه أمسك بالخادم ولم تخفِ عيناه نظراته التي أفادت بأنه يرغب بالرحيل، فلم يكن باستطاعته العودة والنظر مرة أخرى إلى دماء هذا البريء.. لكنه لم يكن يعرف أنه سيرى الكثير من دماء الأبرياء طيلة هذه الرحلة.

عندما رأى الخادم النظرات اليائسة في عيني مطر الذي شاهد للمرة الثانية على التوالي انتصار عزازيل، لم يتحمل وخاطبه قائلًا:

- لقد حان الوقت لأريحك قليلًا.. لن يربح عزازيل كل المعارك في هذه الحرب! فثمة الكثير من بني آدم يعرفون كيف يتغلبون عليه.. هل تريد أن ترى بعضًا منهم؟

- بكل تأكيد نعم أريد بشـدة أن أرى بعضًا منهم! وإلا فإنني سأفقد رغبتي بالكامل في القتال ضد جيش الشر.

- إذًا، علينا ألا نفقد المزيد من الوقت، أغلق عينيك فورًا.

obeikandl.com

obeikandl.com

الشياطين كذلك تبكي

عندما فتح مطر عينيه شعر كأنه يعرف الأشياء المحيطة به؛ إذ كان المكان يكاد يشبه المكان الذي عاش به آدم عليه السلام وأسرته.. في تلك اللحظة بدأ الخادم يتحدث وكأنه يعرف ما يدور بخلد مطر:

- نعم، هذا هو المكان الذي عاش به آدم عليه السلام وذريته.. انظر بعناية إلى هذه الجهة، ففي هذا الفراغ الموجود في المنتصف تمامًا سيضع إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام أساس الكعبة المقدسة التي سيبنيانها بأمر الله.. ولو انتظرنا هنا يمكن أن نرى إبراهيم عليه السلام الذي سيبنيها، فهو يسير من مسافة حوالي ألف كيلومتر ليضحِّي بابنه الوحيد، وهو على وشك الوصول.

وجه مطر له سؤالًا مباشرًا:

- لم أفهم! ماذا يعني أنه سيضحي بابنه؟ وهل لابنه إسماعيل ذنب في هذا؟

- لا، بالعكس فتاريخ الإنسانية لم يشهد مثله ابنًا طائعًا لوالده بارًّا به يحترمه ويحبه لدرجة أنه مستعد للتضحية بنفسه من أجله، غير أن إبراهيم عليه السلام الذي لم يصغ لوساوس الشيطان حينما امتحن بإلقائه في النار؛ رأى في منامه هذه المرة الرؤيا الصادقةَ نفسها لثلاث ليال قبل أن يخرج في طريقه متَّجهًا

إلـى هنـا، وتأكـد أن الله يأمره بأن يذبح ابنه فـداءً لله.. ويعتبر هذا مـن أعظـم الاختبارات التي مر بها بعد إلقائه فـي النار، فلنر ماذا سيفعل هذه المرة؟

بعدها عرض الخادم عرضًا عجيبًا للغاية على مطر؛ إذ قال:

- هل تريد أن ترى ماذا يحدث الآن في مقر قيادة جيش الشر؟

رد عليه مطر وهو متوتر للغاية:

- ألا يكون هذا الأمر خطرًا؟ ماذا لو رأونا بعدما ندخل وسط هذا الكم من الشياطين؟

- لا تقلق، يكفيك ألا تنسى ما قلته لك سابقًا.

كان مطـر يعرف جيّدًا ماذا يجـب عليه فعله في هذه الحالة.. اقترب فورًا من الخادم وأغلق عينيه.. وعقب هذا الشعور العجيب الذي صار مألوفًا بالنسبة له فتح عينيه ليرى المكان من حوله مليئًا بالشـياطين، فهو لـم يرَ في حياته هذا القدر من الكائنات المقززة، كان مشـهدًا لا يمكن مشاهدته حتى في أكثر أفلام الرعب إثارةً.. كانت رائحة شديدة السوء تفوح من كل جانب، وكان مطر يخشى حتى أن يتنفس وإن لم يكن أحد من الشـياطين يراهما لدرجة أنه لم يدرك حتى إنه ترك الخادم ورجـع خطوة إلى الوراء.

دخـل أحد الشـياطين مقززي الشـكل والخلقـة، ووقف أمام عزازيل الذي كان يجلس على مكتب كبير الحجم، وسجد أمامه وألقى عليه التحية بقوله:

- عليك اللعنة يا سيدي!

سأله عزازيل:

- ما الخطب أيها الملعون؟

فبدأ ذلك الشيطان يتكلم وهو متحمّس:

- يا سيدي، تلقينا خبرًا قبل قليل من جواسيسنا في مصر، لقد خرج إبراهيم قاصدًا مكة ليُضَحِّي بابنه قربة لله، ثم...

رد عزازيل:

- لا تتلعثم أيها الأحمق وقل ما تريد قوله!

- لكني أخاف أن تغضب، فهو على وشك الوصول إلى مكة، وجنودنا قد تباطؤوا في التعامل مع الوضع، سامحنا يا سيدي!

- لقد عانيت منكم كثيرًا أيها الملاعين! فالطريق من مصر إلى هنا لا يستغرق أكثر من ثانية.. يجب عليك أن تلقي القبض على أولئك الحمقى وتسجنهم، وما إن ينتهي أمري مع إبراهيم فسألقنهم درسًا لن ينسوه أبدًا!

- أنرسل القوات الخاصة فورًا يا سيدي؟

- دعك من هذا الهراء أيها الملعون! فما الشيء الصحيح الذي فعلتموه حتى اليوم لتستطيعوا التغلُّب على إبراهيم؟ أنتم لا تعرفونه، فلم أستطع الانتصار عليه في أيِّ معركة دارت بيننا سابقًا، ولا أستطيع أن أفهم كيف كرَّس حياته لله بهذا الشكل..

obeikandl.com

كنت أحمل آمالًا عريضة عندما كانوا سيلقونه في النار، وكنا قد تعاونَّا تعاونًا جيدًا مع النمرود ذلك اليوم.. لكننا لم نستطع أن نجعله يحيد عن الطريق حتى بينما كان ينتظره عذابٌ أليم إلى يوم القيامة.. لكن اليوم سنحت أمامي فرصة مواتية، فبعدما حُرم الولد لسنوات فرِح فرحًا شديدًا عندما رُزق بولد كإسماعيل، ولقد فرحَ بابنِه فرحًا شديدًا حتى إنّني أدركتُ أن الله سيختبره به يومًا ما.. وها هي الفرصة التي انتظرتها لسنوات قد أتت.. لنرَ كيف ستُفْلت منّي هذه المرة يا إبراهيم.. أَعِدُّوا لي ملابس الرجل المكّيّ فورًا!

- سمعًا وطاعة يا سيدي الملعون!

- انتظروا لحظة! هل تشمون أنتم أيضًا هذه الرائحة؟ يبدو أن أحدًا موجودٌ هنا.

لقد حدث ما كان يخشاه مطر.. نهض عزازيل من على مكتبه، وأخذ ينظر حوله ويتجول في الغرفة وهو يتشمَّمُ الروائح من حوله.. كتم مطر نَفَسه، ولما بدأ عزازيل يقترب منه أخذ يتراجع إلى الوراء شيئًا فشيئًا.. أمر عزازيل رجاله بغلق الأبواب على الفور، ما أصاب مطر بالحيرة وصار لا يعرف ماذا سيفعل.

لاحظ مطر أنه ابتعد عن الخادم، ولهذا أراد أن يسير نحوه، غير أن عزازيل كان يقترب منه.. لقد نسي كلَّ شيء في اللحظة التي شعر فيها على وجهه المتعرق بنَفَس عزازيل الذي تفوح منه رائحة حرِّ جهنم.. ففعلَ أوَّلَ شيءٍ يخطرُ على بالِ الإنسان

العـادي، أي أغلـقَ عينيـه.. كان هذا التصرُّف هـو التصرُّف الذي حذّره الخادم منه بشـدة ألا يفعله، لكنه للأسـف فَعَلَه.. لقد أغلق عينيـه، لكـن شـيئًا جديـدًا وغريبًا يحـدث؛ إذ كان لا يـزال يرى هـذا الوجـه القبيحَ الذي لم يردْ رؤيته.. أما الشـيءُ الأكثر سـوءًا في الأمر هو أن عزازيل أصبحَ يراه هو الآخر.

ما إن رأى عزازيل عديم الرحمة مطر حتى غرسَ مخالبَهُ في عنقـه، فبدأ مطـرُ يعاني من ضيق التنفس، كما كان يشـعر بحرارةٍ مفرِطةٍ في جسـده كله.. اقتربَ عزازيل جدًّا من أذنه وهمسَ فيها كما ينفثُ الثعبان:

- من أنت؟

- أنا الخادم.

- هاهاهاها. إذًا، اخدمني!

- لا، لن أخدمك أبدًا!

كانت ضحكات عزازيل الشـريرة غير محتملة لدرجة أن مطر كان يخشـى من أن يفقد صوابه، ومن ناحية ثانية كان ينظر حوله أملًا في أن يرى الخادم، لكن عزازيل واصل كلامه المسموم:

- لا تبحـث عبثًـا، فصديقك غادر المكان منـذ وقت طويل، أصبحـت وحـدَك.. لـو قبلت ما قلتُه سـأضمن لك حيـاة مريحة للغاية، بيوت، سـيارات، نسـاء، شـهرة، منصب، سـألبّي لك كل طلباتك، فكل شيء عندي.

obeikandl.com

كان كل شيء يسرده عزازيل يمر واحدًا تلو الآخر من أمام عيني مطر، المنزل الفسيح الذي يحلم به، السيارة التي يريد شراءها منذ وقت طويل، النساء يحيطون به من كل جانب، إدارة الشركة التي يعمل بها، جده الذي يحبه.. نعم، تذكَّر فوق كل هذا جده، كان بإمكانه أن يفضّله على كل هذه المغريات.. كان حائرًا، فربما كانت هذه هي صورة الخادم الذي اعتاد أن يراه في صورة جده.. وبينما بدأ يتذكر الخادم أخذ يستعيد وعيه تدريجيًّا؛ إذ تذكَّر ما عليه أن يفعله إذا تعرض لهجوم الأعداء:

"أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، قل أعوذ برب الناس، ملك الناس...".

وما كاد يكمل قراءة السورة حتى سمع صوت جيش يقترب منه وقد علا صوت التكبير "الله أكبر، الله أكبر!"، كان كل شيء في المكان يهتز وكأن زلزالًا قد حدث، وكان جميع الشياطين يهربون يمنة ويسرة.. اقتربَ أحد الشياطين من عزازيل وقال مرتجفًا:

- "وحدةُ المحاربين" آتية يا سيدي!

لما سمع عزازيل هذا الخبر ترك مطر، وغادر المكان فورًا وهو يقول لشياطينه:

- عليّ أن ألحق بإبراهيم! دبِّروا أمركم بأنفسكم أيها الملاعين!

onelkanal.com

شعر الشيطان بالحيرة بالدرجة نفسها التي شعر بها مطر، لكنه لم يستطع أن يلتقط نفسًا آخر حتى مات بضربة من السيف الأزرق الذي كان يحمله الخادم.

نظر الخادم بعطف شديد إلى مطر، ولم يستطع أن يقول سوى عبارة:

- لقد قرأتها في الوقت المناسب..

ثم أمسك يده وقال له:

- علينا المغادرة كي لا نتأخر..

كان مطر يعلم جيدًا ما يجب عليه فعله في تلك اللحظة.

عندما فتح مطر عينيه كان عزازيل يرتدي ملابس رجل عجوز وينتظر على مشارف مكة ليستقبل إبراهيم عليه السلام.

قال عزازيل مخاطبًا إبراهيم عليه السلام:

- إلى أين أنت ذاهب يا إبراهيم؟

- عندي أمر يجب أن أنجزه في ذلك الوادي..

- قلْ يا إبراهيم! لو جاء الشيطان لإنسان في منامه وأمره بأن يذبح ابنه هل يفعل الإنسان هذا؟

حينها عرف إبراهيم عليه السلام أن هذا الشخص هو إبليس، فقال له:

- اغرب عن وجهي أيها الملعون! ليس لدي أدنى شك في أن ما رأيته في منامي هو أمر ربي.. ابتَعِدْ عن طريقي!

obeikandl.com

قالها إبراهيم وواصل السير في طريقه.

كان منظر عزازيل في تلك اللحظة جديرًا بالمشاهدة، فمن كان أمامه هذه المرة ليس شخصًا عاديًّا عديم الخبرة، بل كان أمامه خليل الرحمن الذي لقَّبه الله بـ"خليلي"، وهو الذي تغلَّب عليه في كل مرة واجهه فيها.

قال عزازيل في نفسه: "لا طائل من وراء إطالة الكلام معه، فإبراهيم ليس لقمة سائغة، ما يلزمني هو شخص عديم الخبرة معي، لكن من يا ترى؟ وجدتها! سأذهب إلى هاجر!" وقفزَ من الفرحة قاصدًا هاجر أم إسماعيل.

وقف الخادم ومطر خلف عزازيل الذي كان يقف في ركن من أركان المكان يُطارد ويتابع فريسته.. في تلك الأثناء خاطب إبراهيم ابنه إسماعيل الذي كان على وشك الوصول إلى سن البلوغ قائلًا:

- ابحث عن حبل وسكين يا بني واتْبعني.

كان إسماعيل فتى لطيفًا لدرجة أن مطر بدأ يفكر كيف لإبراهيم عليه السلام أن يضحي بأجمل طفل رآه في حياته.

انطلق الخادم ومطر على الفور مع عزازيل -أكبر عدوٍّ للبشرية- الذي اقترب بدوره من السيدة هاجر، وطرح عليها سؤالًا:

- يا هاجر، إلى أين ذهب زوجك إبراهيم؟

- على حد علمي ذهب مع إسماعيل لجمع الحطب.

- إنني أشفق عليكِ يا هاجر، هل تعلمين أن إبراهيم غادر كي يقدم ابنك إسماعيل كقربان ويذبحه؟ إن شئت صدقيني وإن شئت لا تصدقيني، لكنه سيذبحه بعد قليل.

- ماذا تقول أيها الرجل؟! زوجي إبراهيم طيب القلب ورحيم، وهو يحب إسماعيل كثيرًا، ولا يمكن أن يفعل شيئًا كهذا.. وهل لأب أن يقتل ابنه الوحيد؟!

- وا أسفاه عليكِ يا هاجر! ألم يتركِ مع ابنك عندما ولد في وسط الصحراء لتكونا فريسة للحيوانات المفترسة والطيور الجارحة؟

- لقد تصرف حينها بأمر من الله، فلو لم يأمره الله لما كان ليفعل شيئًا كهذا أبدًا.

وصل عزازيل بالحديث مع هاجر إلى ما يريد؛ إذ قال:

- وهذه المرة كذلك سيذبح ابنك بأمر من الله!

فلما سمعت هاجر هذا الكلام برهنت مرة ثانية على عمق إيمانها الذي أظهرته للمرة الأولى عندما قالت لما تركها زوجها مع ابنها قبل سنوات في الصحراء: "لن يضيّعنا الله أبدًا!"، وقالت مخاطبة عزازيل:

- لو أمره الله بهذا يجب عليه أن ينفذ الأمر، فما علينا إلا أن نستسلم لأوامر الله.

فشل عزازيل في تحقيق أيّ نجاح في هجومه الأول، ولهذا سرعان ما غيّر خطته وأراد أن يتغلب عليها مستغلًا مشاعر الأمومة لديها؛ إذ قال:

- حسنًا يا هاجر، ألا ترحمين ولدك؟ كيف لكِ أن تكوني أمًّا بهذا القلب؟ كيف لك أن تسلمي ابنك للسكين دون رحمة؟ كيف لقلبك أن يرضى بذلك؟!

- اسمع أيها الغريب! الله هو من وهبنا إسماعيل، ولو أراد استرجاعه فما يقع على عاتقنا هو أن نقدمه قربانًا له، ولو أراد فلن نتردد في أن نضحي بأنفسنا بعد أن نضحي بابننا.

شعر عزازيل بأن هاجر ضيّقت عليه الخناق، ولم يعد أمامه سوى طريق واحد، وكان مجبرًا على أن يتغاضى عن خطر المغامرة، ولو كان على حساب تكذيب نفسه؛ إذ قال:

- هل أنتِ مدركة ماذا تقولين؟ إن إبراهيم انخدع بشيطان، جاء له في منامه، ولهذا سيذبح إسماعيل.. هيا الحقي به قبل أن يذبحه! هل يمكن لأب أن يضحي بابنه في سبيل رؤيا رآها في منامه؟

بدأ عزازيل يهذي بالكلام بشكل ملحوظ حتى ظهرت كذبته بعدما تعارضت الجمل التي استخدمها بعضَها مع البعضِ الآخر.. نظرت السيدة هاجر إلى الرجل بعناية، وقالت له:

- يبدو أنك شيطان! اغربْ عن وجهي! اللهم قِنا شرور الشيطان!

وبهذه الطريقة تخلَّصت منه.

لم يستطع مطر إخفاء إعجابه بما رآه، فقال:

- لو كنت مكانها لكنت قد انخدعت بكلام عزازيل سريعًا.. ما هذا الإيمان والتسليم؟!

أخذ عزازيل يجر أذيال الخيبة وهو يبتعد عن المكان ويقول في نفسه: "لقد أذاقتني هذه الأسرة أشدَّ العذاب، ولقد غلبتني هاجر في كل مرة كزوجها إبراهيم.. بيد أنني استطعت خداع حواء بسهولة، ولم يكن هناك أيُّ داعٍ لأبذل هذا القدر من الجهد لأخدعها لكي تقنع آدم بالأكل من الشجرة.. لكنني جئت إلى هنا والآمال تراودني أن أفعل الأمر نفسه مع هاجر؛ إذ كان من المفترض أن تقفز من مكانها ما إن تسمع عباراتي وتتوسل لإبراهيم كي لا يذبح ابنها، وتنعته بـ"قاتل ابنه"، وربما كانت ستُغضِبُهُ أو تتوسل إليه لتثنيه عن قراره.. انظر إلى ما يحدث! فلو لم تكن بداخلي نار الكراهية المشتعلة هذه لكنت قد تركت هذا الأمر منذ زمن طويل.. لكن لحظة واحدة، هناك مخرج لهذا المأزق: إنه إسماعيل.. فإسماعيل لا يزال فتى يافعًا، لم أقابله قبل ذلك، سأرى إلى أي مدى سيتحمل!"، قالها عزازيل وهو يسرع خطواته.

أدرك مطر والخادم أن عزازيل وضع خطة جديدة لتنفيذ هدفه، فتبعاه بخطى سريعة كي يلحقا به.

كان إسماعيل يسير في عقب والده، لكنه شعر بظلِّ شخص بجانبه، فاستدار فجأة ليلاحظ أن هناك شخصًا يتتبعه، أراد عزازيل ألا يفقد المزيد من الوقت، ففتح الموضوع مباشرة:

- يا لك من فتى لطيف! هل يصطحبك والدك إلى التنزه؟

- لا، أعتقد أننا سنجمع الحطب.

هزّ عزازيل رأسه يمنة ويسرة وكأنه يقول لإسماعيل "لا أعتقد ذلك"، وتابع قائلًا:

- اسمع أيها الفتى اللطيف، أقسم برب والدك أنه يصطحبك إلى المكان الذي سيذبحك فيه بعد قليل.

- ولماذا يذبحني أبي؟

- لأن ربه أمره بذلك.

بعد أن قال عزازيل هذه الكلمة التي سيندم على قوله إياها كثيرًا بعد قليل، سمع ردًا من إسماعيل، ذلك الفتى الصغير، قهره بشدة:

- إذًا ينبغي له تنفيذ أمر ربه، ذلك أن أوامر الله تاجٌ على رؤوسنا.

وبالرغم من هذا الرد، لم يرغب عزازيل في التراجع، بل حاول إقناع إسماعيل بالأكاذيب المتتالية، حتى أصاب مطر بالدهشة، فقال للخادم:

obeikandl.com

- ألا يستسلم إبليس أبدًا؟

فرد عليه:

- لا يعرف الاستسلام أبدًا، فهو لا يفقد أمله في خداع أي إنسان حتى يخرج منه النفس الأخير.. لا أثني على هذا الجهد الذي يبذله، لكن أعتقد أنه يجب أن تكون عزيمة جميع الخادمين بهذا القدر على أقل تقدير.

بدأ إسماعيل يشعر بالضجر بسبب مضايقات هذا الرجل، فاضطر ليشتكي لوالده الذي قال له:

- ارجمه يا بني!

فأخذ إسماعيل يرجمه وهو مستمتعٌ بذلك.

ابتعد عزازيل حتى ينجو بنفسه من رجْم إسماعيل، لكنه عاد بعدها بقليل، وحاول أن يوصِل صوته لإسماعيل، لكنه رجمه ثانية ليبتعد، ثم حاول في المرة الثالثة فرجمه إسماعيل كذلك، وحينها ولّى مدبرًا ووقف في أحدِ الجوانب، وبدأ يشاهد ماذا سيحدث بشغف كبير.. نعم، كان متحمِّسًا لمعرفة ماذا سيحدث، ذلك أنه ربما تحدث أشياء غير مواتية فيتدخَّل ليحاول تنفيذ مخططه.

وبينما رأى مطر عزازيل وهو يفرك عنقه الذي كان لا يزال يؤلمه؛ إذ خطرَ ببالِه شبهًا بينه وبين الضّبْع بجامع أن كلًّا منهما يُشبه الآخر في أفعاله.. قال له الخادم:

- هيا لنعُدْ!

تحير مطر وسأله:

- لماذا؟ ألن نرى ماذا سيحدث؟

قابله الخادم بكلمات مشفقة ورحيمة:

- لأنك لن تتحمل ما ستراه بعد قليل يا مطر.

- لا أصدق، هل ستراق دماء بريئة بعد قليل؟

- نعم!

- وكيف سيحدث ذلك؟ أليس إسماعيل عليه السلام أحد أنبياء الله؟ كيف يسمح الله بحدوث شيء كهذا؟

- آه يا مطر! يا لك من شخص طيب القلب، ولهذا ليس لدي أدنى شك من أنك ستكون في المستقبل خادمًا كجدك. نعم، صحيح ستراق دماء، لكنها لن تكون دماء إسماعيل، بل دماء كبشٍ سينزل به الملك جبريل عليه السلام من السماء. لكنك لن تستطيع أن تتحمل رؤية جبريل، وهذا ما أردت قوله، فلا تستطيع أن تراه إلا عندما يكون في صورة بشر.. لكن دعني أروي لك باختصار ماذا سيحدث..

وحينها شعر مطر بالارتياح كثيرًا.

عندما سأل إبراهيم ابنه إسماعيل آخر سؤال بشأن ما إذا كان لديه طلب أخير أم لا، سرد إسماعيل مطالبه كالتالي:

obeikandl.com

- يـا أبتِ، أريدك أن تربط يديَّ ورجليَّ جيِّدًا حتى لا أتحرك كثيرًا وأؤذيك.. اجمع ملابسك جيدًا حتى لا تتلطخ بالدماء، ثم تراها أمي فتحزن.. اذبحني بالسكين بكل ما أوتيت من قوة حتى أموت بسـهولة.. اطرحني على وجهي حتى لا ترى وجهي فيحن قلبك ولا تنفذ أمر الله، وحتى لا أرى السكين فأخاف، كما أريدك أن توصل سلامي لأمي!!

بدأ إبراهيم بذبح إسماعيل بوضع السكين على رقبته بكل ما أوتي من قوة، لكن شيئًا لم يحدث.. حاول مرة ثانية، فلم تذبحه السـكين.. جرَّبَ مرة ثالثة بكل ما أوتي من عزم، وعندما رأى أن السكين لا تقطع لم يعد لديه شك من أن هذا الشيءَ أمرٌ إلهيٌّ.. في تلك الأثناء نزل جبريل وهو يحمل كبشًا ويقول "الله أكبر، الله أكبر!". ولما رآه إسـماعيل عليه السلام اسـتقبله قائلًا من فرحته: "لا إله إلا الله والله أكبر!".. كما أراد إبراهيم أن يشكر ربه على ما حدث فانضم إليهما بقوله: "الله أكبر ولله الحمد!".

لم يستطع مطر أن يحبس مشاعره، فبدأت الدموع تنهمر من عينيه، وحينها نظر إليه الخادم وقال:

- نعم، لقد نجح إبراهيم وهاجر وابنهما إسماعيل عليهم السلام في هذا الاختبار الصعب، واسـتطاعوا أن يُلحقوا هزيمة نكراء بعزازيل.. إنني واثق من أن كل ما رأيته اليوم أسـعدك كثيرًا، إذا اسـتثنينا ما حدث في مقر قيادة جيش الشر.

- بكل تأكيد! ولأعترف لك أنني شعرت هناك بالخوف الشديد، ولكن كيف لاحظ الشياطين وجودنا هناك؟

- لم يلاحظوا وجودي، بل لاحظوا وجودك.. لكن كما حذرتك قبل ذلك لو لم تكن قد أغلقت عينيك لما كان لهم أن يلاحظوا وجودك.

- لماذا اكتشفوا وجودي أنا فقط؟ ماذا فعلت؟

- اسمع يا مطر، لقد قلت لك إن لهذه اللعبة قواعد، ألا تتذكر؟

- نعم!

- فبمقتضى هذه القواعد لن يستطيعوا إيذاءك إلا في حالة واحدة، ألا وهي أن تسمح لهم بذلك.. فكل الرغبات التي في قلبك هي من مداخل الشياطين.. فحين اشتمّ عزازيل رائحة هذه الرغبات شعر بوجودك.. ولو لاحظت أنه اكتشف وجودك بعدما أخذ يشم المكان.. وإلّا فمن أين تظن أنه عرف الأشياء التي وعدك بها؟ لقد عدّد أمامك جميع الرغبات التي اشتم رائحتها فيك.. وفي الواقع كان عزازيل يقوم بمهمته على أكمل وجه باستثناء خطإٍ واحد، ألا وهو جدُّك. نعم، عندما سرد أمام عينيك رغبتك في أن تكون مثل جدك لم يفكر أبدًا في أنك يمكن أن تحمل في قلبك رغبة كهذه، ذلك أنه كلما فتّش في قلب واحد من بني آدم لم يجد فيه سوى الرغبات الدنيوية التي كان جزء منها في قلبك أنت أيضًا.. فلو لم يكن قد ارتكب هذا الخطأ لكانت مهمتنا قد صارت صعبة حقًّا.

- أي إن عزازيل يعلم كل ما يدور بخلدي، أليس كذلك؟

- لا يمكن أن نقول إن هذا صحيح مائة بالمائة، فهو يتحرك بمساعدة معلومات يحصل عليها من جاسوس داخل قلبك.

- ومن هذا الخائن؟

- إنه نفسك يا مطر، إنه نفسك! فهي مصدر كل تلك الرغبات الشيطانية.

- هل ستغضب مني إن قلتُ لك إن الأمر التبس عليَّ بعض الشيء؟

- لن أغضب بكل تأكيد.. ستذهب معي غدًا إلى مكان سترى فيه ما أردت قوله بكل تفاصيله، ولكن استعد جيدًا؛ إذ ستكون عملية خاصة، وستستغرق وقتًا طويلًا بعض الشيء.. ولهذا أريدك أن تأتي وقت صلاة الفجر.

- عملية؟!. مثل التي في الأفلام؟

- لا أعلم ما الذي يحدث من هراء في تلك الشاشة الصغيرة الذي يسمى بالتلفاز، لكن هذه العملية ستكون "عملية إنقاذ" بكل ما تحمل الكلمة من معنى، سننقذ أسيرًا.

- لقد بدأت أشعر بالحماس من الآن، ولهذا سأنتظر الغد بفارغ الصبر.

- حسنًا، أستودعك الله.. أعتقد أنك تعرف باب الخروج!

obeikandl.com

استجمع مطر -بينما كان في طريقه مساء إلى المنزل- في رأسه كل ما تعلمه حتى تلك اللحظة، وتبين له أن ثمة حربًا أعلنها عزازيل من طرف واحد على ذرية بني آدم التي ليس لديها أدنى ذنب.. ولهذا كان لزامًا على كل إنسان أن يقاتل بهدف الدفاع عن نفسه ضد عزازيل وجنوده.. غير أن القليل جدًّا من الناس كانوا ينظرون إلى هذا الأمر بهذه الطريقة أما الغالبية العظمى فغافلة عن أن الشيطان هو أكبر الأعداء الذين يواجهونهم وأنهم إن هُزموا في معركتهم معه فإنهم سيشاطرونه القدر نفسه لا محالة.

لقد أرسل الله الرسل وأنزل الكتب لإنذار هذه الغالبية الغافلة.. كما تناولت جميع الديانات السماوية أن الشيطان عدو مبين للبشر، وشرحت الطرق التي يهزمهم بها والتدابير التي يجب عليهم اتخاذها من أجل مواجهته والانتصار عليه والنجاة من ألاعيبه.. لكن إهمال هذه الوظيفة في زمان كالذي نعيش فيه، مع غياب الأنبياء، يصب في مصلحة إبليس، ولهذا كان يجب على أحدهم أن يفسد مخططاته الشريرة ويواجهَ ببسالة جيش الشر ويسعى للحصول على دعم كل البشر الذين هم على الحياد.. لكن من سينجز هذه المهمة بعد الأنبياء ﷺ؟

لقد صار مطر من أفضل من يعرفون إجابة هذا السؤال كما يعرف ذلك عزازيل وجيش الشر: ألا وهم الخادمون! نعم، فهؤلاء هم الأبطال الذين نذروا أنفسهم لله وعاهدوه على العمل في سبيله فكرّسوا كل ما يملكون من عقول وأموال وأرواح

ومناصب وأوقات من أجل محاربة قوى الشرِّ وأقسموا ألا يتراجعوا أبدًا طيلة هذا الصراع.

لقد رأى مطر بعينيه بعض المعارك التي جرَتْ بين الجانبين وانتهَتْ بالنصرِ تارةً والهزيمة أخرى، ما منحه بعض المعلومات المتعلقة بالتقنيات الهجومية التي ينتهجها عزازيل، كما تعرّف إلى أشخاص استثنائيين استطاعوا صد هجمات هذا الملعون.. لكنه كان يعتقد أن هذا ليس كافيًا كي يغلب هو ومن على شاكلته من الأشخاص العاديين الشيطانَ، وكان يعرف أن هناك أشياء كثيرة جدًّا لا يزال ينبغي له تعلمها، لا سيما فيما يتعلق بـ"النَفْس".

بحسب ما قاله الخادم لمطر فإنه لا يمكن الانتصار في هذه المعركة إلا بعد السيطرة على هذه "النفس" الخائنة التي تتجسّس بداخلِنا لِصالِحِ الشيطان.. ولهذا لا بدّ أن تكون "العمليّة" التي ذكرها الخادم لمطر متعلِّقة بهذه النفس.. فالإنسان بإمكانِهِ محاربة عدوٍّ في جيشٍ مواجه له، لكن من الصعب جدًّا أن يكافح جاسوسًا تسلَّلَ إلى صفوف جيشه.

شعر مطر للحظة أنه عديم الحيلة، وقال في نفسه: "وكأنَّ الشيطان عدوٌّ سهلٌ حتى تنضم النفس إلى صفوف جنده!".. لكنه لم يكن يعرف شيئًا، ألا وهو أنه لولا النفس التي بداخله لما كان هناك فرق بينه وبين الملائكة، وبالتالي لم يكن هناك حاجة لخلقه، فتلك النفس ليست سوى عبارة عن مسكين يتحدث

مع الشيطان اللغةَ نفسها ويشعر بالرغبة في ارتكابِ المحرمات التي وضعَها الله أمام الإنسان بغرضِ امتحانه.

عندما دخل مطر منزله شمّ رائحة الطعام الذي أعدته زوجته "رهنما"، فأدخل رأسه من باب المطبخ وألقى السلام عليها، ثم بدّل ملابسه وجلس على طاولة الطعام.. كان صامتًا وشاردًا بينما يتناول طعامه، ما أزعج زوجتَه التي قالت له:

– لقد ملَلْتُ كثيرًا، هلّا شاهدنا التلفازَ بعد تناولِ الطعام؟ تعرضُ إحدى القنوات فيلمًا رائعًا..

لكن مطر لم يعد يفكر بشكل إيجابي فيما يتعلق بالتلفاز الذي نعته الخادم بـ"الشاشة الصغيرة" المليئة بالهراء.. لكن عندما تذكر أنه أهملَ زوجته في الأيام القليلة الماضية لم يستطع أن يرفض طلبها الصغير هذا.

كان الفيلم من النوع الذي يحبه مطر؛ إذ كان يتناول قصة عميل مخابراتي سري استطاع أن يتسلل إلى داخل عصابة من المافيا وينقل المعلومات بشأن الجرائم التي سترتكبها إلى الجهاز الذي يعمل لصالحه في محاولة للقبض على رئيس العصابة.. لكن عندما تعقدت الأمور فطن أفراد العصابة إلى أن جاسوسًا يعمل بينهم، وكانت الطريقة التي اختارتها تلك العصابة للكشف عن هوية هذا الجاسوس كلاسكية جدًّا، لكنها كانت في الوقت نفسه مؤثرة.

إذ إن زعيم العصابة أصدر بعض الأوامر السيئة التي لا تروق لهذا الرجل المشكوك به، فأمره أن يدخلَ في مواجهة مسلَّحةٍ مع أصدقائه الشرطيين، ولهذا كانَ في وضعية لا يُحسد عليها.. حسنًا، ماذا فعل؟ أطلق النار على اثنين من أصدقائه! أطلق النار لكن بشكل لا يؤذيهما، لكن هذا ساهم في رفع الشبهات عنه، بل جعله الرجل المفضَّلَ بين أفراد العصابة.. وما حدث بعد ذلك معلوم!

غاص مطر بأفكاره في عالم آخر حتى وهو يتابع هذه المشاهد، وخطرت على باله فكرة مثيرة جدًّا.

لقد لاحظ أن عزازيل كان جاسوسًا بين الملائكة وأن جميع أكاذيبه ظهرت عندما أمره الله بالسجود لآدم عليه السلام.. بالرغم من أن الله كان يأمر عزازيل حتى ذلك اليوم بفعل أشياء ممتعة بالنسبة له، فقد أمره للمرة الأولى بفعل شيء لا يرغب به، وكانت النتيجة هي أن الجاسوس قد ظهر.. إذًا، يمكن للإنسان أن يكتشف هذا الجاسوس المختبئ بداخله بالطريقة نفسها!

عندما خطر على بال مطر هذه الأشياء شعر بالحماس الشديد لأنه اكتشف أن بإمكانه الكشف عن الجاسوس الذي بداخله عندما يواجه شيئًا لا يرغب بفعله.. وقد حاول إيجاد بعض الأمثلة سريعًا لتأكيد فكرته تلك:

خطرت على باله بعض الأمثلة البسيطة فورًا.. لقد حدث الأسبوع الماضي عندما وصل البيت في المساء وقبل تناول العشاء قالت له "رهنما":

– لقد نظفت البيت اليوم وتعبت كثيرًا، هل يمكنك أن تعلّق هذه الستارة في مكانها يا زوجي العزيز؟ يجب أن نعلّقها قبل أن تجفّ وإلا تجعّدت!.

لكن ما تلقاه عقله هو كأنها قالت له: "إنك لا تفعل شيئًا في العمل حتى المساء؛ إذ تجلس على مكتبك طوال النهار، علّق هذه الستائر على الأقل لتكون ذا منفعة!"؛ وحينها شعر بالغضب الشديد لدرجة أنه وجد نفسه يرد عليها وكأنها قالت تلك الكلمات التي لم تتلفظ بها أصلًا:

– وما الذي فعلتِه منذ الصباح؟ هل انتظرتني حتى أعلّق أنا الستائر؟ أليست نظافة البيت من ضمن مسؤولياتكِ؟!

فكر مطر قليلًا بشأن هذه الواقعة، ترى فما الذي غضب بشأنه؟ لم يكن ليغضب بشأن ما قالته زوجته، ذلك أنها طلبت منه تعليق الستائر بأسلوب مهذب ولطيف.. وما كان له أن يغضب بشأن ما طلبته منه، لأن ذلك العمل كان بسيطًا يمكنه القيام به بسهولة دون أدنى إرهاق.. وفي هذه الحالة كان هناك سبب وحيد لردِّ فعلِهِ هذا، ألا وهو أن شخصًا بداخله لم يكن يرغب في فعل هذا؛ إذ كان يريد الجلوس على طاولة الطعام فورًا لإشباع بطنه.. غير أن تعليق الستائر لم يكن من ضمنِ رغباته، وهو لا يرغب في إجباره على فعل شيء لا يريده! لقد عارضَ تنفيذَ هذا الطلب ولو كان على حساب الكشف عن هويّته، نعم لقد ظهر الجاسوس.

وتذكَّرَ ما حدثَ له في آخر سنة دراسية له في المرحلة الإعدادية، ولأن مدرِّس مادة السياحة لم يحضر أمضى الفصلُ وقتَ تلك الحصة دون مدرِّسٍ، ما حوَّلَهُ إلى ما يشبه أحد فصول "مدرسة المشاغبين".. عندما ارتفعت الضوضاء وبدأت تضجّ في الممر؛ فتح المدرس المناوبُ بابَ الفصلِ فجأةً وحذَّرَ جميعَ الطّلاب بلغةٍ شديدة اللهجة، أي إنه طلب من الجميع صراحةً أن يصمتوا، وأكيد كان هذا الطلب كذلك موجّهًا لمطر الذي لم يكن يرغب في أن يصمت أبدًا، وفي حين حظّر المدرس عليهم الكلام كان شخص داخل مطر يحثُّهُ على خرقِ هذا الحظْرِ.. حتى إن الكلام والصوت والضوضاء فقط لم تكفِهِ، بل كان يصعد فوق المقعد ويصيح بأعلى صوته.. وبالتأكيد فإن هذا الوضع استمرّ فقط حتى دخل المعلِّمُ المناوب الفصلَ فجأةً، فلم يكن ليقرعَ الباب قبل أن يدخل! بل دخل فجأة حتى يُحاول السيطرة على الوضع.. ولمّا رأى مطر ذلك ما كان عليه سوى أن يطرح نفسه على الأرض فورًا، لكن الوضع كان في تلك اللحظة على النحو التالي: كان يمسك بيده رابطة عنقه ويُلوِّحُ بها في الهواء ويده الأخرى على خصرِهِ يوازنُ بها رقصته، كما انفك زرّانِ من قميصه نتيجة القفز الزائد، وكان العرق يتصبَّبُ متدفِّقًا من كل عضوٍ في جسده.. وما إن دخل المدرِّسُ الفصل حتى صوَّبَ بصره نحوه وكأنه لا يرى أحدًا سواه من بين سائر زملائه الهائجين.. ولكم أن تتخيلوا ما حدث بعدها؛ إذ لم يكن لينسى تلك الصفعة التاريخية الوحيدة التي كانت أول صفعة يتلقاها من مدرس في حياته..

كان مطـر أمـام حالةِ حظر، لكن "شـخصًا" بداخله لا يريد منه أن يخضـع لهذا الحكم.. غير أنه تلقى صفعةً شـعر بألمها كل عضو في بدنه وليس هذا الشخص الذي بداخله فقط.

قـال في نفسـه: "يبدو أن حالـة التوازن بيـن الله والعبد تكون شـيئًا من هذا القَبيل! فالله يضـع مجموعة من القواعد، وأنا أتلقى العقـاب بسـبب خائن بداخلـي لا يرغب في اتباع هـذه القواعد، ولهذا عليّ أن أتخلَّص من هذا الجاسوس".

قال مطر بصوت مرتفـع بعض الشيء:

- لا بد أن الخادم سيعجب بهذه الفكرة!

فأجابته رهنما:

- هل تقول شيئًا يا عزيزي؟"

فردَّ:

- لا يا حبيبتي، كنتُ أحدث نفسي.

حينهـا لاحظ أن الفيلـم قد انتهى، لكن الفيلـم الحقيقي كان على وشك أن يبدأ.

oneikandi.com

عملية الإنقاذ

كان ذلك اليوم أحد أيام العطلة الأسبوعية إذ اقتربَ مطر من المقبرة لِيُصلّي الفجر بجامِعِها، لكنه لاحظ أنه لا يوجد أيُّ ضوءٍ داخلها.. والأنكى أن باب دخول المقبرة كان مغلقًا، غير أنه حاول التغلُّبَ على الخوف الذي كان بداخله بمزحةٍ قالها: "يبدو أن المقبرة والجامع يغلقان في هذه الساعة، وإلا فليس من الممكن أن يعملَ ملائكة الموت يوم العطلة الأسبوعية الرسمية أيضًا!".. كان هذا الأمر من الأمور التي لا يعجب بها مطر في شخصيته، لكنه كان كلّما شعر بالتوتر حاول أن يجدَ الجانبَ المضحِكَ في الأمر ليريحَ نفسَهُ بعضَ الشيء، ولقد عانى كثيرًا بسبب طبعه هذا!

وبينما همّ ليركن سيارته أمام باب المقبرة تذكَّرَ أن يومه سيطول مع الخادم ذلك اليوم، ولهذا رَكَنها على جانب الطريق.. توجَّه بعدها إلى أحد الجدران بعدما أدرك أنه لن يستطع القفز من فوق الأسياخ الحديدة العالية لباب المقبرة المغلق في هذه الساعة المبكرة.. وبينما كان يقفز من فوق الجدار بصعوبة قال في نفسه: "يبدو أن الخادم كان محقًّا فيما قال، فهذا الأمر يُشبِهُ عمليّة إنقاذ حقيقيّة"، ثم أضاف ضاحكًا: "عملية إنقاذ! وأي ميتٍ سنُنْقِذُ يا ترى؟!".

كان مطر يعتقد أنه لم يشعر بالخوف في حياته إلى هذه الدرجة إلـى أن تذكـر ما حدث في مقر قيادة جيش عزازيل.. الأسـوأُ في الأمـر أنـه بدأ يخافُ أكثر فأكثر، فماذا لو ظهر أمامه عزازيل فجأةً فـي هـذا الظلام في المقبـرة؟ ماذا لو خرج أحـدُ الموتى من قبره وأمسـكَهُ من قدمِهِ؟ ماذا لو ظهر فجأةً رجلٌ ذئبٌ من خلفِ تلك الشـجرة؟ وبينما كان عقلُهُ منشـغلًا في غمرة التفكير بهذه الأمور شَعَرَ بالندم على أفلام الرعب الذي كان يُشاهدها قائلًا في نفسه: "ليتي لم أشاهد هذه الأفلام السخيفة!".

وصـل أخيـرًا إلى الجامـع، لكـن بابَهُ كان مغلقًـا.. انتقل إلى باحـة الجامـع، وهي المـكان الوحيد الـذي يمكنه الصـلاة فيه، ثـم صلّـى أقصرَ صلاة فـي حياته بعدما فـرش معطفه بين أحجار المصلى قائلًا: "هذا أفضل من عدم الصلاة".

تقـدَّم نحو المقبرة بخطًى سـريعة، وبينما هو كذلك بدأَ ينتقد الخادم الذي دعاه في تلك السـاعة.. لم يكن قد وصل، لكنه بدأ مبكرًا يقرأ سورة الفاتحة.. أغلق عينيه وقال "آمين!" دون أن يُلقي بالًا حتى للألم الذي شـعر به بعدمـا ارتطمت رجلُه بجانب أحد القبور، ثم فتح عينيه.

كان يرغب في لوم الخادم ما إن يفتح عينيه، لكن ما شـاهده أنساه فورًا الدقائق المرعبة التي عاشها قبل قليل.

لم يستطـع إلا أن يقول:

- كما في الأحلام!

فصدّق الخادم على كلامه بقوله:

- أليس كذلك؟

وصل الحماس والشغف الذي شعر به مطر إلى مستوى عالٍ لدرجة حرمته من التركيز في هذا المشهد:

- أين نحن؟

- نحن في مدينة القلب، التي هي عاصمة دولة الجِسم، فهذه الدولةُ يدير كلَّ شؤونها ذلك القصرُ الذي تراه في المنتصف.

سيطر الانبهار على مطر ولم يستطع إلا أن يقول:

- جميل جدًّا!"

الخادم:

- لو فشلنا في إنجاح العملية التي تحدثتُ معك بشأنها فلن يبقى من هذا الجمال شيء.

مطر:

- كيف؟

الخادم:

- تعال! علينا أن نسرع، سأشرح لك الأمر في الطريق.

بدأ الاثنان بالنزول من فوق تلَّةٍ خضراء يانعة كانا يَقِفَان عليها، وكان كلُّ جانب من جوانب المكان مليئًا بأشجار الفاكهة اللذيذة، كما الأنهار تتدفَّقُ من خمسة جوانب مختلفة وتصبُّ

obeikandl.com

في البحيرة الواقعة مباشرة خلف القصر ليشكِّلَ كلُّ واحد منها شلَّالًا، كما تُشكِّل ذرات المياه المتعالية قوس ألوان الطيف في أبهى حلّة وأنصع مظهر.

تضمُّ الأسوار المحيطةُ بالقصر خمسة أبواب؛ إذ كان الناسُ يدخلون المدينة ويخرجون منها باستمرار عبر تلك الأبواب، وكانت لكلِّ باب طرق خاصة، وكان كل طريق من هذه الطرق مليئًا بقوافل المارة.. عجز مطر حتى عن إبصار طريقه بسبب النظر إلى هذه الأشياء الجميلة المحيطة به.. كان شيئًا محيِّرًا، لكنه لم يكن يوجِّه أيَّ أسئلةٍ إلى الخادم الذي كَسَرَ حاجزَ الصمت في النهاية وقال:

- خيرًا يا مطر؟ يبدو أنك لم تجد شيئًا تسأل عنه!

- لا أدري! كلُّ شيءٍ يبدو على ما يُرام.. يبدو أن سلطان هذه المملكة شخص عادل.

- ربما تستغرب الأمر، لكن أتدري أن ليس لهذه المملكة سلطان؟

- وكيف يسير النظام بها؟ من يدير شؤونها؟

- كبيرُ الوزراء! لا تنسَ ذلك أبدًا! من يدير البلاد ليس السلاطين بل رؤساء الوزراء، وأما من يدير الوزراء فهم السلاطين!

- حسنًا، أليس السلطان هو من يدير المملكة إذًا؟

- لكني قلتُ لك إن هذه المملكة ليس لها سلطان.

- إذًا فإن الوزير يقوم بعمله على أكمل وجه.

- لا تنخدع بالمظاهر! انظر حولك جيدًا.

في تلك الأثناء كان الاثنان اقتربا جدًّا من المدينة، واختلطا بأهلها لدرجة أنهما بدآ يسمعان أصواتهم.

قال الخادم:

- تعال لنتكلم قليلًا مع هؤلاء الأشخاص، فربما تفهم الأمر بشكل أوضح.

اقتربا من بضعة أشخاص يجلسون في أحد جوانب الطريق يعاقرون الخمر ويلعبون القمار، فبدأ الخادم كلامه بقوله:

- مرحبًا أيها الفتيان! أراكم مستمتعين بما تفعلون!

فأجابه أحدهم:

- شكرًا يا عمّ!

فسأله الخادم:

- ماذا تفعلون هنا؟

- نشرب الخمر ونستمتع بحياتنا، اجلسا معنا لنقضي وقتًا ممتعًا سويًّا.. لا تقلقا فما أكثر الخمر هنا ولن نسألكم عليها مالًا، والفضل يرجع إلى وزيرنا "السيد نَفْس".

سألهم مطر:

- بماذا تشتغلون؟ أقصد ما هي مهنتكم؟

obeikandl.com

فبدأ جميعهم يضحكون بصوتٍ عالٍ، وقال أحدهم بملءِ فيه:

- عمل؟! هاا!! أنت تتحدث عن الشغل، لا نهتمُّ بأشياء كهذه، فهناك الكثير من الأشياء المباحة في دولتنا كمعاقرة الخمر ولعب القمار والسرقة، فأموالُنا جميعًا مشتركةٌ فيما بيننا، وهذا بفضلِ وزيرِنا!

شعر مطر بالاضطراب، فقال له الخادم:

- هيّا لنذهب!

وبينما كان الاثنان يعبران من باب دخول المدينة اعترضَت طريقهما امرأتان، قالت إحداهما:

- خيرًا يا سادة؟ هل تحتاجان إلى شيء؟

وقالت الأخرى وهي تقهقه وتستهزئ بهما:

- عن أي سادة تتحدثين يا صديقتي؟ ناديهم يا عمّ! انظري إلى لحيةِ هذا الرجل، بيضاء كبياض الثلجِ ما شاء الله.

تابعا السير، وأدرك مطر أنه أخطأَ في حكمه على المدينة، كما غضب من نفسه وكذلك من الوزير الذي لم يتعرف إليه حتى تلك اللحظة، وقال وهو غاضب:

- لقد قلت إننا في مهمة إنقاذ، آمل أن يكون قصدك هو قتل الوزير وإنقاذ هذه الدولة.

obeikandl.com

الخادم ضاحكًا:

- لا، هذه المهمة ليست سهلة إلى هذه الدرجة، فالأمرُ معقَّدٌ بعض الشيء.. كما قلت لك فهذه المدينة يديرها الوزراء؛ إذ لم يعترف الشعب بسلاطينه.. ولقد استطاع الوزير الحالي "السيد نفْس" أن يزيد من نفوذه خلال فترة فراغ العرش من السلطان، وهو ما يعني أن القضاءَ عليه بهذه الوضعيّة سيقود المدينة بأكلمها إلى حالةٍ من الفوضى.. لقد رأيت أنت كذلك كيف دعم نفوذه، كما كسب حبَّ سكّان المدينة بعدما أباح كلَّ شيء يريدون.. لدرجة أنهم لم يعودوا يعترفون بأي حاكم آخر غيره.. لكن لا شك في أنه لو واصل حكم المدينة بهذه الطريقة فإنها ستسير نحو الفوضى.. ولهذا فإن مهمتنا هي إنقاذ الدولة من هذا المصير.. وبطبيعة الحال لقد فهمت أنت كذلك أننا لا يمكننا إنجاز هذه المهمة عن طريق قتل الوزير.

- إذًا ماذا سنفعل؟

- سنفعل ما يجب فعله في أي عملية إنقاذ عادية، سننقذ السلطان!

- وهل السلطان على قيد الحياة؟!

- نعم، تشير المعلومات الاستخباراتية التي حصلنا عليها إلى أنه محبوس كأسير في سجن بعيد عن القصر.. لو لم نسرع يمكن أن نفقده.. ينبغي لنا ألا نظهر طيلة هذه العملية، لا سيما داخل القصر، ولهذا أريد منك أن تقرأ هذه الآية من سورة يس:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

وإذا وجب عليك الظهور من جديد فعليك أن تقرأ هاتين الآيتين من سورة البلد:

﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ۞ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾، خذ هذه الورقة! لقد كتبت هذه الآيات ظنًّا مني أنك لا تعرفها.

- شكرًا جزيلًا، أنت مراعٍ لشعور الآخرين.. لكن بما أن مهمتنا خطيرة لماذا سيتوجب علينا أن نظهر؟

- قبل كل شيء يجب أن يرانا السلطان الذي هو "الروح".. وبعد ذلك فإنك لن تستطيع أن تختفيَ مرة أخرى.. لكن عليك أن تحدد الوقت المناسب تمامًا، ذلك أن كل مكان سيكون مليئًا بجواسيس الوزير نفْس.

- حسنًا، متى سنبدأ؟

- سنبدأ فورًا!

obeikandl.com

عرشٌ بلا سلطان

كان البـابُ الرئيـس عنـد مدخل القصـر فخمًـا للغاية، وكان مكتوبًـا عليـه بأحرف من ذهب "**لا إله إلا الله محمد رسـول الله**"، وكان أسفله عبارة عجيبة:

"إن مدخل هذا الباب من الداخل".

لـم يسـتطع مطر أن يفهـم المغزى مـن هذه العبـارة بالرغم مـن أنـه فكَّرَ كثيرًا.. ماذا تعني هذه العبـارة؟! كان الباب من أجل الدخـول، لكـن الوُلوج فيه مـن الداخل.. لقد التبـسَ عليه الأمر كلما فكَّر به، فقال في نفسه: "أحيانًا يكون من الأفضل أن نُصدِّقَ دون تفكيـر".. صعـد إلـى السـلم، وكان ما خطر على باله بشـأن العاملين هناك هو أنّهم ربما يقومون بتلميـعِ الكتابةِ على الباب".

كان الممر الطويل يبدو وكأنه متاهة.. لقد سمـع مطر والخادم أصـداء صـوت محادثـات تأتي من أماكـن غير معلومـة، لكنهما لم يكونا يفهمان شـيئًا بسـبب تداخل عبـارات تلك الأحاديث.. فانطلقـا خلـف مجموعة مـن الجنود يبدو أن أحدهـم هو القائد، وكان مـن الواضـح أن لديهـم أعمـالًا مهمة يسـعون لإنجازها.. ساروا أوَّلًا نحو اليمين، ثم اليسار، ثم انطفّوا نحو اليسار مجددًا.. كانـت ممـرَّات القصـر قـد التبسـت على مطـر والخـادم لدرجة

أنه أصبح مستحيلًا أن يصلا إلى أيّ مكان دون مساعدة، ولهذا فقد مشيا خلف الجنود في طريق متعرج لمسافة طويلة، ثم وقف الجنود في النهاية.. بعدها قال قائد الجنود ذو الهيبة للحراس الواقفين أمام باب كبير:

- أخبروا كبير الوزراء بمجيئنا.

كان توقع مطر والخادم في محله؛ إذ فتح الحارس الباب وصاح نحو الداخل بقوله:

- لقد جاء "القائد غضب" يا سيدي!.

دخلوا جميعًا، وكان ذلك المكان عبارة عن صالة كبيرة للغاية، وكان كل جانب منها مليئًا بالخمور والنساء وطاولات لعب القمار والعبيد المساكين، لكن شيئًا أكثر مسكنة وغرابة وحزنًا لفتَ انتباه مطر، ألا وهو العرش الخاوي! عرش موضوع في أفضل جوانب الصالة، لكنه كان بلا صاحب.. بدأ "القائد غضب" يتحدَّث، أو بالأحرى بدأ يرعد كالسماء:

- أرى أن العاملين الواقفين على المدخل لا يزالون يعملون.

أجابه الوزير الأكبر ذو الصوت الجهور:

- هؤلاء الحمقى! لم يستطيعوا فكّ اللوحة التي تحمل العبارة إلى الآن..

وكان مطر قد فهم أن العمال لم يلمّعوا هذه اللافتة.. بعدها واصل "القائد غضب" كلامه بصوتٍ أجشّ:

- هـل خزينة الدولـة وصلت إلى وضعية حرجـة لدرجة أننا احتجنا إلى الذهب الموجود في تلك اللافتة؟

الوزير الأكبر نفس:

- لـم أُصدر أمر فك تلك اللافتة فقط من أجل ملء الخزينة، بل من أجل العبارة المكتوبة أسفلها مباشرة..

كان الوزيـر الأكبـر نفْس يتحدث عن عبارة لم يسـتطع مطر فهمها مطلقًا، فواصل بشغف كبير الاستماع إلى ما يقوله الوزير:

- مكتـوبٌ إن مدخـل هـذا البـاب مـن الداخـل، أي إنه غير مسـموح بالدخول من الخارج، فلو فككنا تلك العبارة الموجودة بالأعلى سيكون بإمكان كل من يريد دخول القصر أن يفعلَ.

- ولكن لماذا نطلبُ شيئًا كهذا؟

كان مـن الواضح أن هذا السـؤال أصـاب الوزير الأكبر بعدم الارتياح؛ إذ قال:

- لا تشـغل بالـك بهذا الأمر.. وماذا عـن مخططاتنا للهجوم على الدولة جارتنا؟ زوّدني بمعلومات عنها.

فـي تلك الأثنـاء دخل القاعة شـخصٌ غاضب قبـل حتى أن يسـتطيع "القائـد غضـب" أن يجد فرصـة للإجابـة.. وتقدم هذا الشـخص بخطوات سـريعة نحـو الوزيـر الأكبـر، وكان يبدو أنه شـخصية مهمـة إذا مـا أخذنـا بعين الاعتبـار أن الجنود أفسـحوا الطريق أمامه، فقال:

- سمعت أنكم أصدرتم أمرًا بإنزال اللافتة المعلقة عند المدخل.. تعلمون أن هذه العبارة هي العلامة الفارقة لهذه الدولة، كما أنها وسيلة الدفاع الوحيدة التي نمتلكها لمواجهة عدوِّنا الأزلي، ولهذا لن أسمح لكم بإنزالها.

- اهدأ قليلًا يا "سيد ضمير"، تعلم أنني لست الوزير الثاني هنا، بل هو أنت، لكني لم أنوِ تنفيذَ هذا الأمر سوى لكي يساهم في إنعاش خزينة الدولة.. كما أننا لم نفكها حتى هذه اللحظة.. ولهذا لا تتصرف بهذا الاستعجال، اتفقنا؟

قال أحد الأشخاص الذين لم يستطع مطر التمييز بينه وبين العبيد قبل قليل:

- أرى أن "السيد ضمير" على حقّ.

ثم تابع:

- تصفون موقفه بالمتعجِّل، لكن بم سينفع اعتراضه بعد فكِّ تلك اللافتة؟

شعر الوزير الأكبر بالغضب تجاه هذا الرجل الذي كان يقف وكأنه عبدٌ؛ إذ قال:

- هل أنت موجود هنا يا سيد عقل؟ لا بد أن تكون قد أنهيتَ المهام التي أَوْكَلْتُها إليك حتى تتمكن من التفكير في مثل هذه الأمور الفارغة!! يا ليتك تلحق فورًا بـ"القائد غضب" وتتبادل معه وجهات النظر بشأن خطط الهجوم، فأنا لا أرغب في الفشل هذه

المـرة؛ إذ إن آخـر هزيمة تلقيناها كبّدتنـا الكثير.. ولو بقي لديك الوقت بعد إنجاز أعمالي فإنني أريدك أن تساعد "السيد ضمير".

وبينما يقول هذا الكلام، وجّه "السيد ضمير" له عتابًا لاذعًا:

– آه يا سـيد عقل! أنت الوزير الثالث الذي تُسـمَع كلمته في ديـوان هذا القصر، فما الذي يعطيه إياك الوزير الأكبر حتى تصير له عبدًا؟ بيد أنني كنت أريدك أن تمد إليَّ يد المساعدة في غياب السلطان!

كان للسـيد ضميـر صوت رائـع لدرجة أنه يدخـل قلب مَنْ يسـتمـع إليه ويَأْسِره، وكانت هذه الكلمات ستؤثّر في السيد عقل إلى أن قطـعَ الوزيرُ الأكبرُ الحديثَ فورًا حتى لا يسمحَ بحدوث ذلك؛ إذ قال:

– هذا خطأٌ، فالسـيد عقل يُساعدني فقط في أعمالي، وعندما يشـعر بالتعـب مـن كثرة العمل يسـتمتـع ببعـض الوقـت ويُعرْبِدُ هنا حتى يسـتعيد نشـاطه، هذا كلُّ ما في الأمر.. ولهذا فلا داعي للمبالغة.. هيا، ليهتم كل واحد منكم بعمله!

ثم أغلقَ الموضوع.

سـحب الخادمُ مطـرَ إلى جانب من جوانـب القاعة وتحدث معه حول مخطَّطِهِ، وقال:

– اسمـع يا مطر، يبدو أن الوضـع أسوأُ مما توقَّعْنا، فلو كانوا سـيفكّون اللافتـة الموجودة علـى باب الدخول فسـتجد عزازيل

وجنوده هنا ما إن ترفع تلك اللافتة، وحينها لن يبقى هذا العرش خاويًا.. لأن هذا هو ما يسعى الوزير الأكبر لتنفيذه، ألا وهو أن يُجلسَ عزازيلَ على هذا العرش، ولو نجح في ذلك فلن يبقى ثمةَ مكانٌ هنا للسيد ضمير، الذي يجعلُ الوزيرَ الأكبرَ يشعر بالصداع بسبب كثرةِ تنبيهاته، أو الروح الذي يقبع في السجن.. وأول ما سيفعلونه هو أن ينفوهما.. فلو نجحنا في إنقاذ السلطان ستتغير الأمور؛ إذ إن إدارة القصر تعترف به إلى الآن وتطيع أوامره.

ثم أضاف:

- يجب أن أفارقك الآن، فأنا سألتقي السيد ضمير، وعليّ أن أساعده حتى لا يتمكّنوا من فكِّ اللافتة الموجودة عند المدخل، وأما أنت فحاول أن تعرف المكان الذي يأسرون به السيد روح، على أن نلتقيَ هنا عند المغرب، وحينها نُفَكِّر ماذا سنفعل!

ظل مطر وحيدًا في القاعة بعدما تركه الخادم وخرج متعقِّبًا آثار السيد ضمير.. ارتشف السيد نفْس رشفتين من القدح الذي قدمه إليه العبيد، ثم قال:

- هيا لنواصل التسلية!

فبدأت جميع أنواع الموبقات، ما دفع مطر للخروج فورًا بعدما شعر بالانزعاج مما رأى.

أخرج مطر سريعًا من جيبه ورقةً وقلمًا لِيُدوِّنَ أيَّ علامة مميزة للمكان كي يستطيع العثور على هذه القاعة عندما سيلتقي

بالخادم مع غروب الشمس، وكان يعتقد أن رسمه خريطة تخطيطه للمكان كلما تحرك به سيسهّل العودة عليه.. وبينما أخذ يتجول بالممرات التي لم يكن يعرف إلى أين ستقوده، خطر على باله أن القاعة الكبيرة التي كان بها لم يكن يوجد بها أي أوراق أو وثائق، فقال بينه وبين نفسه: "لا بد أن هناك غرفة عمل تحتوي على الوثائق الخاصة بالوزير الأكبر، وربما أعثر هناك على أي شيء يسهِّل مهمتي"..

غير أنه من المؤكد أن وصوله إلى هذه الغرفة لن يكون سهلًا؛ إذ كان في كل ممر غرف كثيرة، ولم تكن ثمة لافتة على أي باب من أبواب تلك الغرف.

حاول مطر أن يسترق السمع بالإنصات إلى الخدم الذين يتجولون في الممرات على أمل أن يسمع شيئًا يتعلق بغرفة الوزير الأكبر.. وبالفعل، ساعده حديث دار بين خادمين مرّا من جانبه وهما يدفعان عربتين تحتويان دلاءً وأدوات تنظيفٍ وقطعًا من القماش:

- إلى أين ستذهب للتنظيف اليوم؟

- سأنظف غرف النوم، وماذا عنك؟

- مهمتك سهلة يا صديقي، لأنني سأذهب إلى طابق الإدارة، أي إن يومي سيكون طويلًا.

- أشفق عليك، يا ليتهم يلغون الإجراءات الموجودة على كل باب غرفة، فهي طويلة ومملة جدًّا، لا سيما وأنهم زادوا من التدابير الأمنية في الآونة الأخيرة.. يبدو أنهم يظنُّون أننا إنما أتينا هنا من أجل اغتيال بعضِ المسؤولين لا من أجل تنظيف الغرف.

بدأ الاثنان بالضحك، بينما كان مطر قد حصل على الإجابة التي كان يبحث عنها، ولهذا بدأ يتبع خطوات الخادم الذي قال إنه سيصعد إلى طابق الإدارة.

كان ذلك الطابق هو آخر طابق بالقصر، وكان الممر مليئًا بالغرف على جانبيه، ولهذا كان عليه أن يكون حَذِرًا للغاية، ذلك أنه يوجد جنديّ للحراسة على كل باب غرفة، ولهذا كان يُدْرِكُ أنَّ عليه ألا يلمس أيَّ شيءٍ بِغَضِّ النظرِ عن كونِهِ مخفيًّا لا يراه أحد.. ولقد فعل أكثر شيء منطقيَّةً خَطَرَ على بالِهِ.

بدأ عامل النظافة يتحدث مع حارس الغرفة، وحاول أن يُعرب له عن استيائه من تفتيشه في كل مرة يأتي لينظِّفها، وفي تلك اللحظة جلس مطر في صمت على طرف العربة التي تركها عامل النظافة جانبًا، وعندما فُتح الباب بدأ عامل النظافة يدفع العربة، فوجد صعوبة في ذلك، فبدأ يحدث نفسه قائلًا: "يا إلهي! متى ينتهي هذا اليوم؟!".

ما إن دخل الغرفة حتى أغلق الباب بسرعة، وتوجه نحو المكتب.. تعجَّب مطر لأن المكان كان نظيفًا للغاية، كما لم يكن عامل النظافة بحالة تسمح له بتنظيف الغرفة.. فتح عامل

النظافة الدرج الموجود أسفل المكتب بمفتاح كان بيده، وأخرج بعض الأوراق.. وبعدها وضعَ الورقة التي أخرجها من جيبه بين الأوراق التي كانت في الدرج، ثم وضعها في الدرج ثانية، ومن ثم مدّ يده ليغلق الدرج، حينها شعر مطر أن عليه فعل بعض الأشياء فورًا، ذلك أن العاملَ لو أغلق الدرج سيستحيل فتحه ثانية.. ففعل أول شيء خطر على باله؛ إذ قلب الدلو المملوء بالماء ثم انسحب إلى أحد جوانب الغرفة.. شعر عامل النظافة بالفزع لما رأى منظر الماء يغمر أرضية الغرفة، فالتقط الممسحة من على العربة وبدأ يتحرك نحو مكان الماء وهو يحدث نفسه، وحينها انتهز مطر الفرصة والتفَّ حول المكتب، ثم وضع في صمت إحدى الورقات التي كانت في الدرج في جيبه دون حتى أن ينظر إلى محتواها، وكان عامل النظافة في تلك الأثناء قد مسح الماء المسكوب ويسير في طريقه نحو مطر ليغلق الدرج بالمفتاح.. خرج هذه المرة من تحت المكتب فورًا وجلس على حافة العربة مجدَّدًا، وعندما طرق العامل الباب ليخرج فَتَحَه الحارس وقال له:

- لقد أنهيتَ عملك اليوم سريعًا، ما الخَطْب؟

- لم يكن هناك الكثير لفعله، فالغرفة تنظَّف كل يوم، هذا فضلًا عن أن وزيرنا الأكبر شخص نظيف جدًّا.

ثم خرج من الغرفة وهو يدفع العربة التي لم يكن يدري لماذا يجد صعوبة إلى هذه الدرجة في دفعها.

نـزل مطـر عن العربـة بهدوء أمـام الغرفة التالية، وسـار على أطـراف أصابعـه حتى عاد إلى الطريق الذي جاء منه، غير أنه كان يبحـث عـن مكان يقف به حتى يقرأ ما هو مكتوب بالورقة.. كان الشغف يعتصر قلبه حتى دخل بهدوء أول غرفة وجد بابها مفتوحًا في الطابق السـفلي، وعندما تأكَّد من عدم اطِّلاع أحد عليه أغلقَ البـاب برفق، ثم أخرج الورقة من جيبه، تلك الورقة التي لم تكن خريطـة الطريـق الموصل للسـجن، لكن من المؤكـد أنها تحمل الأهمية نفسها على أقل تقدير.

obeikandl.com

التحالف السري

كان مكتوبًا بالورقة ما يلي:

"وسوسة من عزازيل العاصي الذي لعنه الله إلى السيد نفْس..

صديقي الأغلى، ووزيري المستقبلي..

بحسب المعلومات الاستخباراتية التي حصلنا عليها فإن نزعكم تلك اللافتة المعلقة على باب دخول القصر سيمكننا نحن من الوصول إلى أهدافنا دون أدنى عناء.. وأعتقد أن السيد ضمير سيعارض هذه الخطوة.. ولهذا سايِره فيما يريد وعامله برفق، وحاول مماطلته بأشياء يريد سماعها ولكن لا تتغيَّر في الحقيقة، وإياك أن تسمح باتّحادِهِ مع السيد عقل.. لهذا فما عليك فعله هو أن تجعل السيد عقل ينشغل بأشياء غير ضرورية وتماطلَه بالكثير من الترفيه كذلك في أوقات الفراغ..

obeikandl.com

وأخيـرًا عليـك أن تزيد من التدابير الأمنية في القصر بشكل كبير! فلقد نما إلى مسامعنا أن جيش الخير يخطط لشن عملية سرية بواسطة عدة رجال عيّنهم بشكل خاص مـن "زمـرة الخادمين"، وأنـت تعلم أن هـؤلاء الخادمين رجـال خطيـرون للغايـة، ولا يستسـلمون أبـدًا إلـى أن ينجزوا مهامهم، ولا شـك أنك تتذكر ما عانيناه بسـببهم فـي الماضـي.. ليكن في علمك أنه لو كانت هذه العملية التي يسـعون لتنفيذها من أجل إنقاذ السـلطان فسـتذهب جهودنا أدراج الرياح..

هيا، لعنة الله عليكم أجمعين!".

القائد الأعلى لجيوش الشر: عزازيل

* * *

لقد فهم مطر الآن كل شـيء بشـكل أفضل، وقال في نفسـه: "يبـدو أن الأمـور تسـير هنا علـى هذا النحو يا سـيد نفـس! أيها الخائن الوغد!".. وكان يشعر أن مشاعر الكره تزداد بداخله، كما فكَّر في كيف أن الخادم يعمل عملًا مهمًّا للغاية بمسـاعدة السـيد ضميـر كـي لا ينزلوا اللافتـة الموجودة في مدخـل القصر.. وفي تلـك الأثنـاء نظر إلى الخارج عبـر النافذة فرأى أن المسـاء على وشك الحلول، فتحرك فورًا نحو القاعة.

حينئـذ كان يجـول فـي عقل مطر آخر خطاب وسوسـة جاءه من عزازيل اليوم، واعتقد أن بإمكانه اتخاذ التدابير اللازمة مسبقًا

استعدادًا لما سيحدث لو تمكن من قراءة هذه الخطابات كل يوم بشكل منتظم.. كان من الصعب للغاية قراءة تلك الخطابات بعد دخولها الغرفة، فخطرت على باله فكرة مفادها أنه لو اقتفى أثر المراسل التي ينقل تلك الخطابات وهو يرتدي زي عامل النظافة ستُتاح أمامه فرصة قراءة الخطاب حتى يدخل عامل النظافة الغرفة، لكن كان يجب عليه قراءته ووضعه في مكانه ثانية، ذلك أنه لو لم يرَ الوزير الأكبر -الذي تصله معلومات بشأنها- الخطابَ الوارد لانكشف كلُّ شيءٍ ولَفَشلت العملية بالكامل.. وقد شعر بالراحة لأن الخطاب الذي أخذه خِلسة ووضعه في جيبه كان واحدًا من الخطابات القديمة، وهذا ما سيصعّب مهمة ملاحظة ضياعه.

وقف مطر أمام القاعة حتى يتمكن من دخولها، وانتظر حتى يأتي أحدهم ويدخلها.. كان توقيت انتظاره ممتازًا لدرجة أنه بعد قليل من الانتظار ظهر السيد ضمير والخادم في نهاية الممر، فدخلا تواليًا من الباب الذي فُتح لدخول السيد ضمير.

كان في تلك الأثناء ثمة شخص يبدو وكأنه ناقل أخبار يطلِع الوزير الأكبر على بعض المعلومات:

- لقد تلقينا يا سيدي أخبارًا تفيد بوصول قافلة محملة بالطعام إلى مكان قريب جدًّا من "طريق الفم".. ولو نظرنا إلى ما نقله المخبرون سنجد أن معظم جِمال القافلة محملة بالفاكهة الطازجة وما تبقى فهو من العسل والزيتون.

- جميل! أرسلوا الأوامر إلى "القائد شهوة" قائد الجيش الثاني على الفور، فليلحق بالقافلة برفقة رجاله دون تضييع أي وقت، وليصادروا محتوياتها ويأتوا إليّ بمن فيها أسرى.

- سمعًا وطاعة يا سيدي!

وبينما كان ناقل الأخبار في طريقه للخروج سار "السيد ضمير" نحو الوزير الأكبر، وقال دون أن يتراجع عن قول الحق:

- ما هذا الذي تفعلونه يا سيد نفْس؟ إننا دولة ولسنا قطّاع طرق! فلو كانت خزينة الدولة تحتاج إلى الطعام فهناك طرق أكثر مناسبة للعمل وكسب الرزق.. أليس كذلك يا سيد عقل؟ قُل شيئًا!

قالها "السيد ضمير" شاكيًا انشغال "السيد عقل".

فأجابه السيد عقل:

- أنا منشغل الآن بموضوع مهم للغاية أراد السيد نفْس أن أفكر به، وكما تعلم فليس بإمكاني التفكير بشيئين مختلفين في الوقت نفسه!

قال السيد نفْس متبعًا نصائح عزازيل بالضبط كما وردت بالخطاب الذي سقط في يد مطر محاولًا إسكات السيد ضمير:

- اسمع يا سيد ضمير! أعرف أنك على حق، لكن دع هذه البضائع التي تنقلها القافلة تأتي أولًا ثم سنرى ماذا سنفعل، وتأكد أنني سأستمع إلى أفكارك، ثقْ بي رجاء!

ردَّ مطر بينه وبين نفسه: "أتريده أن يثق بك؟ من سيثق بك أيها الخائن؟! لا ريب أن أكاذيبك ستظهر قريبًا".. ثم استدعى الخادم إلى ركن من أركان القاعة، وأراد أن يطلِعه على ما توصل إليه:

- ينقل أحد الموظفين خطابًا من عزازيل إلى مكتب الوزير الأكبر بشكل منتظم كل يوم، فتصله التعليمات بهذه الطريقة.. لو استطعنا الاطّلاع على مضمون تلك الخطابات سنتمكن من التفكير في التدابير المناسبة وفق ما سيحدث، ما رأيك؟

- أحسنت يا مطر! هذه المعلومات مهمة جدًّا.. حاول أن تطّلِع على مضمون خطاب الغد، وأما نحن فسنسعى لإقناع السيد ضمير حتى يعارض إنزال اللافتة الموجودة عند مدخل القصر.. لقد شغلنا الموظفين بأشياء غير مهمة اليوم، لكن تأثير ذلك لن يدوم طويلًا.. ولهذا علينا أن نصل إلى السجن المودع به " السلطان روح" في أسرع وقت ممكن.

وبينما هما كذلك لاحظا أن ثمة حركة ولغطًا في القصر، الوزراء بدؤوا يتشاجرون ثانية، والسبب هذه المرة هو ما قاله أحد ناقلي الأخبار الذين أتوا إلى القصر:

- سيدي، إن جواسيسنا يراقبون الأميرة الجميلة الأجنبية "نَامَحْرَمْ سلطان" أميرة الدولة جارتنا، كما أمرتم قبل ذلك.. ويشير خبر وصلنا قبل قليل إلى أن الأميرة الجميلة في طريقها للعبور إلى دولة الجوار عبر طريق العين ولا يرافقها سوى عشرة جنود لحراستها. فماذا تأمرون؟

obeikandl.com

لم تكن النظرات الشيطانية التي كانت في عيني "السيد نفس" مثيرة للاشـمئزاز إلى هذا الحـد من ذي قبل، فأصدر أوامره على الفور بقوله:

- جميـل! هـا هي الفرصة التي انتظرناها كثيرًا.. لقد قلت لها إنني سـأهاجمها وهي بمفردها.. أرسلوا مرسالًا إلى السيد شهوة على الفور ليخبره بالانتقال إلى طريق العين فورًا ما إن ينتهي من مهمته في "طريق الفم"، ولا يأتيني إلا ومعه "نامحرم سلطان"!

- أمرك يا سيدي!

لقد حزن "السيد ضمير" كثيرًا، وقال:

- هل أنت مدرك ماذا تفعل يا سـيد نفْس؟ كيف لأحد أركان الدولة أن يستغل سلطته بهذه الطريقة في سبيل الظلم؟ وليكن في علمك أننا سنقـع في مأزق بسبب أفعالك تلك!

- وهـل يعقل ذلك؟ ليس لدينا أي نيّة سـيئة! كيف لـ"نَامَحْرَمْ سـلطان" أن تسيرَ هذا الطريق الطويل دون حراسة!؟ لا سيما وأن المسـاء قد حل! سنسـتضيفها في قصرنا هذه الليلة، لنرسـل معها غدًا كتيبةً من الجنود لحراستها في طريقها.. وهل هذا أمر سيئ؟!.

كان مطر هو الآخر أيضًا على وشك تصديق كلام السيد نفس بالرغم من أنه يعرف أنه شخص خائن مخادع.

لقد عبَّر مطر عن اندهاشه بقدرات الوزير الأكبر بقوله:

- إن هذا الوزير الأكبر ذكيٌّ وخطيرٌ جدًّا.

وبينما هو كذلك تلقى ردًّا من الخادم أدهشه أكثر؛ إذ قال:

– في الحقيقة ليس ثمة علاقة بينهما، فالسيد نفس غبي للغاية! لكنه يستغل جميع قدراته العقلية التي يستمدها من كائن ذكي وسافل بقدر ذكائه، ألا وهو عزازيل.. وأما الخاصية الوحيدة التي تميز السيد نفْس فهي إصراره الشديد وإلحاحه في أيّ موضوع يخوضه، ولهذا فهو يستنفد جميع حيله كالطفل الصغير حتى يصل إلى مراده.. أما عزازيل فهو يختلف عنه؛ إذ ما إن يستيقن أن أحد الطرق لن ينفع فيبادر على الفور إلى تجربة طريق آخر.. ولقد شاهدت بنفسك مثال ذلك عندما حاول غواية نبي الله إبراهيم عليه السلام وأسرته.. ولهذا عليك أن تطلِع على ما هو مكتوب في الخطابات الواردة إلى السيد نفس من عزازيل.

ثم أضاف:

– لقد تحدث "السيد ضمير" عن غرف النوم الموجودة في الطوابق العليا، وقال إن أغلبها فارغة.. ولهذا فسيصطحبنا إليها الآن.. عليك أن تستريح جيّدًا هذه الليلة لأن علينا أن نبدأ العمل من الصباح الباكر.

صعد الخادم ومطر بصحبة السيد ضمير إلى الطابق الموجود به غرف النوم التي صُمِّمَت خصيصى ليستريح بها ضيوف القصر الذي لم يكن به ضيوف غيرهما في ذلك الوقت.

دخل مطر إحدى الغرف التي لن تلفِت إليها الانتباه في وسط الممر، ثم ذهب الباقون.. يمكن أن نصف هذه الغرفة بأنها أجمل

غرفـة رآها مطر في حياتـه؛ إذ كانت تطل على البحيرة الموجودة خلـف القصـر.. اسـتمتعَ قليلًا بهـذا المنظر الخـلاب، ثم ما إن وضـع رأسـه على الوسادة المصنوعة من ريش النعام حتى أحسَّ بمدى التعبِ الذي يُعاني منه جسمه.. وغرقَ في النوم سريعًا.

ما إن غطَّ في نومه لأقل من نصف ساعة حتى انتفض مفزوعًا لسـماعه صرخة مدوية، ففتح الباب قليلًا وألقى نظرة على الممرّ ليرى فتاة تشبه الأميرات يمسكها الجنود من ذراعيها ويسحبونها، لا بـد أن تكـون تلك الفتاة هي "نَامَحْرَمْ سـلطان"، أجبرها الجنود علـى دخول إحدى الغرف وأقفلوا البـاب عليها بالمفتاح.. حينها سيطرت البطولة مرة ثانية على مشاعر مطر، ولم يمضِ وقت طويل حتى اتخذ قراره بقوله: "يجب عليَّ بذل ما بوسعي لإنقاذ الأميرة".

كان الجنود قد تركوا مفتاح الغرفة على الباب، ما شجّـع مطر على أن يَهُبَّ من غرفته لنجدتها قائلًا: "إنها فرصة جيدة للغاية".. لكنه بينما كان يقترب من باب الغرفة سـمع صوتًا جهوريًّا قادمًا من ناحية السلّم:

- أحسنتَ! أبلـغْ الجميـعَ الآن بأنني لا أريد أن يبقى أحد في هذا الطابق، فعلينا أن نحسن ضيافة الأميرة!

وبعدهـا ترددت أصداء ضحكته الشـيطانية في أرجاء الممر، فمـن يكون إذًا ذلك الشـخص؟ ومن سـيكون غيـر الوزير الأكبر السـيد نفْس! انسـحب مطر علـى الفور إلى أحـد جوانب الممرّ، وبدأ يفكر في طريقة أخرى لإنقاذ الأميرة.

في تلك الأثناء ما إن دخل السيد نفْس حتى بدأت صرخات الأميرة تتعالى، وهي تطْلُبُ المساعدة، أما مطر فكعادته فقد فعل أول شيء خطر على باله، فقرع الباب مسرعًا ثم رجع إلى الوراء، فانقطعَ الصوت الذي كان بالداخل على الفور، ما كان يعني أن ما فعله مطر كان ذا فائدة، ولو مؤقّتة.. خرج السيد نفْس وهو غاضب من الغرفة وتفقَّد الممر، وعندما لم يرَ أحدًا دخل الغرفة ثانية.. وما إن بدأت الأميرة تصرخ مرة ثانية حتى قرع مطر الباب مجددًا، فخرج السيد نفس ونظر من الباب فلم يجد أحدًا، فأغلق الباب بالمفتاح، ثم توجَّه نحو السلم المتجه صوب الطابق السفلي وهو يصيح على الحرّاس.. وها قد آن الأوان.. قرأ مطر على الفور قوله تعالى ﴿**أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ۞ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ**﴾، ثم توجَّه صوب الغرفة التي حُبست بها الأميرة.

ما إن فتح مطر الباب بدأت الأميرة بالصراخ، فاقترب منها سريعًا وقال لها:

- اهدئي أيتها الأميرة! لا أريد إيذاءك، بل أريد إنقاذك من هنا..

فاطمأنت الأميرة قليلًا، وأرادت أن تعرف كيف سينقذها:

- أشكرك! لكن كيف ستفعل ذلك؟ كيف ستنقذني؟

لم يكن مطر يعرف إجابة هذا السؤال حتى تلك اللحظة، فطلب منها بعض الوقت للتفكير في طريقة لإنقاذها.. ولو

حاولت الأميرة قتل السيد نفس أو حتى جرحه على الأقل عندما يحاول مهاجمتها فمن المؤكد أنهم سيحبسونها.. وربما يكون ذلك سببًا في أن يصل مطر إلى "السلطان روح" المسجون.

بدأ مطر يبحث في جيوبه عن شيء يمكن استخدامه لتنفيذ هذه الخطة، وبينما هو كذلك وقع في يده الخطاب الذي كتبه عزازيل إلى السيد نفس.. فكَّرَ في نفسه أنه لا يمكن جرح أحد باستخدام هذا الخطاب، لكن يمكن خداعه! لا سيما شخصًا أخرق كالسيد نفس، فقال للأميرة:

- اسمعي أيتها الأميرة! ليس لدينا الكثير من الوقت، ولهذا فعليكِ أن تصغي جيّدًا لما سأقول ويلزمك تنفيذُه بالحرف الواحد.. خذي هذا الخطاب، وعندما يأتي السيد نفس إلى الغرفة أريدك أن تصرخي في وجهه بلهجة حادّة.. قولي له: "اسمع يا سيد نفس! أنت لست مدركًا إلى الآن من تتحدى، أنا مُرْسَلَةٌ من عزازيل، ولدي خطاب سري للغاية أرسله إلى "السلطان روح"، وعليّ أن أوصله إليه وإلا فلك أن تتخيل ماذا يمكن أن يحدث".. وليكن الخطاب في تلك الأثناء مطويًّا في يدك.. سلميه إلى السيد نفس بطريقة يرى بها فقط العبارة المكتوبة في نهاية الخطاب: "القائد الأعلى لجيوش الشر: عزازيل"، وما إن يراه تراجعي إلى الخلف وضعي الخطاب في جيبك.. أعتقد أنه قادم الآن، وأما أنا فسأكون بجوارك حتى وإن لم تريني.. أرجوك لا تخافي.

ثم خرج مطر من الغرفة مسرعًا، وقبل أن يكمل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾؛ وصل السيد نفس يرافقه جنديان، فأمرهما بالانتظار عند السلم، ودخل الغرفة مسرعًا.

وبعد قليل بدأ مطر يشعر بالشغف لمعرفة ما يحدث داخل الغرفة، فاقترب من الباب ووضع أذنه عليه، وبدأ يسمع الحوار بعناية، وكان يسمع صوتًا جهورًا يقول:

- هاااا.... قولي هذا من البداية.. غريبٌ أن يُرسل خطابًا إلى السلطان، غير أن سيدنا عزازيل يعرف الأفضل في كل شيء.. فهل يا ترى أستطيع أن أطلع على ما كتب؟

- لا تفكر في ذلك أبدًا، فأنت تعلم جيّدًا ماذا يفعل سيدنا عزازيل عندما يغضب.. ولهذا عليك أن تصطحبني إلى السلطان على الفور.

- ذلك الوغد الذي يسمونه "السلطان روح" محبوس في سجن خاص في "كهف الغفلة" يقضي عقوبته لأنه يتدخل في كل ما أفعل.. يبعد ذلك الكهف مسافة مسير نصف يوم من القصر.. إنك ستذهبين غدًا في الصباح إلى هناك مع رجلين من رجالي الذين أثق بهم كثيرًا، ألا وهما النوم والراحة.. وفي الحقيقة لن يستطيع أحد سوى هذين الاثنين أن يصطحبكِ إلى "كهف الغفلة".

- ألا يمكن أن نخرج على الفور؟

- كما يظهر من اسميهما أن كليهما الآن يغطّان في نوم عميق، وهما عادة لا يستيقظان قبل الظهر، لكني سأوقظهما لكِ غدًا في الصباح الباكر.. وأما أنتِ فاستريحي، وإذا احتجتِ إلى شيء فأنا تحت أمركِ.

- اغرب عن وجهي! لا تحاول أن تتحرشَ بي بكلامك هذا مرة ثانية!

- سأخرج فورًا يا سيدتي، أنا آسف!

قالها السيد نفس وهو يخرج من الغرفة، ولم يكن قادرًا على منْع نفسه من النظر بطرف عينه إلى الأميرة الجميلة.

ما إن خرج الوزير الأكبر من الغرفة حتى دخلها مطر وشكر الأميرة التي قالت له:

- أنا من يجب أن يشكرك على إنقاذك لي من بين يدي هذا السافل.. في الواقع كان لدي شك بخصوص أن هذه الفكرة ستنفع، لكن كل شيء سار كما خططت له.

فأكمل مطر كلامه:

- لقد كان بفضلك أن سار كل شيء كما خططت له، إنك لعبتِ دورَكِ على أكمل وجه.. والآن عليك أن تستريحي قليلًا.. أعتقدُ أن اليوم كان يومًا شاقًّا بالنسبة لك.. قبل أن أنسى، لو واصلت لعب هذا الدور كذلك غدًا سأكون سعيدًا، فليس ثمة طريق آخر للوصول إلى السلطان، ولن أستطيع الوصول إليه

إلا بفضلك.. لا تقلقي فسأكون بجوارك غدًا طوال الوقت حتى وإن لم تريني.

– وما معنى هذا؟ لقد قلت الشيء نفسه قبل قليل، فكيف لي ألا أستطيع رؤية شخصٍ يقف بجواري؟

– من الصعب أن أشرح لك هذا، لكن أرجوك ثِقي بي! فلو ساعدتِني لإنقاذ السلطان سأشرح لك كل شيء.. والآن عليّ الذهاب، طابت ليلتكِ.

obeikandl.com

obeikandl.com

سِرُّ "كهف الغفلة"

قضى مطر الليلَ بأكمله أمام الغرفة التي تُقيمُ بها "نَامَحْرَمْ سلطان"؛ إذ كان يريد أن يتأكَّدَ من أنَّ أحدًا لن يُلحق بها أذى، وكذلك كان يخشى أن تفوته رحلة الصباح.. ارتعد لما سمع أصواتَ مجموعةٍ من الجنودِ أتت مع بزوغ الفجر، وبدأ ينظر إلى إحدى جنبات المكان التي ظهرَ منها الجنود.. وبخروج الأميرة من الغرفة بدأت مرحلة من التتبُّعِ الذي سيطولُ كثيرًا.

كان هناك فارسان وعربةٌ ينتظرون أمام القصر.. وإذا نظرنا إلى أن الفارسين كانا يتثاءبان فسنعرف أنهما "النوم" و"الراحة"؛ إذ كان واضحًا من حالتهما أنهما ليسا راضيَين عن هذا الوضع.. كانت الأميرة تنظر حولها باستمرار بينما كانت تسير نحو العربة، وقد فهم مطر أنها تبحث عنه.. فبادر مطر مسرعا وسبقها واتَّخذ مكانه في مؤخِّرة العربة، وبهذه الطريقة بدأت رحلته المزعجة التي ستستغرق نصف يوم.

بينما كان الركب خارجًا من البوابة الرئيسة للمدينة رأى مطر السيد نفس يقف في زاوية برفقة عامل النظافة الذي رآه بالأمس.. وعقب حوار دار بينهما امتطى عامل النظافة جواده وخرج من البوابة وابتعدَ مسرِعًا.. يبدو أن السيد نفس كان يرسل بهذه

الطريقة الأخبار إلى عزازيل.. وفي تلك الأثناء بدأ يتنامى لدى مطر شعور أن أشياء سيّئَةً ستحدُث قريبًا، وأدرك أن عليه إنقاذ السلطان اليوم، وإلا فإنَّ جميعَ مساعيه ستذهب أدراجَ الرياح.

غير أنه خطر على باله شيءٌ فجأة، لماذا سينقذ السلطان؟ أو ماذا سيحدث عندما ينقذه؟ فهو يرى أن الشعبَ سعيدٌ جدًّا بوضعه الحالي، كما أنه لم يصادفْ حتى الآن أيّ شخصٍ غير راض عن هذا الوضع باستثناء "السيد ضمير".. قال بينه وبين نفسه: "بماذا كان سيجيب الخادم على سؤالي هذا؟"، "في الغالب كان سيقول إن هذه العملية هي أمر قبل أي شيء، هذا صحيح في الواقع، إنه أمر أصدر إلينا من قِبل "حظيرة القدس"، وهذا يعني أن إنقاذ السلطان يعتبر شيئًا مهمًّا بالنسبة له وكذلك بالنسبة للشعب.. بكل تأكيد! فلو لم ننقذ السلطان سيأتي عزازيل وسيجلس على العرش، وربما يكون عزازيل يَعِدُ الآن بأشياء تُعجِبُ الجميع، غير أن ما قيل له عندما طُرد من جنب الله يشرح هذا على أكمل وجه: ﴿**يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا**﴾، بكل تأكيد! فالشيطان يخدع الجميع -بما في ذلك السيد نفس- بوعوده لِيُشْركهم في مصيره المشؤوم.. ولا شك أن "السلطان روح" سيحصل على نصيبه من هذه النهاية الحزينة أيضًا لأنه سمح بحدوث هذا".. وبينما كان مطر يقول هذا يكون قد عثر على الردود التي كان يبحث عنها.

مر وقت طويل على بداية رحلتهم، غير أن مطر لم يسمع قطُّ ما دار من حديث بين هذين الرجلين اللذين يحملان أهمية كبيرة

للغاية بالنسبة للسيد نفس، فألقى نظرة إلى الطرف الأمامي لينظر ماذا يحدث، غير أنه رأى شيئًا يستحيل تصديقه، رأى الرجلين (النوم والراحة) ينامان فوق حصانيهما.. يبدو أن سائق العربة اشتبه في هذه الوضعية حتى إنه نادى على هذين المسكينين قائلًا:

- أيها السادة! هل تنامان؟ إلى أين نحن ذاهبون هكذا؟

فأجابه من كان نومه أخف من نوم صاحبه:

- نحن ذاهبون بالتأكيد إلى كهف الغفلة.

- وكيف سنذهب إلى هناك وقد نمتما وعلا شخيركما دون أن تنظرا حولكما؟

- هذا في الواقع هو سر "كهف الغفلة". فمن على شاكلتك من المتيقظين لا يعرفون مكانه أبدًا، ولهذا فالطريقة الوحيدة للعثور عليه هو الغوص في أعماق الغفلة، بالضبط كما كان السلطان يفعل كثيرًا قبل أن يسجَن هناك.. لا تقلق، فالغفلة تقودنا إلى هناك.. فلو أيقظتني مجددًا فلن نستطيع الوصول إلى هناك حتى مع حلول المساء.. اصمت الآن..

قالها ثم وضع رأسه أمامه وواصل عمله بالنوم العميق.

قال مطر بينه وبين نفسه: "يبدو أن السلطان كان مثلي! فأنا أيضًا أُحِبُّ النوم كثيرًا.. بيد أنني لم أذقْ طعم النوم مذ تعَرَّفْتُ إلى الخادم.. على كل حال!".

انتهت هذه الرحلة الطويلة والمزعجة للغاية بوصولهم إلى سفح جبل شاهق، وما إن نزلت الأميرة من العربة حتى بدأ النوم والراحة بالتقدم معها جنبًا إلى جنب، فاعترضت الأميرة على هذا الوضع بعدما اعتقدت أنه سيُصعّب من مهمة إنقاذ السلطان، وقالت:

- لا، لن نسير بهذه الطريقة معكما.. عليّ أن أرى "السلطان روح" بمفردي، ولهذا ابقيا هنا!

- وماذا عن الطعام الذي أحضرناه للسلطان؟ فنحن نجلب له جميع احتياجاته اليومية دائمًا.

- إذًا، سأتقدم أنا عليكما، ولن أستغرق وقتًا طويلًا في الداخل، ثم تدخلا لتلبيا طلباته.. هذا فضلًا عن أن الرحلة كانت طويلة، وببقائكما هنا تكونان قد أخذتما قسطًا من الراحة.

عندما أجاباها بقولهما:

- قولي هذا أيتها الأميرة!

كان واضحًا أنهما أُعجِبا كثيرًا بفكرة النوم وأخذِ قسطٍ من الراحة.

فقال مطر بينه وبين نفسه: "يبدو أن هذه الأميرة أذكى مما هو ظاهر عليها"، ثم تبعها على الفور.. كان مدخل الكهف في مكان قريب من قمم الجبال.. وبينما قال لنفسه: "مسكين هذا السلطان! من يدري ما المشاكل التي يعاني منها هنا؟" كان يرسم

في مخيلته صورة سجن، مكان لا تتعدى مساحته الأربعة مترات يقع خلف مجموعة من القضبان الحديدية العملاقة وتعتريه البرودة والرطوبة، ولا يرى النور، وتصدر منه رائحة كريهة.. وعندما وصلا إلى مدخل الكهف وقف مطر قليلًا وانتظر أن تسير الأميرة إلى الأمام.. كان غريبًا أن المكان لم يكن به أيّ جنود للحراسة، فخطر على باله فكرة "هذا يعني أنهم أقفلوا عليه الباب من الخارج وتركوه، ذلك المسكين!!"، وحينها سمع صوت الأميرة يصدح من الداخل:

- سيدي السلطان! سيدي السلطان!

اعتقد مطر أن كل شيء على ما يرام، فقرأ الآيتين من سورة البلد ودخل الكهف. وبحسب ما قاله له الخادم فإنه سيرى السلطان، ولن يكون ثمة داعٍ ليختفي مرة ثانية.

لفت انتباه مطر وجود قضبان السجن في مكان قريب جدًّا من مدخل الكهف، وكان يوجد أمام هذه القضبان الأميرة التي استدعيت إلى الداخل وبعض الأطعمة التي أدرك مطر أنها موجودة بالمكان منذ بضعة أيام، وذلك من خلال رؤيته للذباب الذي كان يطير حولها.. وعندما سمعت الأميرة صوت وقع قدمي مطر التفتت إلى الوراء وقالت:

- أنت؟ كيف أتيت إلى هنا؟ ظللت ألتفت حولي لأبحث عنك لكني لم أرك قطّ.

obeikandi.com

– هذه وضعية معقدة بعض الشيء أيتها الأميرة، سأشرح لك كل شيء فيما بعد، ثم اقترب من السجن الذي لم يكن داخله كما توقعه مطر؛ إذ كان يحتوي على كل شيء يمكن أن يفكر به الإنسان من أجل راحته ورفاهيته.. فصاح مطر بحماس صوب السجن:

– أيها السلطان! أيتها الروح الطاهرة! يا الله، يا له من أمر عجيب.. ألا تكون هذه لعبة من تخطيط السيد نفس؟ لا، ليست كذلك، ذلك الغبي لا يفكِّر بلعبة كهذه.. هذا فضلًا عن أن الفارسين اللذين قادانا للمجيء إلى هذا المكان يبدو أنهما كانا واثقين من أن السلطان موجود هنا بما أنهما يزورانه كل يوم ويجلبان له احتياجاته.. غير أنني لم أفهم لماذا لم يؤكَل هذا الأكل منذ أيام.. كذلك فإن باب السجن لا يزال مغلقًا، ومن الصعب أن يستطيع السلطان الهروب من هنا.. ولو افترضت أنه مختبئٌ بالداخل فكان يجب أن يخرج ما إن يسمع صوتنا.. على أي حال، ثمة شيء نعرفه ألا وهو أن السلطان ليس موجودًا هنا.

قالها مطر وكأنه يتحدث إلى نفسه لا إلى الأميرة حتى أنهت هذه الأخيرة الكلام بقولها:

– إذًا، لننتقل إلى حكايتك، لقد قلت إنك ستحكيها لاحقًا، فلا تنسَ أنني أميرة وأريد ممن يَعِدُني أن يَفِي بوعده.

قال مطر: "حسنًا"، ومن ثم أخذ يحكي قصته للأميرة.. بدأ الاثنان يسيران نحو الأسفل وبدأ يحكي لها عن كيفية مجيئه إلى

هذه المملكة وما هي أهدافه الأساسية ويتحدث عن الخادم وما عاشه خلال آخر أربعٍ وعشرين ساعة بالتفصيل.. كان يحكي كل هذا بأريحية تامة؛ إذ لم يكن يخطر بباله ألبتة أن الأميرة ستصدق كل ما يقوله.. وفي الواقع كانت الأميرة هي أيضًا تستمع إلى ما يقوله مطر بتركيز كبير وكأنها طفلة صغيرة تستمع إلى قصةٍ قبل النوم حتى فزعت لما سمعت صوت رجلين يصرخان:

- أيها السلطان! أيها السلطان!

فبدأ مطر والأميرة يلتفتان حولهما.. كان السلطان في مكان ما هنا، وكان عليهما أن يحمياه.. غير أن هذين الرجلين -النوم والراحة- كانا يشيران صوب مطر الذي تردّد للحظة، لكنه التفت إلى الوراء بسرعة، غير أنه لم يرَ شيئًا.

فإما أن هذين الشخصين اللذين ليس لديهما أيّ عمل يفعلانه سوى النوم بالليل والنهار لا يزالان في عالم الأحلام أو... ليس هناك أو! هناك شيءٌ غير مفهوم، ماذا يمكن أن يكون إذًا؟ لكن يبدو أن هذين الرجلين مندهشان للغاية، وهو ما كان واضحًا عليهما؛ إذ كانت أعينهما مفتوحة لدرجة يمكن أن نقول معها إن أحدًا لم يرَ أعين هذين الشخصين المحبين للنوم مفتوحة إلى هذه الدرجة قبل ذلك.. وكانا من ناحيةٍ أخرى يقتربان من مطر.

بدآ يطرحان عليه أسئلة من قبيل:

- هل خرجتَ من السجن يا سيدي؟ لماذا لم تأخذ الطعام الذي نحضره لك منذ عدة أيام؟

بـدأ مطـر يقرأ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَـدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَـدًّا فَأَغْشَـيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، لكنه لاحظَ أنه لم تَعُدْ تنفـع عندما لم يرَ أيَّ استغراب لدى مَن في الكهف.. وبينما شرعَ في الهروب كحيلـةٍ أخيـرة؛ أدركَ أن هذين الرجلين لـن يضرّاه؛ إذ بدآ يُقبّلانه مـن أطراف ثوبه، وكانا محتارَين فـي كيفيّة التعبير عن احترامهما له.. وكانت الأميرة هي أيضًا مندهشـة من هذه الوضعية، غير أن اندهاشـها لم يكن بسبب استحالة أن يكون مطر هو السلطان، بل بسبب أنه من المحتمل أن يكون كلّ ما حكاه لها قبل قليل عبارة عن كذبةٍ ليس إلّا.

لـم تكـن رحلة العودة رحلة مريحة بالنسـبة لمطر بالرغم من أنهـا كان يجـب أن تكون كذلك.. لم يكن يفكر خلال مجيئه إلى هنا إلا في سـؤال واحـد "كيف أنقذ السـلطان؟"، لكن عقله الآن بدأ يفكر "ماذا يحدث؟" وغير ذلك من مئات الأسـئلة التي دارت فـي رأسـه وكانت تنتظـر الإجابة من قبيل: "ماذا لـو كنت أنا حقًا السـلطان؟".. أمـا هو فـكان يعرف جيـدًا من سـيجيب على هذه الأسـئلة.. وبينما كان يعد الدقائق من أجل العودة إلى القصر في أقصر وقت ممكن قال: "هل يمكن أن نسـير أسـرع؟"، فأخرجت الأميرة رأسـها من العربة وقالت: "ألم تسـمعا السـلطان؟ إنه يريد أن تسـيرا أسـرع"، وحينها تلقى مطر إجابات لبعض الأسئلة التي كانـت تـدور في رأسـه.. وبدأت العربة تسـير بسـرعة أكبر فجأة وكأن الجميـع كان يصدق أنه هو السلطان باستثناء شخص واحد، ألا وهو مطر نفسه.

بـدأت الأميرة طـوال الطريق تحكي لمطر ما عانَتْه حتى ذلك اليوم من هذه المملكة بصفتها واحدة من مواطني إحدى الممالك المجاورة.. وبينما هي تحكي قالت شيئًا أدهش مطر؛ إذ قالت:

- لا سـيما يا سـيدي السـلطان كلَّمـا تقدَّمْنا بطلـبٍ للاتِّفاق رفضَت إدارة "دولة مطر" هذا العرض في كلِّ مرّة.

- قلتِ دولة ماذا؟

- قلت "دولة مطر"! لماذا تسأل؟ هل قلت شيئًا خاطئًا؟

- لا، تابعي أرجوك.

قالهـا مطر ولـم يتذكر ماذا قالت الأميرة بعدهـا، لأنه لم يلقِ سمعه إلى أي كلمة أخرى بعدما سمـع تلك العبارة.

وصلوا إلى المدينة قبل غروب الشـمس بقليل.. وكان الناس عائديـن إلـى بيوتهـم، فرأوا عربـة السـلطان وسـعوا لمعرفة من بداخلهـا وهم ينظرون بحماس كبير، فقال بعضهم "آاااه، أليسـت هذه الأميرة "نَامَحْرَمْ سلطان" القادمة من الدولة جارتنا؟".

لكـن أحدًا لم يتعرف إلى مطر.. وعندمـا وصلوا أمام القصر انقلبت الأمور رأسًا على عقب في لحظة، فما إن خطا مطر أولى خطواتـه خارج العربة حتى حيّاه جميـع العاملين بالقصر بنظرات متعجبة ورؤوس منحنية قائلين:

- حللتَ أهلًا ونزلت سهلًا يا مولانا السلطان!

وعندما بدأ يتوجَّه نحو باب الدخول شاهد العمال الذين كانوا يحاولون إنزال اللافتة من على الباب، لكنهم لم يلاحِظوا وصولَه، فاقترب منهم بسرعة وأمرهم بلغة غاية في الجدّيّة:

- اتركوا إنزال هذه اللافتة فورًا، بل إنني أريد أن آراها لامعة متلألئةً عندما آتي إلى هنا في المرة المقبلة..

فسقط بعضُ العُمال من على السلم وقال من بقوا فوقه في نَفَس واحد:

- أمرك يا سيدي السلطان!

قال مطر مخاطبًا أحد الجنود الذين كانوا ينتظرون في وضعية الاستعداد إلى الأمام منه:

- اصطحبني إلى القاعة الكبيرة فورًا!

وبعدها سار مع الجندي حتى وصل إلى القاعة الكبيرة مرورًا بالممرات المتعرّجة التي التصقَ بالجدارِ منها كلَّ مَنْ رآه وهو يمرُّ احترامًا له..

وبينما هَمَّ الموظف المسؤول لإبلاغ من بداخل القاعة بوصوله، أمره بأن يسكت، فعم الصمتُ المكان.. فتحَ مطر الباب ببطءٍ ثم وقف خلف الجنود الذين ينتظرون خلف الباب مباشرة دون أن يلاحظه أحد.. كان في مقدمة الجنود يقف قائد يشرح شيئًا للسيد نفس:

obeikandl.com

- لقد نقلنا قافلة الطعام إلى المدينة أمس كما أمرت يا سيدي.. هناك الكثير من الطعام و٢١ رجلًا و٦ نساء، ٤ منهن شابات، و٧٢ جَملًا.. فبماذا تأمرنا؟

- يبدو أنك لم تسمع عبارتنا التي قلنا فيها (ما يأتي بالشهوة يذهب بالشهوة).. إذًا، كل ما قلته هو غنيمة لكم.. لكن هاتين المرأتين العجوزتين لن تنفعاكم، ولهذا ضموهما إلى الإماء الموجودات هنا.

- هل لك أمر آخر يا سيدي؟

- أبلغْ "القائدَ غضب" أن يُرسل بعضًا من جنودِه ليأخُذُوا هؤلاء الأسرى.

ثم التفتَ السيد نفْس إلى الأسرى وقال لهم:

- لم نستطع إنزال هذه اللافتة بسببكم.. ومن أين أتيتم بهذا العجوز ليكون لكم معينًا؟ لقد جنيتم عليه هو الآخر..

وفي تلك الأثناء أمال مطر جسده من بين الجنود ونظر بشغف إلى الأسرى ثم قال:

- هيا بسم الله!

وبدأ يسير نحو السيد نفْس.

obeikandl.com

إما النجاح أو الموت

لم يكن هناك أي صوت في المكان، فالجميع كانوا يشاهدون السلطان وأعينهم مفتوحة محملقةٌ، وأما مطر فقد فعل أفضل شيء يمكن أن يقوم به في مثل هذا الموقف: جلس على العرش الخالي الذي يُعتَبَرُ رمزَ القوة دون أن ينبسَ ببنتِ شفة.. وبهذه الطريقة من المفترض أن يرى بوضوحٍ من سيُطيعُه ومن سيعصيه.

كان الوضع أفضل مما فكر به.. بدأ جميع أركان القصر، وفي مقدمتهم "السيد ضمير" والخادم، بالوصول إلى حضرة السلطان والتعبير تواليًا عن ولائهم له، فيما كان السيد نفس هو آخر من بقي في قائمة أركان القصر.. لكنه وصل إلى حضرة السلطان في النهاية بالرغم من أنه كان واضحًا عليه عدم الرغبة في الحضور، وسلّم على السلطان.. لم يكن مطر يتكلَّم، وحتى لو تكلم لما كان لكلامه تأثيرٌ بقدر التأثير الذي أحدثه بِصَمْتِهِ، فكان جلوسه الصامت على العرش ينشر الخوفَ في قلوب الجميع الذين كانوا ينتظرون بحماس كبير سماع كلماته الأولى بعد عودته.. ولأنه هو كذلك لاحظ هذا فلم يكن يرغب في أن يقول شيئًا خاطئًا فيفسد هذه الأجواء المثيرة.. وعندما وقف كل شخص في مكانه وَصَوبوا أعينهم نحوه دون أن يحركوا ساكنًا أدرك أنه حان

وقـت الحديث.. لم تكن السـلطنة من مهام مطـر اليوميّة، أو أنها كانت من مهامه لكن دون أن يدرك ذلك.. وكانت أولى كلماته:

- لقد أُعلنت الأحكام العرفية في "دولة مطر" اعتبارًا من هذه اللحظـة، وحتى تعـود الأوضاع إلى طبيعتها لـن يتمتـع أي أحد، بمن فيهم الوزير الأكبر السـيد نفْـس، بصلاحيات من قبيل اتخاذ القـرارات أو إصـدار الأوامر.. فكل القـرارات والأوامر لا بد أن أطلـع عليها بنفسـي وأختمها بختمي.. يا سيد ضمير، لقد عينّتك رقيبًا خلال هذه الفترة على السـيد نفْس.. وأنت يا سيد عقل فلن تعمل مـع أحد غيري.. وأما أنت أيها القائد شهوة! فلا فرق بينك وبين السـيد نفْس، وهذا يتضح من تقسـيمك الأسرى من النساء اللائـي تحدثت عنهن قبل قليل إلى شـابات وعجائز. وليكن في علمـك أنـك إذا أقدمـت أو حتـى أحد مـن جنودك علـى خطوة بدون أمري فسـأنفيك أنت وجيشـك كله إلى "صحراء الصوم".. وبالمناسـبة، أخرج كل الخمور وطاولات القمار والنساء من هنا على الفور.

ثم تابـع السلطان كلامه:

- أخبرني يا سيد نفْس كم من الوقت مضى منذ أن وضعتني في السجن؟.

- تقريبًا خمسة عشر عامًا يا مولاي.

- وهل ستجرؤ على فعل شيء كهذا مرة أخرى؟

- في الحقيقة هذا شيءٌ مرتبطٌ بك يا مولاي.

عندما سمع مطر هذا الرد توقَّف للحظة، وبدلًا من أن يغضب سريعًا آثر أن يُفَكِّرَ مليًّا، وقال بينه وبين نفسه "تقريبًا خمسة عشر عامًا، هذا تقريبًا يصادف العام الذي توفي فيه جدي، وبطبيعة الحال سنوات شبابي التي تركت فيها كل عمل صالح بما في ذلك الصلاة وبدأتْ فيها غفلتي.. هذا يعني أن هذا ما كان يقصده السيد نفْس عندما قال إن عودتي إلى السجن مرتبطة بأفعالي، ولهذا فمن الخطإ أن أعنّفه.

ثم تابع:

- يا سيد ضمير! لماذا لا أرى جامعًا في مدينتنا؟

- اعذرني يا مولاي، فالوزير الأكبر أمرَ قبل سنوات بهدمِ الجامع الذي أنشأه المرحوم جدك، ولم نستطع منعه من فعل هذا.

- قبل خمسة عشر عامًا تقريبًا؟

- نعم، يا مولاي.

- بالمناسبة سأتخذ السيد خادم مساعدًا لي...

لكن كان يبدو أن أحدًا لم يفهم ما قاله مطر، فعدّل ما قاله على الفور:

- أي إنني عينته مستشاري الخاص، إن قَبل هو هذا المنصب بطبيعة الحال.

- العفو يا مولاي، هذا شرف لي.

- إذًا ليكن أول عمل تقوم به هو تفتيش غرفة "السيد نفْس"، وسأكون سعيدًا لو فتشتم مكتبه بصحبة عددٍ من الجنود.. كما أريدك أن تأخذ مفاتيح الأدراج الخاصة بمكتبه لأنك ستحتاج إليها.

لما سمع السيد نفْس هذه الكلمات اندهش كثيرًا، واضطر لتسليم مفاتيح مكتبه إلى الخادم والحمرةُ تعتري وجهه، وكان على وشكِ الخروج من القاعة لكن مطر لم يتغافل عن أول تمرد له:

- لم يُسمَح لك بمغادرة القاعة يا سيد نفْس..

قالها مطر وقد بدأ يشعر أنه صار يتحدث باللهجة التي تتماشى مع أسلوب تفكيرهم.

- أريد أن أعرف اسم عامل النظافة الذي تحدثت معه اليوم في الصباح.

- كان عاملًا عاديًّا يا مولاي.

- سألت عن اسمه، ما اسمه؟

- اسمه... اسمه "الوسواس" يا مولاي.

فصاح مطر على جنديين كانا يقفان بعيدًا:

- اذهبا فورًا وألقيا القبض على هذا "الوسواس" وألقوه في السجن.. سأحاسبه لاحقًا.. وأما أنت يا سيد نفْس! سيكون أول

عقاب لك هو أن تبني جامعًا كبيرًا بجانب القصر، وستعمل مع العمال في أثناء إتمام عملية البناء.. كما عليك أن تكون في الصف الأول في كل صلاة.

- إذًا نبدأ العمل غدًا في الصباح يا مولاي.

- لا، يجب أن تبدأ في الحال! اسمع، إني أحذرك بوضوح، لو تصرفت حسب هواك لا حسب أوامري فسأنفيك أولًا إلى "صحراء الصوم" التي لا طعام بها ولا ماء، ثم أقطع علاقتك بِرَجُليْك المخلصين النوم والراحة.. ولو لم يكفك هذا فسأعزلك عن منصب الوزير الأكبر وأجعلك عاملَ تنظيفٍ تُنَظِّفُ المراحيض، أقسم بالله أنني قادرٌ على فعلِ هذا بك!

نزل اليمين الذي أقسمه السلطان في نهاية كلامه على السيد نفْس كالصاعقة؛ إذ كان مهمًّا للغاية من حيث التعبير عن جدية الوضع.. فبطبيعة الحال لن يخالف السلطان قسمًا أقسمه أمام هذا الحشد من حاشيته!

وعقب خروج السيد نفْس ومراقبه السيد ضمير من القاعة من أجل بدء العمل، دخل الخادم وهو مفزوع وقال:

- لدي أخبار سيئة يا مولاي.

- خيرًا إن شاء الله أيها الخادم؟ لم أرك مفزوعًا إلى هذه الدرجة من قبل.

– لقد عثرت على الخطابات التي أرسلها عزازيل إلى السيد نفْس.. دعك من الخطابات القديمة، غير أن الخطاب الوارد اليوم يدفعنا لاتخاذ تدابير عاجلة.. تفضل ألق نظرة أنت أيضًا.

أعطى الخادم الخطاب إلى مطر وكان مكتوبًا به ما يلي:

" إن هذه وسوسة من عزازيل العاصي الذي لعنه الله إلى السيد نفْس،

صديقي المقرب ووزيري المستقبلي:

أتحرّق شوقًا لإنزال اللافتة المعلَّقة على باب القصر، فالتعجل من صفاتي.. ولهذا فأنا أجهّز جيشي، سنتحرك مع الغروب الثاني للشمس لنبدأ حملة هجومية لم يرَ مثلها أحد من قبل.. وبالنسبة لدورك في هذه الحملة الكبيرة فهو أنك لن تخبر إدارة القصر إطلاقًا بهذه التطورات ولن تقاوم جيشي بأي حال من الأحوال؛ إذ سيكون من المفيد لكلينا أن يحقق جنودي نصرًا سهلًا.. اعتنِ جيدًا بعرشي، ويكفي أن تحافظ عليه خاويًا ليومين آخرين فقط.. لعنة الله عليكم أجمعين!".

القائد الأعلى لجيوش الشرّ: عزازيل

لم يكن مطر قد أمضى نصف ساعة منذ جلوسه على العرش، لكنه بدأ يواجه أكبر المصاعب التي يمكن أن يواجهها أيُّ سلطان.

– بما أنه قال إنه سيهاجمنا بعد الغروب الثاني للشمس، فأمامنا ليلتان فقط، فكيف لنا أن نجهز جيشًا خلال هذه المدّة القصيرة؟

obeikandl.com

- أوصيك أولًا ألا تشرك جيش "الشهوة" في هذه المعركة لأن أفراده يمكن أن يقعوا بسهولة ضحية لألاعيب جيش عزازيل.. على أننا لو استطعنا أن نضمن ظهور كراهية "القائد غضب" ضد عزازيل وجنده سيفيدنا كثيرًا في هذه المعركة.

- وكيف سيحدث هذا برأيك؟

- إن أكثر شيء يغضب "القائد غضب" هو أن يتلاعب أحدهم بكبريائه.. فلو قلنا له إن عزازيل يراكَ تفقه شيئًا من فنون الحرب ولا يساوي شيئًا، وأنه قائد جبان، وأنه إذا ربح هذه المعركة سيعامله معاملة الأسير الذي يجعله يمسح له حذاءه، فهذا يكفي لينتفض ويهبّ للمشاركة في المعركة.

- فكرة ذكية للغاية! أين تعلمت هذه الأشياء؟

- يا مولاي هذه ليست المرة الأولى التي أعمل فيها كـ"مساعد" للحاكم..

قالها الخادم وهو يضحك ضحكة خفيفة بسبب هذه العبارة.

ثم وجّه مطر له سؤالًا آخر:

- ماذا يمكن أن نفعل غير ذلك؟

- لديك السيد عقل وهو أكثر وزرائك تأثيرًا، فلو استطعت أن توجّهه التوجيه الأمثل فسيفيدك كثيرًا طيلة هذه المعركة.. لكن عليّ القول إن كل هذا لن يكون كافيًا لمواجهة عزازيل وجنوده.

obeikandl.com

– توقعتُ ذلك، فلقد رأينا سابقًا كيف أن عزازيل وجيشه خطيرون للغاية.. فهل يخطر على بالك شيء آخر يمكن الاستعانة به للفوز بهذه المعركة؟

– بطبيعة الحال عندي المزيد من الأفكار.. لقد تركتُ الشيء الذي سيُريحك لأقوله في النهاية.. هل تتذكر "زمرة المحاربين" التابعة لـ"وحدة المجاهدين" التي تحدثْتُ معك بشأنها في أوَّلِ تعارفٍ بيننا؟

– هل تقصد أولئك الذين يواجهون العدوَّ مباشرة؟

– نعم، إنهم هم! سنحصل على بعض الدعم من "زمرة المحاربين" ليكون جيشك جاهزًا لخوض المعركة.

– وكيف سنطلب هذا الدعم؟

– يجب أن نطلِع الشعب بأسره على هذه الوضعية ونسرع من وتيرة بناء الجامع بالمدينة.. فالناس كافة سيتبعون أوامرك إن علموا خطورة الوضع وأننا لو خسرنا هذه المعركة سيتعرضون للمهانة والأسْر وسيحوّل عزازيل دولتهم إلى جهنم.. كما يجب أن يتوبوا جميعًا ويتضرعوا إلى الله في الجامع ما إن تنتهي عملية بنائه، وبعدها يثمّن "حظيرة القُدس" هذه الصلاة ليضمن لكم بها صدور أمر إلى "زمرة المحاربين".

– فهمت. إذًا، تولَّ أنت أمر جيشَي الغضب والشهوة، وأما أنا فسأتحدث إلى الشعب في أقرب وقت ممكن.

قال الخادم:

- في الواقع أنت سلطان رائع.

وكان يشعر بسعادة بالغة لتقديمه المساعدة بكل حواسه لمطر الذي خطر على باله شيء عندما سمع كلمة "سلطان" من الخادم حتى قال له ضاحكًا قبل أن يغادر القاعة:

- بِقولِكَ (أيها السلطان) أنت مَدين لي بتوضيحٍ بشأنِ السجنِ الخالي الذي ذهَبْنا إليه ولم نَجِدْ به أحدًا.

فردَّ عليه الخادم:

- سيكون أول شيء سأفعله بعد المعركة، ثم خلع الخاتم الذي كان في إصبعه وأعطاه إلى مطر وقال: "لو تكرَّمْتَ أُريد أن يكون هذا الخاتمُ هو خِتمك الخاص.

أخذ مطر الخاتم ووضعه في يده، وبينما كان ينظر إليه امتلأت عيناه بالدموع.. كان في وسط الخاتم حجر ضحم أسود مكتوب حوله كلمة مستديرة، وهي: "الخادم".

كان هذا الخاتم رمزًا لمقام أهمّ من السلطنة بالنسبة لمطر، وكان أَقْيم عنده من ذلك العرش الذي يجلس عليه، ويحمل معاني أهم من حياته وأحلامه.. فلقد صار من الآن فصاعدًا خادمًا رسميًّا بفضل هذا الخاتم الذي في إصبعه.

obeikandl.com

وتبدأ الاستعدادات للمعركة

أصدر مطر أمرًا بحشد جميع أفراد الشعب أمام القصر.. كان الوقت في منتصف الليل، ما كان مناسبًا لإضفاء صفة الأهمية على ما سيقوله السلطان.. وبينما كان الناس يتجمعون تدريجيًّا تحت جُنْح الظلام؛ سنحت لمطر فرصة التفكير مليًّا فيما سيقوله مخاطبًا شعبه.. فعلى أيّ حال سيكون هذا هو أوّلُ خِطابٍ يُلقيه أمام شعبِهِ بِصِفَتِهِ سلطانًا.. وعندما وصله نبأُ استعداد الجميع لسماع خطابه خرج إلى الشرفةِ المطلَّةِ على فناءِ القصر الواسع، وحينها انقطعَ ضجيجُ الناس لأنَّ السلطانَ سَيُلْقي خطابه:

- شعبي العزيز! أعتقد أنه لا يوجد أحد بينكم رآني قبل ذلك باستثناء أركان القصر.. أدرك أنني أهملتكم في الماضي بما فيه الكفاية، وأنا آسف على هذا.. على أن جمعي لكم في هذه الساعة المتأخِّرة ليس لأنني اشتقْتُ لكم وأريد أن أراكم، ولكن من أجل تحذيركم من خطرٍ على وشكِ الفتكِ بنا.

وحينها ارتفع صوت الضوضاء من بين جموع الشعب تابع مطر خطابه:

obeikandl.com

- سيهاجم دولَتَنا بعد حوالي يوم ونصف اليوم أكبرُ عدوٍّ يمكنُ أن نواجهه في تاريخنا على رأس جيشٍ جرّار، جيش دمّر تقريبًا كل دولة هاجمها ولم يتركها إلا بعد تجفيف جميع منابعها كما تفعل أسراب الجراد.. ونحن الهدف التالي لهذا الجيش السافل الذي لا يترك وراءه سوى الدماء والدموع والدخان.

وحينها تحولت الضوضاء بين الشعب إلى صرخات وصيحات.

ثم أكمل:

- والآن أريدكم أن تصغوا إليّ جيّدًا، لقد عُدت إليكم حديثًا، ولا أنوي المغادرة قبل أن أشعر بحبّكم في قلبي وتكون همومكم همي وأسكّن آلامكم وأمسح دموعكم.. ولهذا فإن هذا اليوم ليسَ مصيبة بالنسبة لنا، بل فرصةٌ من أجل أن نكون جسدًا واحدًا.. أُقسمُ لكم أننا سنَدْفن هذا العدو في وادي الإيمان إن نفَّذْتم ما أقوله.

فردّت عليه الجماهير في نَفس واحد كالشخص الذي أوشك على الغرق وأمسك حبلًا للنجاة مُدّ إليه:

- أمرك يا مولاي! أمرك يا مولاي! سنفعل ما تقوله لنا.

أضاف السلطان مطر:

- إذًا، سيكون أوَّل عمل تقومون به هو الانتهاء من بناء هذا الجامع الذي بدأ بناؤه في صحن القصر، على أن نجتمع كلّنا

فيه غدًا ليلًا لنطلبَ العفوَ والمغفرة على ما اقترَفْنا من ذنوب وآثام.. أقولها صراحة: لن نستطيع فعلَ أيِّ شيءٍ دون الحصول على عون الله ومددِهِ لمواجهةِ جيشٍ كهذا سيوفُهُ النارُ ونَفَسُ جيادِهِ الدخانُ وصيحاتُهُ الزلزال.. فلو قمنا بما يقع على عاتقنا فسيُمددنا الله بجندٍ من "زمرةِ المحاربين".

شعرت الجماهير بعد سماعها هذه العبارات بالراحة، ولو بعض الشيء.. في تلك الأثناء خاطبَ أحدُ أفرادِ الشعبِ السلطانَ قائلًا:

- يا مولاي! لو سمحتَ لنا نريدُ أن ندعم هذه المعركة بجيشنا.

كان قائل هذه العبارة هي "نَامَحْرَمْ سلطان" التي حوّل الجميع أنظارهم المتلهِّفة صوبها، ثم تابعت:

- إن جاركم والدي السيد صديق سيشعر بسعادة غامرة إذا ساعدكم.

وافق مطر بلطف على هذا العرض الذي جاء في وقته قائلًا:

- سنقبل بكل سرور الدعم الذي يقدمه السيد صديق.. يمكنكم الانطلاق فورًا بصحبة عشرة فرسان مسلحين، وسيكون من الأفضل أن يصل جيشكم إلى هنا بأسرع وقت ممكن؛ إذ ليس لدينا الكثير من الوقت لوضع تكتيكاتنا.

وفي تلك الأثناء كان حشد الناس قد شعر بالراحة بعدما سمعوا نبأ هذه المساعدات، وبدؤوا يُعلنون فرحتهم مهللين بقولهم:

- يحيا السلطان! يحيا السلطان!

وعندما قال مطر "هيا يا سكان دولة مطر الممتازين! لنبدأ العمل"؛ أخذ كل فرد من أفراد الشعب بالسعي لإنجاز عمله.

كان هؤلاء الناس الذين امتلأت قلوبهم بالأمل، بالرغم من تأخر الوقت والتعب الذي كانوا يشعرون به، يحملون الحجارة حينًا وينقلون الرمل حينًا ويسحبون الماء حينًا آخر.. وقد اكتمل هذا المشهد الرائع بمشاركة السلطان مطر في أعمال بناء الجامع، وكانوا وكأنهم يبنون المسجد الأول في الإسلام بالمدينة المنورة بعد الهجرة.

دنا الخادم من مطر مع بزوغ فجر اليوم التالي، وكان واضحًا أن هناك مشكلة، لكنه لم يكن يُرِد أن يحكيها له كي لا يضايقه، لكن مطر لم يتحمَّل وسأله:

- خيرًا إن شاء الله؟ لست معتادًا أن أراك قَلِقًا إلى هذا الحدّ.

- نواجه مشكلة كبيرة يا مطر.

- أخبرني بها أرجوك! ما المشكلة؟

- لن نستطيع قتال عزازيل وجنده بهذه السيوف التي معنا.. فعندما أتيت لأنقذك من عزازيل شاهدتني عندما قتلت شيطانًا من الشياطين الذين كانوا هناك، أليس كذلك؟

obeikandl.com

- نعم، كنتَ ممسكًا بسيفٍ أزرق غامق.

- لقد صُنع ذلك السيف من معدن خاص للغاية، وهو مصنوعٌ بطريقة يمكن معها أن يتحمّل حرارة السائل الذي يتدفَّق في عروق الشياطين.. وبطبيعة الحال لن نستطيع العثور عليه هنا.. غير أن بإمكاننا أن نزيد من قوَّة تَحَمُّلِ سيوفنا من خلال تغطيتِها بِنوعٍ من الجليد.

- ولكن كيف سنفعل هذا؟ أنا لا أفقه شيئًا عما تتحدث عنه.

- لستَ مجبرًا على أن تفقَهَ شيئًا بشأن هذه الأشياء، أتتذكَّرُ ما قلتُهُ لك عندما أتينا إلى هنا؟ قلتُ: إن الوزراء هم من يديرون البلاد، وأما السلاطين فهم الذين يُديرون الوزراء.. فكر قليلًا بشأن هذا الأمر إن أردت ذلك...

ثم حمل الخادم الحجر الذي كان قد تركه على الأرض ومضى في طريقه.

تسمَّر مطر في مكانه وسط آلاف البشر من شعبه وهم يتحركون في جد ونشاط كمجموعات النمل.. هل كان عليه التفكير في تغطية السيوف بالجليد أم بإدارة شؤون الوزراء؟ أم كان ينبغي له التخلّي عن عملية التفكير لصالح الوزراء؟ أوليس مهمة التفكير من ضمن مهام السيد عقل؟ فبادر فورًا إلى البحث عن السيد عقل.. كان الخادم في تلك الأثناء ينظر خلسة إلى ما يفعله مطر ويقول في نفسه ضاحكًا: "إنه يشبه جدَّهُ كثيرًا".

ما إن عثر مطر على السيد عقل حتى بادره بالحديث قائلًا:

- يا سيد عقل! أريد أن أغطّي سيوفنا بطبقة من الجليد؛ إذ يجب أن تكون باردة قدرَ المستطاع، فهل لديك فكرة لتنفيذ هذه المهمة؟

- لو تسمح لي أن أفكر لأجد طريقة لتنفيذ هذه المهمة يا مولاي.

- خذ وقتك لكن لا تتأخر، تعلم أنه ليس لدينا الكثير من الوقت.

- فورًا يا مولاي!

وبعدها مضى السيد عقلُ يعدو نحو القصر.

وبينما كان مطر يُتابع ويتفقّدُ عملَ صانعي السيوف من الحدادين إذ به يرى السيد نفس يدخل القصر بمفرده، وكان يبدو أنه لن يتنازل أبدًا عن شهواته.. فاتّبعه خلسة حتى وصل إلى السجن الواقع أسفل القصر، وما إن أمر السيد نفْس حارس السجن بإطلاق سراح "الوسواس" حتى صاح مطر بأعلى صوته:

- على رسلك أيها الحارس! دعك من فتح باب السجن واعتقل السيد نفْس فورًا!

فعل الحارس ما أمره به السلطان وأمسك الوزير الأكبر من ذراعيه.

قال له مطر:

- ماذا كنت ستفعل بإخراج "الوسواس" من السجن؟ هل كنت سترسله إلى عزازيل؟ وستُطلعه على التجهيزات التي نقوم بها؟ يبدو أنك لم تصدق الأيمان التي حلفت بها أمس.. هل تعتقد أنني لن أنفيك إلى صحراء الصوم؟ إذًا ثمة طريقة واحدة يمكن من خلالها أجعلك تصدق أنني أستطيع فعل أي شيء.. أيها الحارس! اعتقِل السيد نفْس وأحضِرْه إلى هنا.

حينها أدرك الوزير الأكبر أن السلطان لم يعد كما كان في السابق.. لكن كان لزامًا أن يكون هذا الموقف درسًا له حتى لا ينساه أبدًا.

ما إن خرج مطر حتى استدعى السيد ضمير وأصدره تعليماته إليه قائلًا:

- يا سيد ضمير! خذ السيد نفْس فورًا واتركه وسط صحراء الصوم وخذ منه جواده وعُد في الحال.

- أمرك يا مولاي!

ظنّ مطر أنه بهذا الفعل قد أعطى السيد نفْس فرصة لِيتعقّلَ، وأنه يتخلَّص في الوقت نفسه من مسألة مراقبته طيلة فترة المعركة.

كانت الشمس على وشك الغروب عندما غطّت سحب الغبار عنان السماء.. ترك كل شخص ما كان يفعله وبدأ يفكر في كيف سينجو من هذا الهجوم المفاجئ، إلى أن صاح فيهم مطر وهو موقنٌ بإيمانه:

- لا يقلق أحد! تابعوا أعمالكم.

كانت سحابة الغبار كبيرة بدرجة كافية لإطْلاع الجميع على ضخامة الجيش القادم.. وبينما قال مطر: "لا بد أن يكون هذا هو جيش السيد "صَدِيق" سلطان المملكة المجاورة"؛ إذ به يرى شخصًا يبدو من لباسه أنه هو السلطان ضمن مجموعة صغيرة تتقدّم الجيش، وحينها شعر براحة كبيرة، وكان يبدو أن الذي تسير بجواره هي "نَامَحْرَمْ سلطان".. فتقدّم مطرُ في الحال نحو بوّابة المدينة واستقبل بنفسه جيرانه القادمين لمساندته، ثم رافقهم إلى أن وصلوا إلى القصر بصحبة الخدم ليأخذوا قسطًا من الراحة.. وفي تلك الأثناء جاءه السيد عقل وقال متعجّلًا:

- لقد وجدتها يا مولاي!

ثم كان على وشك الخروج، فشعر الضيوف هم كذلك بالشغف لمعرفة عن ماذا يتحدث.

- يسعدني أن ترافقوني إلى المعمل.

وبالفعل رافقوه إلى المعمل ليروا سائلًا أزرق يخرج منه بخار ما إن سكبه على قطعة من الحديد حتى سمعوا صوتَ فرقعةٍ إلى أن غطّاه الجليد، وما إن غطى الجليد الحديد حتى التَصقَتْ يدُ السيد عقل به بسبب حماسته الزائدة، فحاول فكَّ الحديد عن يده وما نجح إلا بصعوبة بالغة، وحينها أخذ مطر يشرح باختصار للسلطان "صديق" ما يحدث.. كانت نظرات الضيوف المندهشة

لا تـزال مصوَّبـة نحـو الحديد الذي غطاه الجليد وهو بيد السـيد عقل.. وبعدها انتقلوا إلى غرفهم لينالوا قسطًا من الراحة.

بينما كان مطر على وشـك الخروج من الممرات التي كانت كالمتاهة بعدما عرف خباياها خلال فترة قصيرة، تسمّر في مكانه عندمـا سـمـع صوتًا، وكان قد اشـتاق إلى سـماع ذلـك الصوت كثيرًا:

"الله أكبر الله أكبر"... لقد استحق سماع هذا الصوت أن يبذل كل هـذا الجهـد المضني.. هبّ إلى الخارج وهـو متحمس.. لم تكـن جدران الجامـع قد ارتفعت عن الأرض إلا بمسـتوى طول إنسـان عادي، فصعد أحدهم فوق سطحه وبدأ يؤذن لينهي بذلك الغفلة التي كانت بداخل مطر واستمرت لخمسة عشر عامًا، وكأن نور عبارة "الله أكبر" يبدّد ظلمة الليل الحالك.

لـن ينسـى مطر أبـدًا صلاة المغرب هـذه التـي أمّ فيها آلافَ المصليـن.. ألـم يكن كل شـيء من أجل هذه اللحظـة؟! فما كان معنى كل ما حدث سوى أن يكون باستطاعته أن يقول:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؟ كان وكأن كلّ شيءٍ قد انتهى في تلك اللحظة التي كانت تُعبّر عن عبودية كلِّ فردٍ من أفراد مملكة مطر، كانت تلك اللحظة وكأنها نهايةُ كلِّ شـيءٍ، لأنها كانت هي الهدف من كلّ شيءٍ، أو العكس تمامًا، أي إنّ كلّ شيء كان يبدأُ في تلك اللحظة، كان يبدأُ بمواجهة عدوِّهم لأنهم أعلنوا عبوديّتهم لله.. بالضبـط كما حدث مـع سـيدنا آدم وهابيل ونبي الله إبراهيم

وأسـرته.. فلأنهم قالوا: "إياك نعبد وإياك نسـتعين"، صاروا على مقربة من مواجهة أقوى الأعداء وأكثرهم شـرًّا وسفالةً.. لكن الله ﷻ، الذي يسـجدون له في هذه اللحظة، يقول في كتابه الحكيم: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَـارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّـيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۞ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلا﴾.

لقـد مرَّ مطـر في صلاة المغرب ذلك اليوم مـرّة ثانية بكل ما مـرَّ بـه طيلـة الرحلة التـي بدأها مـع الخـادم، وكأنه يرى شـريطًا يسترجـعُ أحداثَ الماضي.. كان العدوُّ هو العدوُّ نفسه، لكن كان من يواجهُه ليس سـيدنا إبراهيم أو زوجتُه هاجر أو ابنه إسـماعيل ﷺ، بـل إنـه "مطر" هـذه المرة، وفي صـفِّ مطـر ربُّ العزّة جل جلالـه الذي لم يتغير أبدًا وكان دائمًا وأبدًا وكيلًا لأوليائه.. ومن كان الجبَّارُ معه فأنى له الخوف من الحقير عزازيل وجنده؟!

أتـمّ جيش مطر جميـع اسـتعداداته لمواجهة العدوّ في صلاة المغـرب ذلـك اليوم.. وبعد أن دعـوا وتضرَّعوا وأعلنـوا توبتَهم وأوبتهم عقب صلاة العشاء، بدؤوا جميعًا ينتظرون بزوغ الفجر.

متى نصر اللَّه؟

بعد أن تولى مطر منصبي السلطنة والإمامة لشعبه في اليومين الأخيرين؛ حان الوقتُ لِيُضيفَ إلى ذلك منصبَ القيادة؛ إذ قادَ الجيشَ وزحفَ به نحو "وادي الإيمان" بعدما صلوا صلاة الصبح.. وكانت المعلومات التي زوّدهم بها أسيرهم "الوسواس" تفيدُ بأن عزازيل وجنوده سيهاجمون من هذا الاتجاه.. كان مطر ينظر خلفه بين الحين والآخر ليتأكد من أن كل شيء على ما يرام.. كما كان هناك شيء آخر يشغلُ تفكيره، ألا وهو متى سيأتي جنود "وحدة المحاربين" لمساندة جيشه..

كان الخادم يمتطي جوادًا أبيض ويسير بجانب مطر، وعلى جانبه الآخر يسير السلطان "صديق"، سلطان المملكة المجاورة، ويسير خلفهم كلٌّ من "السيد عقل" و"السيد ضمير" و"القائد غضب" وسائر أركان القصر.. وكان الجناحُ الأيمن للجيش يتشكَّل من جنود "القائد غضب"، وأما الجناحُ الأيسرُ فيتكوَّن من جنود السلطان صديق.. وأما وسط الجيش الذي كان من المفترض أن يُشكِّل القوَّة الأساسية، فكان فارغًا؛ إذ كان مطر يتحرك على رأسِ جيشه لِيُظهِر إيمانه بمدد الله، وليعبّر عن استسلامه وخضوعه له تعالى ليسَ إلا.

وكان الجميع منزعِجًا من هذه الوضعية؛ متسائلين كيف نتحرّك بهذا الجيشِ الضعيف!! باستثناء الخادم والسيد ضمير؛ إذ كانا يؤمنان إيمانًا جازمًا بأن الله سيكون وكيلًا لهم في هذه المعركة.

ومع سطوع أشعة الشمس الأولى نظر مطر إلى وادي الإيمان فرأى جيشه المنظم والذي يجهلُ حجم القوةِ التي سيواجهها، لكنه على الأقلّ لن يتراجع أبدًا مهما كانت الظروف.. وقد لاحظَ أن الانتظارَ الصامتَ -دون مددٍ ولا مواجهةٍ على الأقل- أدَّى إلى حدوثِ حالةٍ من التوتُّرِ بين الجنود، فخاطبهم بُغيةَ تسكينِهم:

- أيها الجنود! سيلتقي اليوم جيشان وجهًا لوجه في هذا الميدان، أحدهما سيقاتلُ من أجل الشرفِ والحرّيّة والإيمانِ والنصر، والآخرُ سيُقاتِلُ في سبيل الكفر والغرور واللعنة والهزيمة.. فحتى هذه الشمس التي تَرَونها قد أشرقت لتشاهد المعركةَ التي ستدور رحاها بين الإيمان والكفر.. ومع أنها -أي الشمس- شهدت العديد من المعارك على مرّ الزمان بين النمرودِ ونبي الله إبراهيم وفرعون ورسول الله موسى وقريش وسيدنا محمد ﷺ، وعرفت الكثير من الأبطال أمثال حمزة وخالد وعليّ وعمر وصلاح الدين والسلطان الفاتح، لكنها أتت اليوم لتشاهِدَ ملحمةً جديدةً وتتعرّف إلى أبطال جدد.. أقسم لكم أن هذه الشمس لن تغادر وادي الإيمان هذا بحلول المساء إلا وهي مرفوعة الرأس! ولن تغرب قبل أن تشاهد الملحمة التي تنتظرها وتتعرّف إلى الشجعان الذين سيُدوِّنون أسماءَهم بأحرف من ذهبٍ في تاريخ البشرية!

تحمَّس جميع أفراد الجيش وبدؤوا يُردِّدون "الله أكبر!" في جميع أرجاءِ وادي الإيمان إلى أن رأَوا سوادًا يُشبه الدخان، أكثر ممّا يُشبِهُ سحابةً رمليّة، يقترب منهم بسرعةٍ كبيرة.. ومع تحرُّكِ "القائد غضب" و"السلطان صديق" فورًا ليترأَّسا قواتهما؛ سمعَ الجميعُ صدورَ أمرِ سَكْبِ السائلِ الخاصّ الذي أعدّه السيد عقل على السيوف، فبدأَ الجنودُ يُشاهدون باندهاشٍ كبير كيف أن الجليد يُغطِّي سيوفهم خلال ثوان، وحينها اقتربَ مطر من الخادم وخاطبه:

- متى نصر الله!؟

فأجابه الخادم:

- أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ!

لقد أراحَ هذا الردُّ مطر كثيرًا لدرجة أنه بدأ -دون تردّدٍ- يعدو بجواده بأقصى سرعة ممكنة.. في البداية لم يفهم الجنود ماذا يحدث، لكنهم عندما رأوا قائدهم ينطلق بجواده نحو العدو بمفردِهِ؛ أطلقوا لِخيلِهم العنان وانطلقوا خلفه مكبّرين.. لقد ساهمت هذه الحركة المفاجئة في إفهامِ العدوّ حقيقة لم يكن يتوقّعها أبدًا، ألا وهي أنه ليس أمام دولةٍ يُتوقّعُ منها الاستسلام أبدًا، بل إنه يواجهُ جيشًا عزم على مطاردةِ عدوِّه حتى جهنم.

كان عزازيل يضع خططه للاستيلاء على العرش الذي كان يعتقد أن بإمكانه الجلوس عليه خلال نصف ساعة كحدٍّ أقصى، إلا أنه بدأ يشعر بالحيرة إزاء ما سيفعله عندما واجه جنودًا يغيرون

obeikandl.com

على قواته بشجاعة وسرعة خاطفة وهم يحملون سيوفهم.. ولو كان الأمرُ على مزاج الشياطين لكانوا يريدون حتى ألا يحملوا سيوفهم كيلا تكون حملًا عليهم، لكن الاستيلاء على هذه الدولة دون القتال بالسيف صارَ دربًا من الخيال.. وما كان بإمكانهم فعله سوى إشهار سيوفهم النارية، إلا أنهم وجدوا أنفسهم في لحظة يواجهون أبطالًا شجعانًا وجهًا لوجه.

وقع الصِّدام الأول مع العدو بالقتال بالسيوف الباردة كالجليد، وحاول مطر تخطِّي جميع الشياطين الذين برزوا أمامه للوصول إلى عزازيل الذي يعرفه سابقًا، فيما ظل الخادم بجواره باستمرار، كما أنه سعى لحمايته، وكان هو أول من ذاق الألم غير المحتمل الذي تسبَّبَتْ به السيوف النارية التي يحملها الشياطين.. وعندما رأى أربعة شياطين يحاولون الهجوم في اللحظة نفسها على مطر للقضاء عليه؛ ألقى نفسه أمامه ليفتديه، وفيما أخذ يُقاتل اثنين منهم؛ لم يستطع أن يواجه الاثنين الآخرين إلا بالدفاع عن مطر وكأنه درع له.

بدأ غياب الجناح الأوسط في الجيش يؤثر بالسلب في سير المعركة.. وكان "القائد غضب" و"السلطان صديق" يحاولان، بدعم من قواتهما، الضغط على العدو من ناحية الجناحين، غير أن قوات العدو نجحت بسهولة في الإفلات من قواتهما التي حاولت إحكامَ الكماشة عليهم، وبدأت تقترب شيئًا فشيئًا إلى الجناح الأوسط للجيش الذي لم يكن به قوات.. وفي الوقت الذي بدأت فيه الحيرة تتسلل إلى قلب مطر وهو برفقته فقط

مجموعة من البواسل من مساعديه المقربين؛ اضطرَّ السلطانُ صديق لسؤاله بصوتٍ حاول إسماعه له:

- أين المساعدات الإضافية يا سلطان مطر؟

كان سلطان المملكة المجاورة يسأل سؤالًا لا يعرف أحد إجابته، ذلك أنه بدأ يفقد جنوده في المعركة بمرور الوقت. وفي هذه اللحظة، ظهرت سحابة غبار قادمة من جهة المدينة، فساور الأمل الجميع من جديد.

بدأ مطر يصيح على جنوده "الدعم قادم! اصمدوا أيها الأبطال!"، وكان يحاول حماية الخادم، الذي أصيب في المعركة، أكثر من تطلعه للوصول إلى عزازيل. وأما أفضل ما في الأمر فهو أن الدعم القادم بدأ يرسم البسمة على وجوه جميع المشاركين في المعركة.

كان السيد ضمير يحمي مطر من الخلف من جهة، ومن جهة ثانية يحاول التعرف إلى وحدة الدعم القادمة من خلال النظر نحوها بطرف عينيه. وفي الواقع، كان هو أول من قطّب حاجبيه بين أفراد الجيش، ذلك أن القادم كان السيد نفس والقائد شهوة وقواتهما. ولو لم يكن يعرف السيد نفس جيدًا لكان اعتقد أنه قادم لتقديم المساعدة، لكنه لم يكن حتى يحتمل حدوث هذا أبدًا. فما وجد أمامه إلا أن يصيح بأعلى صوته لتحذير الجميع في اللحظة نفسها.

- العدو خلفنا! العدو خلفنا!

وما إن نظر مجموعة من الجنود خلفهم حتى انهاروا لما رأوا، إذ فوجؤوا بجيش آخر يزحف نحوهم لقتالهم من الخلف، بالإضافة إلى جيش عزازيل الذي كان يتصارع معهم من الأمام، فأدركوا أنهم تعرضوا للخيانة وصاروا بين شقّي الرحى وفكَّي الكمّاشة.

بدأت قوى مطر كذلك تخور بمرور الوقت، فهو لم يترك الجبهة الوسطى للجيش ليشغلها هؤلاء الخونة.. وبغضِّ النظر عن مواجهة عدوٍّ يتفوق عليهم بأضعافٍ مضاعفة من ناحية القوة، وعلاوةً على الهجوم عليه بجوادِهِ بمفرده والدخول في معركة مع عدد من الشياطين في اللحظة نفسها؛ فإنه أسدل يديْه إلى جنبيه عندما رأى وزيره الأكبر يقترب منه وهو يحمل سيفه بغرض القضاء عليه.. وعندما رآه الخادم على هذا الحال همسَ بصوتِهِ الضعيف الذي خرج بصعوبة وكأنه يعلِّم تلميذَه الحبيبَ النجيبَ آخر شيءٍ في حياته قائلًا:

- "إن مدخل هذا الباب من الداخل، إياك أن تسمح لهم بالدخول من هذا الباب!.

لم يفهم مطر للحظة ما قاله الخادم، لكنه تذكَّر أول مرة رأى فيها هذه العبارة.. كانت مكتوبة أسفل عبارة ثانية عند مدخل القصر.. وكانت عبارة ضحَّى في سبيلها الكثير من البشر بكل ما يملكون، عبارة هَدَمَت من صروحِ الظالمين وقِلاعِ الطغاة ما لا يُحصى عدده، عبارة جعلت قائليها يُرافقون النبي محمد ﷺ:

"لا إله إلا الله محمد رسول الله!".

بدأ مطر يصيح بهذه العبارة المباركة بأعلى صوته لِيُرَدِّدها خلفه جميعُ أفراد جيشه، وكأنه يقودُ جيشه وفق خطّة معدّةٍ مسبقًا، لدرجة أن الشياطين كافة بدؤوا البحث عن مكان يتوارون فيه هربًا من هذه العبارة.. كان الزمان وكأنه توقَّف مع هذا الصوت الذي بدأ يتردَّد صداه في وادي الإيمان، والمكان وكأنه قد تلاشى، والحياة وكأنها قد انتهت حتى عادت مرة أخرى مع صوت "الله أكبر! الله أكبر!".

كان ثمة شخص يكبِّر أمام الجيش الذي جاء بالنور المبين ليمحو الظلمة التي أتى بها عزازيل وجنده، وكان هذا الشخص مألوفًا بالنسبة لمطر، ومَن سيكون سوى سيدنا إبراهيم عليه السلام الذي كان يقود جيشًا من الملائكة؟ إنه يُعتبَر المنافس الوحيد الذي لم يستطع عزازيل الانتصار عليه.. وبحلول اللحظة التي انتظرَها الخادم، الذي دفع تلميذه الوحيد للوصول إلى هذه المرحلة، بدأ يقول: "لا إله إلا الله والله أكبر!"، وكأنه يستقبل نبي الله إبراهيم.. كان مطر قد أقنع الكثير من شعبه الذي وثق به بالخروج لمواجهة عدو قوي بوعدهم بقدوم المساعدة من الله، والآن ها هو يُعبِّر عن شكره بهذه العبارة المكمِّلة "الله أكبر ولله الحمد!".

شرع سيدنا إبراهيم عليه السلام وجيشه في شقّ صفوف جيشِ العدوِّ باستخدام السيوف المصنوعة من نور، وأما مطر وجيشُهُ فقد استغلّوا فرصة صدّ هجوم الخونة الذين هاجموهم من خلفهم

ليأسروا السيد نفْس والقائد شهوة.. وعندما عادوا لم يجدوا سوى آلاف الشياطين الذين لقوا حتفهم، منهم قِلّة كانوا ينازعون الموت ويلفظون أنفاسهم الأخيرة.. ولم يكن هناك أيُّ أثر لسيدنا إبراهيم أو عزازيل.. فبدأ الجيشُ يُكبِّر في فرحةٍ عارمة، وبينما كان مطر لا يزال ينظر إلى الأفق بعينيه الحائرتين، كان يُحاوِلُ فهمَ ماذا حدث خلال تلك الثواني المعدودة.

obeikandl.com

ماذا حدث في الواقع؟

بفيضٍ من السعادة والسرور استقبلَ جميعُ سكّان المدينة الجيشَ العائدَ بالانتصار، وبدؤوا يعودون إلى منازلهم بعد يومين من العمل الشاق وقلوبهم ملأى بالطمأنينة.. لكن الراحة صارت حلمًا بالنسبة للسلطان مطر؛ إذ بدأ يُفكر فيما سيفعله.. وكان السيد نفْس على وجه الخصوص يأتي على رأس القضايا التي شغلت ذهنه.

لقد استطاع الجلوس وجهًا لوجه بمفرده مع الخادم للمرة الأولى منذ أيام، وكان يجب أن يوضح كلّ شيء.. كان مطر هو من بدأ الحديث بقوله:

- ما رأيك في أن نبدأ بما يحدث في "كهف الغفلة"؟

عندما وجد الخادم نفسه فجأة أمام سؤال كهذا آثر شرح كل شيء من البداية:

- أعتقد أن بإمكانك أنت أيضًا فهْمَ ما حدث بعض الشيء.. إنك أنت سلطان هذه المملكة أساسًا، وكانت أول فترة من فراغ عرش السلطنة الذي حدّثتُك عنه هي فترة أربعة أشهر قضيتَها في بطن أمك. ثم ما إن نزلتَ إلى رَحِمها كان الوزير الأكبر السيد نفْس هو أولى خلاياك التي بدأت تتشكل، ثم تشكلت الخلايا التي كانت بمثابة مواطني هذه المملكة.. ولقد اعترفتْ

كل خلية من خلاياك بالسيد نفْس وخضعت له على مدار الأربعة أشهر هذه حتى إرسالك إلى هذه المملكة "روحًا".. وما كان سيجعلك سلطانًا على هذه المملكة سوى السيطرة على السيد نفس وإدارتها، ولهذا كُلِّف السيد ضمير بأن يساعدك في هذه المهمة، وكان عمله دائمًا قول الحق بإلهام يأتيه من الملائكة.. وبعد مرور أعوام جاءك مساعد آخر، ألا وهو السيد عقل، كنتَ حينها تبلغ تقريبًا اثنى عشر عامًا، وكانت مهمّته هي التفريق بين الأشياء الصحيحة والخاطئة التي يريد السيد نفْس تطبيقها في البلد.. وكان من المفترض أن يساعدك القائدان "الشهوة" و"الغضب" بجيشيهما كي تلبّي احتياجات رعيّتك وتستطيع حمايتهم ضدّ المخاطر.

شارك مطر في الحوار بقوله:

- كلّ شيء يبدو أنه يسير على ما يرام إلى الآن.

لكن الخادم لم يوافقه الرأي؛ إذ قال:

- في الواقع لا يُعتبر كذلك، فـ"السيد نفْس" أطلق مجموعة من الأنشطة على حسب هواه؛ إذ لم يتورّع عن استغلال منصبه من أجل الحصول على ما ترنو إليه نفسه، كما بدأ ينزعج من بعض أوامرك بين الحين والآخر.. فعلى سبيل المثال طلبتَ منه أن يصلي، بيد أنه يكره الصلاة.. طلبتَ منه أن يصوم، بيد أن الجوع والعطش يُذهبان متعته.. حرّمتَ عليه لعب القمار الذي يُعتبر واحدًا من أفضل وسائل الترفيه بالنسبة إليه إلى أن انطفأت

لديه شعلة الحياة.. حرّمتَ عليه الزنا ومنعته من ممارسة رغبته بالتقرب إلى الجنس الآخر.. حرّمتَ عليه الكذب والغيبة والنميمة والسبّ، فلم تعُد لديه كلمة ليقولها.. حرّمتَ عليه الحسد والكبر والغضب والظلم، فكانت ضربةً قاصمة له.. باختصار، إنك حاولتَ تحريم كلِّ رغباته وإضفاء الصبغة الشرعية على كلّ ما يكرهه، ما دفعه لتحريض القائدَين "غضب" و"شهوة" ضدك.

تابع الخادم كلامه بقوله:

- ثم بعد أن ظهر "الوسواس"، هذا المبعوث من قِبل عزازيل، وبدأ يأتي إليك ببعض الوساوس، بدأت الأمور تسوء.. ذلك أن عزازيل كان يَعِده بكل ما يريد لكن شريطةَ تحقيق أمر واحد، ألا وهو: "تخلَّص من "السلطان روح"، وأجلِسْني على عرشه، وانظر كيف ستعيشُ حياة على حسب هواك!

لقد تعلَّم من عزازيل على الدوام كيف يدير السيد ضمير ويجعل السيد عقل يعمل لحسابه، والأسوأ من ذلك أنه تعلَّم منه كيف يضعك على الطريق الموصل إلى السجن دون أن يُشعرك بشيء.. وأما أنت فلقد انخدعتَ بهذه اللعبة، وكانت صداقة السوء التي جمعتك بـ"النوم" و"الراحة" قد ساهمَت في وضعِكَ على الطريقِ الموصل إلى السجن الموجود في "كهف الغفلة".

كان هذا السيناريو اعتياديًّا بالنسبة لعزازيل، لكنه كان بالنسبة لك مختلفًا تمامًا.. فهو كان يوقع الكثير من السلاطين في الفخّ نفسه بواسطة كبراء الوزراء، منهم من سُجن في "كهف الغفلة"،

ومنهم من نُفي إلى "وادي القمار"، ومنهم من كُبّل في "مستنقع الزنا".. وما كان من عزازيل إلا أن جلس على عروشهم الخاوية.

- أنت على حقّ، فلقد تركت الكثير من أصدقائي بينما كنت أعبر المستنقعات والجبال التي تحدثْتَ عنها، ورأيتهم بها.. والحمد لله أنك أنقذتَني من كهفِ الغفلة.. الآن تذكَّرْت شيئًا، عندما سألتُ السيد نفْس عما إذا كان سيتجرّأ على فعل شيءٍ كهذا في المستقبل أم لا؛ أجابني قائلًا: "هذا شيءٌ مرتبطٌ بك يا مولاي"، أي إن هذا الخطر سيبقى دائمًا، فكيف لي أن أتخلّص من السيد نفْس؟

سأل مطر هذا السؤال وهو لا يزال يفكر في إعدام السيد نفْس، فأجابه الخادم وكأنه فهم ماذا يدور بخلد تلميذه:

- لقد قلتُ لك هذا من قبل يا مطر، لن تربحَ شيئًا إذا قتلت السيد نفْس.. وهذا أساسًا مخالفٌ لقواعد اللعبة.. ولماذا تقتله أصلًا؟ هل تريد قتله لتتحمل كل مسؤوليّاته على عاتقك؟ إنه يتمتع بالكثير من المميزات الرائعة أكثر مما تعتقد.

دُهش مطر حقًّا بما سمعه وقال:

- لا، لا أُفَكِّرُ في شيء كهذا، سامحني! ما أريدُ قوله هو أنني لم يكن يخطر ببالي أن السيد نفْس له أيّ مميزات تُذْكَر.

وكانت الدهشة واضحةً على مطر من كلامه.

- مـن الطبيعـي أن تندهـش لهـذه الدرجة؛ إذ إنك لـم ترَ أيَّ ميزة للسـيد نفْس حتى الآن.. لكن هذا ذو صلة -بعضَ الشـيء- بالزاويـة التـي تنظر منها إليه.. فماذا لو فكَّـرت كالتالي: لو صمّم السـيد نفْس على فعل شيء فإنه يفعله لا محالة.. لن تصادف في حياتـك مخلوقًا أكثر منه عنادًا وإصرارًا وعزيمة.. وأما المشـكلة فتكمنُ في طلبه لأشـياء تتسـبَّبُ في شـعوره هو الآخر بالندم في النهايـة، وهـو في ذلك يُشـبه الطفلَ، فالأطفالُ يرغبـون دائمًا في أشـياء تكـون مُضِـرّةً لهم، لكـن لا يوجـد أيُّ أبٍ أو أمّ يقتل ابنه بسبب هذا.. إذًا، ما عليك فعله أنت أيضًا هو أن تُربّي السيد نفْس لا أن تُعْدِمَهُ.

- لكنّـك تعـرف أنني أنفيه إلى "صحراء الصـوم" وأنه يهربُ منها، فماذا يُمْكِنُني أن أفعلَ غير ذلك؟

- لـو قطعت عنه الراحةَ ووفرةَ الملهيات فجأةً فإنك تُسـاهم في تمرّده.. بيد أن ما على الإنسان فعله في مثل هذه الحالات هو التدريـج، أي التقـدّم خطوةً خطوةً.. فبدلًا من أن تنفيه في البداية إلى صحراء الصوم كان بإمكانك أن تبدأَ من خلال إدخالِ بعض التغييـرات على طاولة الولائم اليوميّـة.. فلو أن هذه الولائم تُقامُ سـتَّ مرّات في اليوم وتكون مليئةً بشتّى أنواع الطعام، فما عليك فعله في البداية هو تقليل أصناف هذه الأطعمة، ثم بعد ذلك تأتي مرحلـةُ تقليلِ أصناف الطعام.. فلـو اتّبعت هذه الطريقة تكون قد ألزمتَه نظامًا محدّدًا دون أن تُساهم في تمرّده.. الأمر نفسه ينطبق علـى موضوعِ النوم.. فبعد أن نام لسـنوات لمدة عشـر سـاعات

يوميًّا على أَسرّة من ريشِ النعام؛ يُمكنك ضبطُ معدَّلِ نومِهِ بتقليلِ ساعاتِهِ تدريجيًّا.. وبعد أن يتعود بمرور الوقت على العيش وفق البرنامج الذي وضعته له، سيتعوَّد بعد فترةٍ وجيزة على العيش بالقواعد التي حددتها له.. وسأشرحُ لك بالتفصيل مسألةَ الأكل والنوم هذه لاحقًا.. والآن علينا إنجاز هذه الأمور المهمة لنمشي من هنا.

- وما هذه الأمور؟

- ثمة شيء مهم للغاية كان سببًا في أن يعصيك السيد نفْس، ألا وهو المصدر الذي يغذيه.. فعندما أتيت معك إلى المدينة أول مرة لا بد أنك شاهدتَ الخمسة أنهار الكبرى التي تصب في البحيرة الواقعة مباشرة خلف القصر.. فجميع سكان المدينة، بمن فيهم السيد نفْس، يشربون من مياه هذه البحيرة ويتغذَّون على الحيوانات والنباتات التي تستفيد -بدورها- من مياهها.. وهذه الأنهار هي: "نهر العين"، "نهر اللسان"، "نهر الأذن"، "نهر المعدة"، "نهر اليد والرِّجل".

ثم أضاف الخادم:

- لقد نجحَ عزازيل تدريجيًّا في إمراض جميع سكان المدينة من خلال المواد السامة التي خلطَها لسنواتٍ بمياه تلك الأنهار.. ولهذا فلا تجدُ أحدًا منهم يُفكِّرُ بطريقة سليمة، ولا يتّخذ قرارات صائبة، ولا يستطيع التفريقَ بين ما هو جيّد وما هو سيّئ بالنسبة لهم.. فكيف تدخل الخمور المدينة بكثرة ودون مراقبة؟

وتابع:

- فأوَّلُ شيءٍ علينا فعله هو بناءُ محطّة تنقيةٍ بجوارِ البُحيرةِ مباشرةً، وسيكونُ اسمُ هذه المحطّة هو "محطّة التوبة للتنقية"، على ألّا نستَخْدِمَ أيَّ شيءٍ قادم من الخارج دون أن يُنقَّى في تلك المحطة.. والخطوة الثانية ستكون تكليف الجنود الذين دربّهم السيد ضمير تدريبًا خاصًّا بحراسة منابع هذه الأنهار الخمسة بالوقوف بالتناوب على كل عشرة أمتار، على ألا يسمحوا بأن يلقى في هذه الأنهار أيُّ برميل مطبوع عليه اسم "شركة الذنوب المساهمة".. وبطبيعة الحال مع كلّ هذا فأنت خادم، فهناك أشياء يجب عليك فعلها وعدم إهمالها في العالم الخارجي، وهذا هو السبب الذي دفعني لأقول لك إن علينا الذهاب بأسرع ما يمكن.

كان مطر يبدو وكأنه مضطرب بعض الشيء، إذ قال:

- ماذا لو أنهيتُ الأعمال التي يجب عليَّ فعلها أوّلًا في عالمي الداخلي بصفتي سلطانًا ثم بدأتُ بالانفتاح على العالم الخارجي؟

- لا، هذا مستحيل.. يُفكِّرُ البعض مثلك، لكن هذا نوعٌ آخر من حِيَلِ عزازيل.. فَكِّر معي، ماذا كان سيحدث لو كان السلطان صديق سلطان الدولة المجاورة قد تركنا بمفرَدِنا لِنواجهَ عزازيل بدلًا من أن يساعدَنا ويقول لنفسه: "لم تنتهِ مشاكلي الداخلية بعد! يمكن أن ننظر في مساعدة الدولة المجاورة لاحقًا!"؟ ولهذا فإن الخادم يسعى لِحَلِّ قضاياه الداخلية من جهة، ومن جهة أخرى

يصل إلى أناس يخدمهم في العالم الخارجي ويساعدهم في كفاحهم ضد عزازيل ويقدِّم لهم الدعم لتفادي خيانة السيد نفْس.

ثم تابع بقوله:

- إن هذا النظام الذي تراه في عالمك الداخلي موجود بالضبط داخل كل إنسان.. فعند كل إنسان هناك أيضًا السيد نفْس والسيد ضمير والسيد عقل والقائد شهوة والقائد غضب.. وإنّ ما يختلف بينهم هو سلاطينهم والسجون التي يؤسَرون بها.. فكما أنني ساعدتك اليوم لتتخلَّص من الأشر وتجلس على عرشك، عليك أن تساعد هؤلاء الناس بالطريقة نفسها ليجلسوا على عروشهم في عالمهم الداخلي.

ثم ذكّر الخادمُ مطرَ بشيء مهم قائلًا:

- سأقول لك آخر شيء قبل أن أمشي: يجب عليك ألا تغادر عرشك في النهار أبدًا.. فلو رأيت نفسك تتوجه لعالمك الداخلي وتبتعد عن عرشك ينبغي لك الجلوس عليه فورًا والاهتمام بما يحدث في الدولة.. ولا تغفل إطلاقًا عن السيد نفْس على وجه الخصوص.. ذلك أنه سيحاول إدارة الدولة على حسب هواه في كل فرصة تسنح له في غيابك، وسيتواصل مع عزازيل بطريقة ما ليخطط معه كيف يلقيك في السجن.. ومتى شعرت بأنك ابتعدت عن عرشك أغمض عينيك وأنت تقول: "**لا إله إلا الله محمد رسول الله!**".. وحينها يكون الولوج من الداخل، بالضبط كما هو مكتوب على اللافتة الموجودة على باب القصر..

حينئذ سترى ما يحدث داخل القصر.. وطالما أنك تراقبُ الحياة وتُباشرها من سدّة هذا العرش ستلاحظ ماذا يحدث كل ثانية وتتّخذ التدابير اللازمة للتعامل معه.. وفي الواقع، فهذا هو "الوعي" الذي يتحدث عنه الجميع.. على أيّ حال، كما قلت لك، سنتطرق لاحقًا للحديث بالتفصيل عن المسائل الخاصة بعالمك الداخلي.. يمكنك دخول القصور الأخرى التي لم تُمحَ من على بابها تلك العبارة بالطريقة نفسها، فهناك أشخاص ينتظرون مساعدتك الآن، لذا عليك أن تتعلَّم وتتخلَّقَ بالأخلاقِ والصِّفاتِ اللازمة حتى تستطيع مساعدتهم.. ولِتَعلُّم هذا لا داعي للمجيء إلى قبرك! سأكون أيضًا بجوارك في كل رحلة تقوم بها كلّما شعرت بالحاجة -وسط اليوم- لدخول قصرك أو قصور الأشخاص الآخرين من خلال هذه الطريقة التي تعلمتها حديثًا.. إياك أن تترك العرش خاويًا! أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه.

بعدها تلا مطر سورة الناس، ثم فتح عينيه فوجد أن الشمس لا تزال مشرقة.. فجأة انقلب مفهوم الزمان في عقله رأسًا على عقب، فقال لنفسه "في أي يوم أنا؟ وكم الساعة؟ آه تذكَّرْتُ، لا أرتدي ساعتي! على مهلك يا مطر، سنفهم الآن ماذا يحدث"، ثم بدأ يمشي.. وبعدما وصل إلى باب المقبرة وجده مغلقًا، فاعتقد أنه لا يزال في صبيحة اليوم نفسه الذي هو العطلة الأسبوعية.

obeikandl.com

تفضل، تعرّف إلى "دَاسِم"

عندما وصل مطر إلى بيته كانت عقارب الساعة تقترب من التاسعة صباحًا.. كان وقتًا مبكرًا لإيقاظ إنسان في صباح يوم العطلة الأسبوعية، غير أن الوعد الذي وعد به أمه ليتناول معها الإفطار قبل أسبوعين غيّر كل شيءٍ.

كان مطر يحب أمَّه، تلك السيدة القويّة التي تعتبر أكثر تسلُّطًا مقارنة بوالده.. ويُحبّ أن يُلقِّبَها دائمًا بلقب "والدة السلطان".. أما أكبر مشكلة تواجهه الآن فهي عدم معرفة زوجته بهذا الوعد الذي وعده لأمه.. فحتى هو قد نسي ذلك الوعد وسط هذه الأحداث المتتابعة.. وكانت أفضل فكرة خطرت على باله هي إيقاظ زوجته "رهنما" بأي حجّة أخرى، ثمَّ يتطرَّقُ معها لاحقًا إلى الحديثِ عن مسألة تناول الإفطار مع والدته.

لقد شعر مطر بالدهشة الشديدة عندما أدرك أنه استشار وزراءه حتى قبل أن يقوم بهذه الحركة البسيطة، ألا وهي إيقاظ زوجته.. كانت الأصوات التي يسمعها من داخله مألوفة بالنسبة له لدرجة أنه كان يفهم كل عبارة ويعرف من يقولها:

obeikandl.com

السيد نفْس:

- أفضل شيء في رأيي هو النوم فورًا، وأن نقول لوالدة السلطان إننا لم نستطع الاستيقاظ مبكرًا في العطلة الأسبوعية.

السيد ضمير:

- وهل هذا يُعقل؟! هذا كذبٌ، أضف إلى ذلك أن هناك وعدًا وعده السلطان لوالدته.

السيد عقل:

- أرى أن السيد ضمير محقٌّ فيما يقول، كما أننا لو لم نذهب فإنها ستجعلنا نندم على فعلتنا هذه.

السيد نفْس:

- وهل "رهنما" لن تغضب ولن تُحاول أن تُعاقبنا عندما نوقظها في هذه الساعة؟ حاولوا أن توقظوها وتقولوا لها: "هيا سنذهب إلى بيت أمي الآن!!" وسترون ماذا ستفعل.. ستُقطّب جبينها وتغضب علينا وتبقى غاضبة حتى المساء.. أفضل شيء أن نسترخي إلى جوارها وننام، لا سيما وأننا مرهقون جدًّا.. هيا، إننا نُضيّعُ الوقت، السريرُ ينتظرنا.

السيد ضمير:

- نعلم نحن أيضًا أن "رهنما" ستستاءُ مما سيحدث، لكن السيد عقل يمكنه أن يختلق حجة لتهدِئَتِها.. فالمهم بالنسبة لنا أوّلًا وأخيرًا هو الوفاء بوعدنا دون أن نُغضب أحدًا.

obeikandl.com

السيد عقل:

- يـا له من أمرٍ سـهل، سـنوقظُها بـأيِّ حجة أخـرى وبعدها نتحـدّث معهـا بشـأن الوعـد الـذي وعدنـاه قبـل أسـبوعين.. ولو اقترحنا عليها -دون أن ندع فرصة لأن تغضب- بزيارة السوق في طريق العودة وشراء احتياجات المنزل ستوافق بلا شك.

السلطان مطر:

- هذه هي أفضل فكرة، أحسنت يا عقلي الذي أحبّه!

السيد عقل خجولًا:

- لا شكر على واجب يا مولاي.

بدأ مطر تنفيذ الخطة:

- رهنماااا! رهنماااا! أين الشاي؟ لا أستطيـع أن أجده!

- خيرًا؟! ما الذي حصلَ!؟ ما كنت تصنـع الشايَ قبل ذلك؟

- إنك تُحضّرين وجبة الإفطار منذ سـنوات يا حبيبتي، فماذا سيحدث لو أعددتها أنا هذه المرة؟

- أممم.. خيرًا إن شـاء الله! الشـاي في الخزانة فوق الموقد، انتبه كي لا تسكبه على الأرض!

- لا أعدكِ، تعلمين أنني لست ماهرًا في أمور المطبخ.

- فهمت، لن تجعلَني أنام.. على رسلك، سَأُعِدُّ أنا الإفطار.

– انظـري عندمـا ذكرتِ كلمة الإفطار مـاذا خطر على بالي؟! كيف لي أن أنسـى هذا؟! فبينما كنتُ أتحدَّث مـع والدة السـلطان قبل أسبوعين هاتفيًا...

انطلق مطر وزوجته، لكن "رهنما" كانت لا تزال مغمومة، أما مطـر فـكان وقورًا وهادئًا وكأنه يجلس على عرشـه في القصر لا على مقعد السيارة.. لم يعد يغضب من الأشياء التي كان يغضب منهـا في السـابق، وكان يدرك جيّدًا ما هي المشـاكل التي يعانيها الناس مـع أنفسهم.. فانتهز فرصة صمت زوجتِهِ وبدأ يُفكِّرُ:

"نحـن، فـي الواقـع، ننتظر أشـياء كثيرة مـن الآخرين.. ولقد نسـجنا خيـال كلِّ آمالنـا هذه لأننـا نظنّ بأنهم ملـوكٌ يجلس كلّ واحد منهم على عرشـه ليحكم دولته، ألا وهي دولة البدن.. بيد أن الوزير الأكبر هو من يخاطبنا في أي مملكة من تلك الممالك التي سُجن سلطانها في مكان لا يعرفه أحد. وعندما نرى منه أشياء لم نتوقعها نستشـيط غضبًا.. فعلى سـبيل المثال: لو ألحق السـيد نفس الضررَ بالأميرة "نَامَحْرَمْ سـلطان" فمَن المسـؤول عن ذلك غيري أمام والدها السـلطان صديق! بطبيعة الحال كان سـيُدينُني ويتهمنـي أنا بذلك، وحينها كان سـيعاديني بـكل ما أوتي من قوة بدلًا من أن يساعدني لمواجهة أعدائي.. أي إننا كنا سيُحكم علينا جميعًا بالعقاب بسبب ذنب اقترفه السيد نفْس".

...

"في الواقع هذا ما نفعله دائمًا.. فالشخص الذي أمامنا قد فقد السيطرة على الدولة بالكامل لصالح السيد نفْس، فيداه ورجلاه مكبلتان ويطلب منا المساعدة، وأما نحن فبدلًا من أن نساعده، نعلن الحرب على الدولة بأكملها بسبب خطإ اركتبه السيد نفْس.. وفي الواقع فإننا لا نعادي السوء الموجود بداخل الإنسان، بل نعادي المساكين الذين راحوا ضحية هذا السوء ونظلمهم".

...

"حدث هذا في غزوة أحد على ما أتذكر، فالرسول ﷺ لم يغضب حتى على المشركين الذين كسروا رباعيّته وأدمَوا وجهه ولم يدعُ عليهم، بل على العكس تمامًا؛ إذ مسح دماءه الزكيّة ودعا لهم قائلًا: "**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ!**".. إنهم لا يعلمون العذاب الذي يقودهم إليه عزازيل والنفْس الذين أصبحوا أسرى لهما.. فهم لا يعرفون أن تلك النفس التي يتبعونها ما هي إلا وزير، وأن الشيطان الذي اعتبروا صديقًا لهم ما هو إلا عدو مبين، وأن أنفسهم سلاطين يمكنهم التدخل في كل هذه الأمور لتغييرها.. لا يعرفون أنهم فقط بإعادة رفع اللافتة المكتوب عليها تلك العبارة المباركة "**لا إله إلا الله محمد رسول الله**" على باب قصورهم يستطيعون الجلوس على عروشهم والنجاة من كل هذا الأسْر والذل والضلال والخيانة.. اللَّهُمَّ اغفر لهم، غفرانك يا ربنا".

obeikandl.com

لاحظت "رهنما" أن مطر قد عبر بسيارته من أمام شارع بيتِ أمّه دون أن يدخل فيه؛ فقالت له:

- إلى أين أنت ذاهب؟ لقد فاتنا الشارع!

حينها استعاد صوابه ودخل من الشارع الذي يليه وكأنَّ شيئًا لم يحدث، ثم عبر من الشارع الجانبي ووقف أمام المنزل.. حينها نظر إلى زوجته وقال لها:

- ثمَّة خيرٌ في كلِّ شيءٍ...

وإن لم يكن على علم بأنه تخطى خطرًا كبيرًا بالعبور من هذا الشارع لا من الشارع الآخر.

كانت الرائحة الرائعة التي بدأت تتسرب إلى أنفي مطر وزوجته وهما لا يزالان واقفين أمام الباب كفيلة بأن تحكي لهما كيف أن والدة السلطان قد بذلت جهدًا كبيرًا لإعداد وجبة الإفطار.. بعد أن قبّلا يدي الأم والأب، جلسا على طاولة الطعام بعدما سمعا العتاب المعتاد. كان كل شيء يسير على ما يرام حتى حانت اللحظة التي كان يكرهها مطر إلى أبعد الحدود.. فكانت الجولة الأولى بين "رهنما" ووالدة السلطان:

والدة السلطان:

- لا تزالين جاهلة لا تعرفين شيئًا، ولنرَ ماذا ستفعلين عندما تبلغين سنّي!

أدرك مطر في الوقتِ المناسِبِ خطورةَ الوضعِ، وقبل أن تقولَ "رهنما" شيئًا أغلق عينيه بعدما قال العبارة المباركة التي أوصاه بها الخادم فورًا وقد فكّر في نفسه أنه يمكنه أن يتدارك الأمر قبل فوات الأمر إذا ما أسرع التصرف.

وحسبما رآه يتبين أن هذا المكان الذي ولجه هو القصر الموجود داخل قلب "رهنما"..

شعر أنه يعرف معظمَ الأشخاص الذين كانوا في القاعة الكبرى خلال أول لقاء معهم، ففكَّرَ برهةً من الزمن مسائلًا نفسه: "أنا أعرف هؤلاء الأشخاص لكن كيف؟ ومن أين؟ ومتى؟! لا أدري... آاااه.. نعم! هؤلاء ممثلو المسلسلات المحلية التي تعرضها قنوات التلفاز. فمثلًا ذلك الرجل الذي يرتدي بزّة سوداء كان يمثل في مسلسل " وادي الذئاب"، كما أن ذلك الرجل الأضخم منه لا بد أن يكون ذلك الشاب ذا العينين السوداوتين الذي شارك في مسلسل "الفلفل الحرّيف".. وأما الواقفون في الناحية المقابلة فهم مجموعة من الأجانب، كانوا يقفون معجبين بأنفسهم وكأنهم حضروا للمشاركة في حفل تسليم جوائز الأوسكار.. وأما المشكلة فهي عدم ظهور السلطانة رهنما التي من المفترض أن تقدِّم الجوائز للحاضرين. وكان واضحًا لماذا العرش خاويًا، فمن يدري في أي "الشاشة الصغيرة" سجنوا "السلطانة رهنما" سلطانة هذه المملكة.. وكانت السيدة نفْس، الوزيرة الكبرى، هي المتحكمة في كل شيء".

دخل أحـد المبعوثين من الباب ووقف أمام الوزيرة الكبرى، وفي تلك الأثناء سمـع مطر صوت الخادم وهو يقول له:

- هل عرفتَ المبعوث القادم؟

- آه نعم! أليس هذا الوسواس الملعون؟

- نعم، إنه هو! "دَاسِم" هو من أرسله.

- "دَاسِم"؟ لم تَحكِ لي عنه قبل ذلك.. من هو؟

- لدى "جيش الشر" تنظيم على حسب هواه، فهو جيش قديم قِـدَمَ تاريخ الإنسـانية علـى أي حال.. ولقد قسّـم عزازيل المهام بنسـب معينـة حتى يسـرع من وتيرة تقـدم الأعمـال.. وها هو ذا "دَاسِم"، اسم يطلق على الشياطين المتخصّصة بالتدخّل بين أفراد العائلـة والأقارب والأصدقاء لتحريضهم ضدّ بعضهم.. وسـترى لاحقًـا سـائرَ زُمر الشـياطين الآخرين.. والآن دعنا نشـاهد كيف يقوم "دَاسِم" بعمله.

ثم أنصت الاثنان لما سـيقوله "الوسـواس"، فقال على الفورِ مخاطبًا السيدة نفس:

- أيتها السـيدة نفْـس الكريمة! منذ أن وقَّعـتِ اتّفاقيّة الزواج قبل سـنوات مـع "دولة مطر"؛ فإن والدة السـلطان تشنُّ هجمات عدائية ضدكما، والآن وصلنا نبأٌ يفيد بأنها تستعدُّ لهجمة جديدة.. و"سـيدنا دَاسِـم" لديه فكرة مفادُها أنّ أفضلَ ردٍّ على هذا الهجوم سيكون من خلال هجومٍ مفاجِئٍ يبدأ عن طريق اللسان.

- إن "والـدة السـلطان" تتَّهمـكِ بالجهـل وعـدم القدرة على تقديـر الأمور جيّدًا.. فـ"سـيدنا دَاسِـم" يريد أن يخبـرك بأنه حان الوقـت لإنهاء هـذا الأمر فـورًا، وعليه يمكن التحـرّك من خلال قـوة لم تُرَ قبـل ذلك، وأن الأخطاء التي ارتكبتها والدة السـلطان فـي شـبابها هي أفضل ورقـة رابحة في يدك يمكنـك الهجوم من خلالها... اللعنة عليكِ يا سيدتي!

انصرف المبعوث، وبعدها بدأ مطر على الفور بطرح أسـئلته على الخادم:

- لم تكن الوضعية لدينا بهذا السـوء، فكيف "الوسـواس" أن يقـوم بوظيفتـه بهذه الصراحـة والوقاحة؟ بيد أنـه كان أكثر حذرًا وتروّيًا في قصرِنا.

- لأنك كنتَ فقط أسـيرًا في "كهفِ الغفلة"، وكان يُمكن في أيّ لحظـةٍ أن تنجـو من هذه الغفلة وتسـتيقظ منهـا.. ولهذا كانوا يُحاوِلون القيام بأعمالهم في سـرّية دون علمك قدر المسـتطاع.. غيـر أن هـذه الوضعيـة أسـوأ بكثيـر بالنسـبة لزوجتك السـلطانة "رهنما"، فمن الواضح أنهم سجنوها في "الشاشة الصغيرة"، وهو مكان نادرًا ما يَنْجُو مَن بداخله، وإنّ من يكون داخل هذه الشاشة يعيـش وكأن لديـه حياة أخـرى مختلفة تمامًا، لا يشـعرون بأنهم في الأسْـر، بل إنهم ينسَـون حياتهم الأصلية بعد فترة.. والحقيقة الوحيدة بالنسـبة لهم هي فقط الشاشة الصغيرة التي تعتبر أحدث فخاخ عزازيل.. فمنذ أن ظهرت تلك الشاشـة اسـتطاع أن يخفف

مـن ضغطِ أعماله إلى النصـف، لدرجة أنه يكفيه أن يلقي بالناس فيها.. فعلى أيّة حالٍ مَن يُلقي فيها لا ينوِي الخروجَ منها أبدًا.

بعـد هـذا الشـرح صمـتَ الخـادمُ عندمـا بـدأ أحـدُ النجوم الموجودين في القاعة بالحديث، فهذه المرأةُ المشاغبة التي تُعتبر مقدِّمة أحدِ البرامج الحوارية النسـائية بدأت تتحدَّث وكأنها تريد أن تُبرهن على ماهرتها في إثارة التوتر والقلاقل بين الناس:

- إيـاكِ أن تتحدثـي بهـدوء وأدب فـي مقابـل مـا تقوله هذه السيدة! يجب عليكِ أن تكيلي لها الكيلَ كيلين، وأن تردّي عليها بأكثـر ممّـا تقوله هي.. فماذا عـاد عليك من فائدة عندما سـكتِّ وسمحتِ لها بإهانتك إلى اليوم؟ فهل عرفَتْ قدرَكِ؟ ولهذا عليك اليـوم أن تكونـي أنـت من يدير دفّـة الأمور.. ليس مـن حقِّ أحدٍ سحقُ الآخرين بكلامه الجارح.. هذا هو كلُّ شيء.

وبعدها أخذت السيدة ضمير زمام المبادرة فورًا وقالت:

- اسمعي يا سيدة نفْس، أعتقد بوضوح أن كلام والدة السلطان فُهِمَ بشكل خاطئ؛ ولهذا أرى أنها أرادت أن تقول: "بصفتي أكبر منك سـنًّا، وبكوني مررتُ بالكثير من الأشـياء التي لم تمرّي بها؛ لا أريدك أن ترتكبي الأخطاء نفسَها وتندمي بالطريقة ذاتها عندما تصلين إلى سـنّي".. ولهذا فليس هنا أدنى داعٍ للهجوم عليها، بل إنه من المناسب أن نشكرها على هذه النصيحة.

غير أن السـيدة نفْس لم توافقها الرأي.. وكانت السيدة ضمير تقول كلامًا جميلًا ومؤثّرًا للغاية، لكنها كانت بحاجة إلى سلطانة

تستمع إلى حديثها.. فأصدرت السيدة نفْس أوامرها على الفور إلى السيدة عقل:

- يا سيدة عقل! أريدك أن تنطلقي فورًا مع "القائدة غضب"، وعليكما أن تجدا كل شيء يمكن أن نستغلّه كورقة رابحة ضدَّ والدة السلطان.. وأنت يا "قائدة غضب"، فمهمّتك أنك ما إن تحصلين على المعلومات اللازمة من السيدة عقل حتى تبدئين على الفور بالهجوم عن طريق اللسان.. هيا أريد أن أرى ماذا ستفعلْن، ولنُسكِت هذه العجوز بكلام شديد اللهجة!

لقد حدث في نهاية الأمر ما قالته السيدة نفْس؛ إذ ردّت رهنما على والدة السلطان ردًّا أبهت جميع مَن على الطاولة، بم فيهم هي أيضًا:

- لا أعتقد أنكِ ستبقين على قيد الحياة حتى أصل إلى سنّكِ، لا سيما بعد كل هذه الأخطاء التي ارتكبتها في شبابكِ! فأنتِ على وشك الموت في أي لحظة لأنكِ عجوز شمطاء وغدًا أنت في الفراش وبعد غدٍ في التراب!!!

حدث كل شيء وفقًا للخطّة التي رسمتها السيدة نفس بما يتناسب مع مقترحات "داسم"؛ إذ نهضت والدة السلطان من على طاولة الطعام وهي تبكي، وبهذا يكون كل شخص قد لعب دوره على أكمل وجه.

حان الدور على مطر في هذا المشهد، وكان هذا الدور يملي عليه الصراخ في وجه رهنما منتقدًا إياها انتقامًا لأمه، لكنه

لـم يفعـل هذا بعدما رأى كل شـيء دار داخل القصـر، ولم يكن يريد الوقوع في فخ "دَاسِـم" هو الآخر كما وقعت السيدة نفْس.. فصاح من فوق عرشه على السيد عقل:

– يـا سـيد عقل! ما أفضل شـيء يمكنني فعلـه الآن؟ أريد ألا يغضبَ أحد من عائلتي وألا يشمت بنا هذا السافل المدعو "دَاسِم".

– يـا مولاي السـلطان! عليك أوَّلًا النهوض مـن على طاولة الطعـام والذهاب لتخفيف الحزن عن والدة السـلطان، وأن تقول لها: إن رهنما تصرّفت بطريقة جاهلة، وإنك ستتحدَّثُ معها حول هـذا الأمر عندمـا تعودان إلـى المنزل"، وتطلب مـن والدتك أن تسامحها، وتخبرها بأن العفو من شِيَمِ العظماء.

كان السـيد نفْـس يقرأ ورقـة عندما أنهى السـيد عقل كلامه، فوضعها في جيبه خلسة وشارك في الحوار قائلًا:

– في رأيي يا سـيدي أن ما فعلته السـلطانة رهنما عيب كبير جـدًّا، وما يقتضيه حق والدتك عليك هو أن تؤنبها هنا الآن حتى تستعيد والدة السلطان بسمتها.

غيـر أن مطـر كان يعلـم جيّـدًا من هو الشـخص الذي يجب تأنيبه فقال للسيّد نفسِ:

– إيـاك أن تفعـلَ ذلـك.. فهـذا سيرسـم البسـمة علـى وجه السـافل "دَاسِم" لا على وجه والدة السـلطان يا سيد نفْس! آمرك

فـورًا بحرق خطاب الوسوسـة الذي وضَعْتَـهُ في جيبك قبل قليل وإلا سأحرقك بنفسي!

ما إن اسـتطاع مطر حل مشكلته الداخلية بصفته سلطانًا على مملكته؛ حتى سـارع إلى إرضاء والدة السـلطان وإجلاسـها على طاولة الطعام مرة ثانية.

عندمـا عاد مطـر وزوجته في المسـاء إلى البيـت كان يتحيَّن الوقـت المناسـبَ لِيَبْـدَأَ بالحديـث، وكان يعلمُ جيّدًا أن السـيدة ضمير تحدَّثت مرارًا وتكرارًا حتى المسـاء عن تلك الواقعة التي حدثـت فـي الصباح.. لقـد اطّلع على شـؤون القصـر الموجود داخـل قلـب زوجته في كل فرصة أتيحت لهـا طيلة النهار، ورأى أن أحـدًا من أفراد القصر لم يدعم السـيدة ضمير في حالة الأَرَقِ التـي لازمتهـا طيلة اليوم.. فخطر على بالـه خطاب عزازيل الذي سقط في يده من ذي قبل.. كان عزازيل يتحدث في هذا الخطاب عـن أن السـيد عقل يعتبر قوة كبيـرة للغاية، ولهذا يجب ألا يتّحد أبـدًا مـع السـيد ضميـر. إذًا، ما يجب فعله الآن هو إقناع السـيدة عقـل؛ إذ يبـدو أنها هـي الشـخص الوحيد في هـذا القصر الذي ستأخذ السيدة نفْس كلامه بعين الاعتبار. وعندما سنحت الفرصة أمام مطر فاتحَ زوجته قائلًا:

– اسمعيني يا حبيبتي رهنما! أُدرِكُ أنَّك كنتِ حزينةً ومهمومة طيلةَ اليوم بسـبب ما حدث في الصباح.. لن أُحَقِّقَ معكِ فيما إذا كان ما فعلته صوابًا أو خطأً، لكني أعلم جيّدًا أنك تشعرين بالندم

منـذُ أن فَعَلـتِ مـا فَعَلتِ حينهـا.. صدقيني أن الاعتـذار من أمي سيفرحك أنتِ أكثر من أي شخص آخر.. كما أنك إن لم تعتذري منهـا فإنك سـتعانين من أثر هذا في الدنيـا والآخرة. وتعلمين أن عمر والدة السـلطان شارف على السبعين، ولنفترض أنها فارقت الحياة، حفظنا الله، اليوم أو غدًا دون أن تسنح لك الفرصة لتقديم اعتذار لها، فستعانين طيلة حياتك من عذاب الضمير الذي تسبَّبت به كلماتك الثقيلة في هذا الصباح.

ثم أضاف مداعبًا إيّاها:

- أرى أن عليـك الاعتـذار منها وسـترين أنها ستشـتري لك ذلك المعطف الذي طالما حلمتِ به.

توجَّـه مطـر إلـى قصـر قلـب زوجته رهنمـا على الفـور كي يـرى مـردود الكلمات التي قالها لها، وكأنـه يجري تجربة، فرأى الحارس الواقفُ على باب القاعة الكبرى ينادي نحو الداخل:

- لقد جاء مبعوثٌ من حليفتِنا "دولة مطر" يا سيدتي!

فقالت السيدة نفْس:

- ليأتِ لنرَى ماذا يريد هذا المسكين.

لكنها لم تكن تعلم أن ذلك المسكين سمـع ما قالَتْه، فالتفت المبعوث إلى السيدة عقل وبدأ يقرأ رسالته عليها:

"السيدة عقل العزيزة،

بعد التحية والسلام،

أؤمن بأن تعبيرك عمّا يدور في خاطركِ بشأن ما حدث هذا الصباح وما تلاه سيصبُّ في مصلحة الجميع، وإن كنتِ قد آثرتِ الصمت أمام ما حدث.. فلو أتعبتِ نفسَكِ قليلًا وأوضحتِ الأمر للسيدة نفْس فيما يتعلق بالضيق الذي تشعر به السيدة ضمير، سأكون ممتنًّا كثيرًا بصفتي حليفًا لمملكتكم..

سلطان مملكة "مطر": السلطان مطر

حينها أصغت السيدة عقل مرة ثانية إلى ما قالته السيدة ضمير التي كانت تكرر الكلام نفسه:

– ماذا أقول بخلاف ما أقوله منذ الصباح، ما فعلناه كان خطأ تمامًا.. فلنفترض أنك بادرت بالهجوم دون أن تسمعيني، فعلى الأقل أصغِ لي هذه المرة.. علينا أن نعتذر من والدة السلطان في أسرع وقت ممكن.

حينئذ انفجرت السيدة نفْس قائلة:

– يكفي إلى هذا الحدّ! إنكِ تُكرِّرين الكلامَ نفسَهُ منذ الصباح، وكلما قلتُ لك: أعطيني سببًا واحدًا لنقدّم اعتذارًا لا تجيبينَني بشيء.. يكفي هذا القدر، يجب أن تصمتي!

في تلك الأثناء سنحت للسيدة عقل فرصة للتفكير، فبادرت بالرد فورًا:

– اسمحي لي يا سيدة نفْس أشرح لك لماذا يجب علينا الاعتذار؛ أوّلًا؛ لأن السيدة ضمير لن تسكتَ طالما لم نعتذر،

ومما لا شك فيه أنني لن أتحمل أنا أيضًا تذمُّرَها.. ثانيًا؛ لأننا بذلك نكون قد رفضْنا اقتراحَ حليفِنا السلطان مطر، وهذا سيكون مصدرًا للمشاكل بالنسبة لنا في المستقبل.. وربما يرفض هو الآخر أيَّ طلبٍ لنا.. لكن لو نفَّذْنا طلبَهُ فسيكون مضطرًّا لتنفيذ طلبنا.. ثالثًا؛ لم يبقَ إلا أيامًا قلائل لِذكرى يوم ميلادك، وأنت تعلمين أن والدة السلطان أرسلَتْ هدايا رائعة وعبارات تهنئة رقيقة في مراسم عيد الميلاد السابقة.. وأنت لا تريدين أن تُحْرَمي من هذه الأشياء هذا العام.

كانت هذه الكلمات من النوع الذي يروقُ للسيدة نفْس، فأصدرت أوامرها على الفور:

- السيدة عقل تقول الصواب، أرسلوا مبعوثين فورًا ليرسلوا رسالة اعتذار مميزة تكتبها السيدة عقل.

بادرت "رهنما" بالانتقال إلى الصالة كي تتَّصِلَ بوالدة السلطان، وفي تلك الأثناء بدأ مطر يفكر بالكثير من الأشياء التي تعلَّمها من هذه الواقعة:

- يا له من أمر عجيب! العقل لا يستمع ما أقوله بالضبط، وعندما يوصل هذا الكلام إلى النفْس ينقله بالطريقة التي يريد أن يسمعه به لا بالطريقة التي قلته بها.. والنفْس التي لم تصغِ إلى اليوم لأحد غير الشياطين تصغي إلى العقل وتصدّقه.. حتى إنها تتصرف وَفْقَ ما قاله.. وهذا يعني أن الشخصية الأقوى في هذا

القصـر هي العقـل، وإقناعُهُ يعني إقناعَ النفْس؛ إذ إنه -بشـكلٍ أو بآخر- يستطيـع أن يخدعها.. ويبدو أن تأثير السيد عقل هذا أقوى مما كان يظن ويدعي عزازيل.

- لقد واجَهْنا اليوم "دَاسِم"، وهي وحدة عسكرية عدوّة مدرَّبةٌ تدريبًا خاصًّا لإيقاع الشـقاق بين أفراد العائلة.. وهدفها الأساسي هو السـعي لِتنفيذِ ألاعيب سياسـيّة تُوقِـع الـدول الحليفة ببعضها البعـض.. وسـيكون علـيّ أن أتعلَّم المزيد بشـأن هـذه الوحدة.. الحمد لله أن اسـتَطَعْنا تخطِّي محنة اليوم دون خسـائر تُذْكَر، لكن "دَاسِـم" وسـائر الوحدات الأخرى التي لـم يحدّثني عنها الخادم لن تقفَ مكتوفة الأيدي.. حتى إنه لا أحدَ يعلمُ ماذا يُخَطِّطُون في هذه اللحظة.. ولهذا يجب عليّ ألا أغفلَ عنهم أبدًا، فهم يعملون بجدٍّ واجتهاد!

وبينمـا كان مطر يحادث نفسـه بهذه العبارات سـمع صوت رهنما قادمًا من الصالون:

- حسـنًا يا أمي! أُكَرِّرُ اعتذاري.. سـامحيني! سأُخبر مطر بأن كل شيء صار على ما يرام، هو كذلك يوصلُ سلامه لك.. يقول: إنه يُقبّل يديكِ.. تصبحين على خير يا أمي الحبيبة.

obeikandl.com

والآن مع "زَلَنْبُور"!

مرَّ أقل من أسبوع منذ أن تعرف مطر إلى الخادم، لكنه كان وكأنه عاش أشياء لم يعِشْها أبدًا طيلة حياته التي صار لكل يوم فيها ولكل ساعة بل حتى لكل لحظة فيها معنى مختلف.. فما أكثر ما يحدث خلال هذه المدة القصيرة داخلَ قصرِ قلبِ كلِّ إنسان؟

فكَّرَ مطر في كلّ هذا بينما كان في طريقه إلى العمل صبيحة يوم الأحد، وحينها أدرك أن أمور العمل تدهوَرَت بعضَ الشيء، فحاوَلَ أن يُريح ضميرَهُ بقوله: "سأُرَتِّبُ كلَّ شيء ليكون على ما يُرام اليوم وسأبذلُ مزيدًا من العمل الجادّ".

عندما وصلَ إلى الشركة وجلسَ على مكتبِهِ كان أول ما لَفَتَ انتباهَه هو فواتيرُ الشركة التي جاءته في نفس يوم وصول رسالةِ التهنئة بعيد الميلاد التي أرسلَها إليه الخادم؛ إذ كانت الفواتير لا تزال على المكتب كما تركها.. صار من الواضحِ من أين يجب عليه أن يبدأَ العمل.

obeikandl.com

كان مطر يُدخِلُ فواتير المصروفات الشهريّة بالترتيب إلى برنامج الحسابات على الحاسوب إلى أن لفتَ انتباهَهُ الارتفاعُ المفاجِئ لفواتير الكهرباء والماء والهاتف؛ إذ كانت هناك زيادة كبيرة تقدر بضِعفين ونصف تقريبًا مقارنة بالشهور الماضية؛ فنظر فورًا إلى برنامج الإنتاج الخاص بالشهر الفائت وجداول دوام الموظفين، لكنه لم يرَ أيَّ شيء يمكن أن يُفَسِّرَ هذه الزيادة التي طرأت على الفواتير.. فانتقلَ إلى قسم الإنتاج بالمصنع وأراد فهمَ ما يحدث.

بما أن النشاط الأساسي للشركة هو مجال التصنيع فلا بد وأن يكون السبب الوحيد لهذه المصاريف الزائدة ما يحدث داخل هذا المكان البالغ مساحته أربعة آلاف متر مربع.. وإلى جانب هذا القسم توجد المكاتب الإدارية للشركة، ولا يشكل العاملون بها سوى العُشر، أي واحد من عشرة.

مرَّ مطر من جانب المراحيض الواقعة في مقابل غُرَفِ خَلْعِ الملابس الخاصة بالعمال، فسمع صوتَ ماءٍ ينهمر، فمدَّ رأسه لينظر إلى الداخل فرأى باندهاش أن كل الأنوار والصنابير مفتوحة.. فدخلَ وأغلَقَها جميعًا وخرج، ثم أغلقَ كذلك أنوار غرفة خلع الملابس، وسار في الممر، وكلما تقدَّمَ كان يلفت انتباهه الأنوار المضاءة دون حاجة.. كان يبدو أن هذه الأنوار لم تُترك هكذا بطريق الخطإ، فمن الواضح أنه عملٌ بُيِّتَ بِلَيلٍ، وأنه مخطّطٌ له مسبقًا.. عندما عبر من الباب الداخلي ودخل إلى

ساحة الآلات سمعَ ضوضاء لا يُمكن تحمُّلها؛ إذ كانت جميع الآلات تعمل دون حاجة.. لقد حان الوقت ليعرف ماذا يحدث.

لفت انتباهه أحد العمال وهو يغادر المكان دون إغلاق إحدى الآلات التي كان يجب عليه غلقُها بعدما أنهت عملها، فقال في نفسه: "سأرى ماذا يحدث؟! سأفهم الآن! ثم أغلق عينيه للحظة قائلًا: **لا إله إلا الله محمد رسول الله**"..

فوجدَ نفسَهُ في قصرٍ شبيهٍ جدًّا بقصرِ زوجتِه الذي رآهُ من قبلُ، إلا أنَّ الفرق الوحيد بين هذا القصر الذي يتواجد به وبين قصر زوجته هو أن الفنانين الموجودين هنا يتجادلون باستمرار.. فهؤلاء الممثلون الذين لعبوا أدوارًا مختلفة في العديد من المسلسلات كانوا يُقدمون النصائح إلى الوزير الأكبر "النفس" بحسب المعلومات التي يعرفونها:

- اسمعني أيها الوزير! لقد نفّذتُ كل ما قاله "زَلَنْبُور" هذا.. الرجل المفتري يقول: "الحق لا يعطى، بل يُستردّ!"، ولو استلزم الأمر يحصل عليه بقوة السلاح.. ألم تتعلَّم مني أي شيء بالرغم من مشاهدتك لي طيلة هذه المدة؟ كما أن ثرثرة ذلك "السيد عقل" باستمرار كالمرأة تصيبني بالجنون.. إما أن تسكته أو أنا أعلم ماذا سأفعل.

وبينما كان يقول هذه العبارات كان يُظهر جزءًا من السلاحِ المعلَّقِ على خصره.. وأما الشخص الثاني والأضخم فكان يفكر بطريقة مختلفة؛ إذ قال:

- دعك من حركات "مراد علمدار" هذه واسمعني يا صاح! عليك ألا تثقَ حتى بوالدك في هذا العالم لا بـ"زَلَنْبُور.. زلمبير.. زلنبر.. زنبرك".. لا أدري ما اسمه..!! ألم تشاهد مسلسل "وادي الذئاب"؟ ألم ترَ كيف أن السفلة باعوني بمقابلٍ زهيد؟ فهؤلاء المبتدئون يُنجزون العمل من خلال ادعاء وجود مجلس لقيادة المافيا أو شيء من هذا القبيل.. ليس ثمة شيء رخيص في هذا العالم، يجب أن تتحرك بمفردك في هذه الحياة، وعليكَ ألا تدعَ مجالًا لأحدٍ بالتعدِّي على حقك، ولا تتورَّع عن إطلاقِ الصفعات والرصاصات.. هذا يكفي!

سيطر التوتر والقلق على المكان، فواصل "السيد ضمير" كلامه في حالة من اليأس:

- كم مرة يجب عليّ أن أكرر ما أقوله يا سيد نفْس؟! نحن أمام اتفاقية تجارية وقعتم عليها مع حليفنا "السيد المدير".. فهو يعطينا المواد الخام نصنعها ونعيدها إليه في صورة منتج.. وبطبيعة الحال لم يفسد هذا الاتفاق العملي المستمر بيننا منذ سنوات بدون مشاكل بسبب أننا لم نحصل على كامل مستحقاتنا عن الشهر الماضي؟ ولنفترض أنه مدين لنا، فما الذي سنحصل عليه لو أهدرنا المواد الخام التي يعطيها إلينا مثل الكهرباء والماء بدون فائدة؟ نحن بذلك لا نضر إلا بالسيد المدير، لأننا لم نحصل على أي من مستحقاتنا.. تعالوا لنتخلى عن هذا الأمر.. فالسيد عقل يمكنه أن يجد طريقة مناسبة للحصول عليها على أي حال.

غير أن السيد نفْس لم يضغِ إليه؛ إذ قال:

- دعك من هذا الكلام الآن، يجب على السيد عقل أوَّلًا التفكير في كيفية إلحاق الضرر بالمدير لنحصل على حقنا.. ولو نظرنا إلى الخبر الذي أتانا عن "زَلَنْبُور" سنجد أن السيد المدير بدأ يشعر بالضجر منذ وقت طويل.. يستحق ذلك، سنجعله يندم على أنه امتنع عن إعطائنا حقوقنا، فالحقوق تُؤخَذُ وتُنتَزَعُ ولا تُعطَى.

وبينما هم كذلك، شعر مطر بالشغف لمعرفة ما يحدث، فلَحِقَ به الخادم ليساعده في فهم ما يحدث:

- إن كل ما تراه هو من فعل "زَلَنْبُور"، وهي وحدةٌ أخرى من وحدات جيش الشر.. ستتعلَّم خلال دورة تدريبية خاصة ستخضع لها مستقبلًا كل تفاصيل هذه الوحدة وكيف يجب مواجهتها.. لكن يمكن أن أحدِّثَكَ عنها باختصار الآن: إن هدف أفراد هذه الوحدة هو التدخُّل في الحياة التجارية للأشخاص وتحريض بعضهم ضدَّ بعض والعمل على تشجيعهم على الظلم، وشعارهم في ذلك عبارة: "الحق لا يُعطى، بل يُستردّ!".. لو نجحوا في جَعْلِ واحد بالمائة فقط من كسبِ أيّ شخصٍ حرامًا والباقي حلالًا، فهذا يعتبر مكسبًا بالنسبة لهم.. إنهم خبراءُ في أن يصوِّروا للناس بعضَ الأشياء التي ليست من حقّهم وكأنها حقٌّ لهم.. والأسوأ من ذلك أنهم يضعون كل الطرق غير المشروعة أمام أي شخص لم يحصل على حقِّهِ فِعلًا، بالضبط كما هو الحال بالنسبة لعمّال هذا المصنع.. فما الفائدة التي ستعود عليهم

من الماء والكهرباء التي يسرفون فيها؟ لا شيء على الإطلاق.. غير أن "زَلَنْبُور" خدعهم لدرجة أنهم يشعرون وكأنهم مرتاحون، ولا يُفكِّرون أبدًا في مدى مشروعية ما يفعلون.. لا تدع هذا الأمر يمرّ مرور الكرام! ولنرَ مَن أيضًا خدعته تلك الوحدة الشريرة؟ كما عليك مساعدة هذا الشخص بصفتك الخادم.

تنحى الخادم جانبًا بعدما قال هذه العبارات لـ"مطر" الذي بدأ يفكّر سريعًا بما يُمكنُهُ فعلُهُ.. تذكَّرَ كيف أقنع السيدة عقل بالأمس كي يساعده زوجته "رهنما"، وكان بإمكانه تجربة الشيء نفسه الآن أيضًا.. فتح عينيه فورًا وبدأ مخاطبة عامل المصنع:

- كان الله في عونك يا أُسطى! كيف يسير العمل؟

- ماذا تقول؟ لم أسمعك!

فقال له مطر بصوت أعلى:

- يبدو أنك لم تسمعني بسبب صوت الآلات، إن كان عملُك انتهى فأغلِقْها لنتحدَّثْ قليلًا.

مدّ العامل يده ليغلق الآلة وقد اعترت وجهَهُ ملامحُ الضيق، وبينما هو يفعلُ ذلك كان ينظر بِطَرَفِ عينه إلى "مطر" مدير الحسابات؛ بينما مطر يتساءل في داخله: "ما الذي جعل هؤلاء العمال يتمرّدون إلى هذه الدرجة"؟ وتابع مطر حديثه بعدما أوقف العامل الآلة:

- أرى أن جميع الأنوار وصنابير المياه والآلات تعمل دون داعٍ، وفواتير استهلاك هذا الشهر أضعاف فواتير الشهور الماضية.. أخبرني لو سمحت ماذا تريدون أن تفعلوا؟

لمح مطر لمعةً "شيطانيةً" من الفرحة ارتسمت داخل عيني العامل الذي أخذَ يتحدّث بارتياح وكأنه وصل إلى مراده:

- أليس من الضروري أن تكون أفضل من يعرف ماذا نريد؟ هل تعتقد أننا سنظل مكتوفي الأيدي عندما تمنعوننا من الحصول على مستحقاتنا عن الشهر الماضي؟ إنكم تجبروننا على العمل ساعات إضافية ولا تدفعون أجورنا.. أما تعلم أن "الحق لا يُعطى، بل يُستردّ" وهذا ليس مجرد كلام، وسنحصل على حقوقنا بهذه الطريقة.

شعر مطر بالدهشة لما سمعه من العامل، وقال في نفسه: "هذا مستحيل!"، لكن كان من الواضح أن العامل لم يكن يكذب، وذلك من خلال تصرفاته التي تتطلب الجرأة وأن يكون على حقٍّ فعلًا.

كان السيد طَيْفُونْ هو الذي يتولى أمر متابعة مستحقات العمال عن ساعات العمل الإضافية ودفعها لهم، وكان يجب على مطر أن يتحرّك فورًا كي يفهم أصل المسألة، لكنه كانت لديه كلمات يريد قولها للسيد عقل الذي كان يؤمن بأنه سيُقنع العامل.

- اسمعني أيها الأُسطى الرائع! لو أن هناك ظُلمًا فصدقني أنني سأعالجه وأُنهيه خلال أقصر مدة ممكنة.. لكن بالنسبة لعبارة "الحق لا يُعطى، بل يُستردّ"؛ فأنا لا أوافقك الرأي.. لو كنتَ سَتُفَكِّرُ بهذه الطريقة فمن الممكن أن تفعلَ المحظورات من أجل الوصول إلى ما تظنّه حقًّا لك، وذلك لأنك لن تنتظر أن يعطيك أحدهم إياه، فما دام هو حقّك فستحصل عليه لا محالة! فماذا لو لم يكن حقك؟! ماذا لو كان في الأمر لَبْسٌ أو شيء غائب عنك؟! لكن لنفترض أن هناك شيئًا من حقِّكم فعلًا كما هو الحال بالنسبة لمسألة ساعات العمل الإضافية، فحينها ما عليكم فعله هو اللجوءُ إلى الطرق المشروعة.. ربما يكون هذا خطأَ قسمِ الحسابات، وربما يكون قرارًا خاطئًا صدر عن الأقسام الإدارية، وربما تكون مستحقّاتكم قد تأخرت بسبب أزمة مالية مؤقّتة.. فما تفعلونه حاليًا لن يعود عليكم بالنفع، بل ربما يضركم في المستقبل.

- ماذا تقول؟ هل تهدّدني؟!

- بطبيعة الحال لا، لم أقصد هذا.. فمن المؤكد أن هذه الكهرباء والماء المهدرة ستعود عليك وعلى أسرتك أنت كذلك بالضرر يومًا ما.. إننا نعيش شتاءً قلَّ فيه المطر، وبالتالي سنعاني من الجفاف في فصل الصيف، ما سيدفعنا لنبحث عن كل قطرة مياه تهدرونها الآن عبثًا.. الأمر نفسه ينطبق على إسراف الكهرباء دون فائدة، فكلما انخفضت كمية الطاقة الكهربائية الموجودة زادت قيمة ما تبقّى منها، ولا شكّ أنكم ستشعرون بهذه الزيادة

في فواتير منزلكم التي تعانون في دفعها شهريًّا.. فكِّر معي الآن، ما تسرفه من ماء وكهرباء لا يساعد على حصولك على حقّك كما أنك تدفعُ فاتورته مع كل من تحب.. أدعوكم للرجوع عن هذا الفعل، وسأحاول فهم ما هو السبب وراء تأخر مستحقاتكم.. أتركك الآن لتمارس عملك، وفقك الله!

كان السيد عقل يستمع إلى ما قاله مطر بانتباه شديد، ألم يقولوا: "إن طريق العقل واحد"، فهذه عبارة صحيحة.. فالمهمة الرئيسة الآن بالنسبة للسيد عقل، الذي وعى تمامًا ما قيل أمامه، هي القدرة على توضيح كل هذا بطريقة يفهمها السيد نفْس الموافق للأسطى.. وبالفعل قام بهذا:

- اسمع يا سيد نفْس! لقد أعجبني كثيرًا ما قاله ذلك الرجل، فهو محقّ فيما قال.. لو واصلنا فعل هذا سيكون لزامًا علينا تقديم منتجٍ في مقابل هذه المواد الخام التي نهدرها.. ولو لم نقدم أي منتج فسيتحتّم علينا دفع تكاليف كل هذا.. أي إننا سنكون خاسرين على أي حال.. دعك من هذا واسمح لي أن أبحث عن طريقة مناسبة للحصول على حقوقنا.

فقال السيد نفس:

- افعل ما تريد! أَسْمَعُ عبارات متضاربة من كل شخص، هذا يكفي! اصمتوا...

obeikandl.com

شراكة "مِقَلَاص" و"مِسْوَط"

نجـح مطـر هذه المـرة أيضًا فـي الوصول إلى مـراده بفضل السـيد عقـل، وأدرك أن أفضـل طريقة لإقناع البشـر هي مخاطبة عقولهـم.. ولو لـم يفعل ذلك وهاجم نفس ذلـك العامل بطريقة مباشـرة وأنّبـه بقولـه: "ما الـذي فعلتموه هذا! لقـد أخطأتم؟ هذا عمل السـفهاء؟"؛ لكان السـيد نفْس رَفض كل هذا ولم يفكر فيما فعله ولم يعترف بخطئِهِ أبدًا.

الآن حـان الدور على السـيد طَيْفُـونْ.. كان ذهن مطر قد بدأ ينسـج سـيناريوهات لما جرى، وكان أسـوأ هذه السـيناريوهات احتمـال أن يكون طَيْفُونْ هـو الذي يظلم العمال ويأخذُ أجورهم ومسـتحقّاتهم ويغتصبها منهم، لكن كان من المسـتحيل أن يفكر في أن شـيئًا كهـذا لن يلاحظه أحد. إذًا، كيف لإنسـان يعلم علم اليقيـن أنه سيُكشَـف أن يُقدم على عمل كهذا؟ فاستشـار، بصفته سلطانًا، السيد عقل ثم صعد إلى المكتب.

جلس مطر على مكتبه دون أن يُشعِر أحدًا بشيء.. كان يعتقد أن الوقت المناسب للحديث مع السيد طَيْفُونْ هو وقت الاستراحة عند الظهر، وإلى ذلك الحين يكون قد أنجزَ المزيد من أعماله المتراكمة.

كان السيد طَيْفُونْ يستعد قبل خمس دقائق من راحة الظهيرة للخروج، فخرج مطر خلفه مباشرة لأنه لن يستطيع أن يتحدث معه في حضور الموظفين الآخرين، لكن طَيْفُونْ كان قد ركب سيارته وسار بها عندما خرج مطر من المكتب، فسارع مطرُ إلى ركوب سيارته هو أيضًا، في محاولةٍ منه لتدارُكِ سرعة الأحداث، وبدأ يتتبَّع سيارة طَيْفُونْ.

بعد أن سار الاثنان بسيارتهما لبعض الوقت، وقفا أمام بائع اليانصيب، فأخرج طَيْفُونْ من جيبه رزمةً من المال وحفنةً من القسائم وأعطاها للبائع، ثم أخذ منه شيئًا يُشبه إيصال الاستلام، وبعدها ركب سيارته مسرعًا وواصل السير في طريقه، وبطبيعة الحال كان مطر يتبعه.

وصل الاثنان إلى وسط المدينة، ثم بدآ يسيران في الشوارع الجانبية، وقد شعر مطر ببعض التوتر لكونه أول مرة يدخل هذه الأماكن شبهَ السّرّية.. ولو لم يكن قد شعر بالشغف لمعرفة ماذا يفعل طَيْفُونْ في هذا المكان، لكان عاد أدراجه منذ وقت طويل، لكنه عندما رآه يركنُ سيارتَه ركنَ سيارته هو الآخر وسار خلفه متعقِّبًا إياه.

دخـلا مبنـى إداريًّا يُشـبه مكانًـا خربًا تجمـع أمامه حشـدٌ من الناس.. كانت السـلالم المليئة بأعقاب السـجائر العالقة بالبصاق تقـود مَـن يصعدهـا نحو متجـر سـرّيٍّ مغطّـى زجاجـه بالكامل بصفحـات الجرائـد.. كان ثمة حـارس على الباب فتّـش طَيْفُونْ وسـأله بعض الأسـئلة قبل أن يسمح له بالدخول.. وأما مطر فقد بدأ يصعد الدرج بحذر حتى يتسـنّى له مواجهة هذا السؤال الذي لا يعـرف إجابتـه، ذلك أن السـقوط من على هذا الـدرج المقزِّزِ كان أمرًا يقلقه.

فتشه الحارس الذي كان على الباب وسأله:

- ورق أم عظام؟

كان مطر سيعلم لاحقًا أن ما قاله الحارس هو شكلُ تصنيف الألعـاب التـي تُلعـب بالنَّرْدِ والـوَرَقِ الخاص، لكنـه قال للرجل بأسلوب مهذب لا يليق بهذا:

- ورق من فضلك!

وبينمـا كانـت عبارة "مـن فضلك" التي قالها فـي نهاية كلامه ستكشـف أمـره، فقـد غلّظ صوتـه وحاول عـدم إفسـاد الصورة المعهودة لدى الرجل بقوله: "يا رجل!".

ردَّ عليه الحارس الذي أشار إلى السلالم التي بالداخل بقوله:

- حسنًا، انزل إلى الأسفل.

أما الجانب الجيد في هذا الأمر أنه عندما بدأ ينزل على الدرج مدَّ رأسه باحثًا بعينيه عن طَيْفُونْ؛ فوجده ينزل إلى الطابق السفلي..

لم يكن ذلك المكان يشبه أبدًا المنظر الذي كان يبدو عليه المبنى من الخارج؛ فالفرقُ كبيرٌ جدًّا، إذ كانت الأرض مغطّاة بالكامل بالسجّاد الأحمر، والنحاسُ يُرصِّعُ الأعمدة ويُحيطُ بها برَّاقًا كالذهب، وكانت بعض الطاولات يجلس عليها أربعة أفراد، فيما كانت أماكن أخرى حافلةً بأشخاصٍ مصطفّين بالترتيب يستمعون إلى عملية سحب ورق اليانصيب باهتمام بالغٍ، وهم لا يصرفون أنظارَهم عن الأوراق التي أمامهم.. اختلطَ بهم طَيْفُونْ وضاعَ فيما بينهم، فغادر مطرُ المكان على الفور خشية أن يلاحظَ طَيْفُونْ وجودَهُ.. رَكِبَ سيارته وعاد إلى الشركة، وذلك لأنه رأى القدْر الذي يجب أن يراه، وإن كان شعر بالحزن لما رأى.

عاد طَيْفُونْ إلى الشركة بعد قليل من انتهاءِ فترة استراحة الظهيرة، وكان مطر قد جهّز جيّدًا في ذهنِهِ ما سيتحدث معه حوله.. لقد اتَّخَذَ قرارًا بالحديث مع السيد عقل المرافق لـ"طَيْفُونْ" لِيُقْنِعَ العقلُ بدورِهِ زميلَهُ السيد نفْس، كما أنه من المفترَض أن يشجّع السيد عقل السيد ضمير حتى يعترف بما فعل، وقد خطط لكل شيء حتى لا يحرجه أمام زملائه، ثم بدأ بالتنفيذِ، فقام ومشى مغادرًا مكتبه ثم ترك على مكتبِ طَيْفُونْ ملاحظةً على قصاصة ورقةٍ كتب فيها: "اخرج من المكتب واتبعني، يجب أن أتحدث معك".. ثمَّ توجَّه إلى الأستاذة سلمى فقال: "يا أستاذة سلمى،

لدي مهمة صغيرة في الخارج، سأعود بعد نصف ساعة"، وبعدها تبعه طَيْفُونْ مباشرة.

جلس الاثنان في السقيفة الموجودة في حديقة المصنع.. كان طَيْفُونْ إنسانًا ذكيًا، فلم يقل شيئًا وانتظر أن يبدأ مطر الحديث، وأما مطر فقد أراد أوّلًا فهمَ الوضع، فأغلق عينيه وهو يردد كلمة التوحيد بداخله، غير أنه حدث شيء لم يكن يتوقّعه؛ إذ إنه وجد نفسه أمام باب القصر الخاص بقلبِ طَيْفُونْ لا بداخله، فلم يفهم شيئًا في بادئ الأمر، لكن عندما رأى أن الباب ليس مكتوبًا عليه أيُّ شيء، أدرك الحقيقة التي سيحزن بسببها كثيرًا؛ إذ إن طَيْفُونْ أسلم عرشه إلى "مِقَلَاص" منذ زمن بعيد.

وفجأةً ظهر الخادم وبدأ يشرح لمطر ما يحدث:

– أليست هذه وضعية لم تصادِفْها في كل قصور القلوب التي زرتَها إلى الآن؟ يبدو أن السيد طَيْفُونْ تخلّى عن عرشه لصالح "مِقَلَاص".

– ومن هو "مِقَلَاص"؟

– هي وحدةٌ أخرى من وحدات جيش عزازيل، وقد أطلَقَت على نفسِها اسم أحد الشياطين الذين شكّلوها.. والمهمة الوحيدة لهذه الوحدة هي الظهور أمام الناس وإقناعهم وإغراؤهم بكل أنواع القمار حتى يستطيعوا نفيهم إلى جبل القمار.. أقول لك كل أنواع القمار، ذلك أن هذه الوحدة تسعى كل يوم لتطوير أسلحة جديدة، كما هو الحال بالنسبة لكل وحدات جيش الشر

الأخرى.. ولهذا فإن لديهم عددًا كبيرًا من الأسلحة التي يُطلق عليها الناس اسم "اللعب"، عوضًا عن القمار، لدرجة أنهم إذا فشلوا في إيقاع الإنسان بأحد هذه الأسلحة يوقعونه في الفخّ بسلاح آخر وحيلة أخرى.

- أنت محقٌّ فيما تقول، فعلى سبيل المثال ذهبت اليوم إلى مكان وجدت الجميع هناك يلعبون لعبة الورق، وأنا متأكِّدٌ أن معظمهم لا يعتقد أنه يلعب لعبةَ القمار من خلال ورق اللعب هذا.. أتذكَّرُ جيدًا أنني عندما كنت صغيرًا كنا نجلس مع أقاربنا ونلعب الورق، وعندما كنا نربح كنا نحصل على مبالغ بسيطة من المال، لكنهم كانوا يقولون لنا: ما هذه إلا لعبة لنعتبر هذه المبالغ مصروفًا للمدرسة.. ولقد رأيت اليوم بعيني أن هذا المفهوم الخاص باللعب الذي يبدأ ببراءة في البداية يتحول بمرور الوقت إلى خطر كبير وربما يجعل الإنسان يسرقُ من أجل ذلك.

- تعالَ لِنُلْقِ نظرة على الوضع بالداخل، ألا تتذكّر تلك الآية من سورة يس؟

- آاااه، نعم! لقد حفظتُها لأنها قصيرة جدًّا.

- جميل! هيّا رتِّلها لندخل.

قالها الخادم وأصبح الاثنان غير مرئيَّين، ليدخلا القصر معًا.

لم يكن هذا القصر يشبه قصر مطر أبدًا.. إذ سار الاثنان في ممرٍّ مستقيم بعد دخولهما من الباب، ثم أوصلهما الممرُّ

إلى قاعة كبيرة.. فلما دخلا القاعة وجداها مليئة بالقذارة، ووجدا رائحـةً مقزِّزةً تفوحُ من كل جانـب.. اعتقد مطر للحظةٍ أنه يتذكَّر هـذه الرائحـة الكريهة، ليس معتـادًا عليها لكنه كان وكأنه شـمَّها مـن قبـل.. وعندمـا رأى الحـارسَ الذي يقـف عند بـاب القاعة أجابَتْهُ ذاكرتُه على كل الأسـئلة التي جالت بخاطره: هذه الرائحة هـي رائحة نادي القمار الذي ذهبَ إليـه طَيْفُونْ اليوم.. فكر مطر بينـه وبين نفسـه قائلًا: "علـى أي حال لو رآنا ذلـك الحارسُ ذو الجثّـة الضخمـة والعضـلات المفتولـةِ الآنَ لَأَعادَ علينا سـؤال: "ورق أم عظام؟".

عندمـا دخلا من القاعة صار تأثيرُ هـذه الرائحة غير محتمل، وسبب كل هذا هو ذلك الذي يجلس على العرش الذي استولى عليه دون وجه حقّ.

أخـذ مطر يتلفّت يمنة ويسـرةً لِيَرى من يحكـم هذا القصر.. كان السـيد نفْس في هذا القصر يقف على أهبة الاسـتعداد لتلقي الأوامر بجوار "مِقَلَاص"، وأما السيد ضمير فلم يكن له أيُّ أثر.. لكنه شعر ببعض السعادة عندما رأى السيد عقل، لكن هذه الفرحة لم تدم طويلًا عندما شـاهده وهو مطأطئُ الرأس منهمكٌ بأوراق القمار واليانصيب التي أمامه، تمامًا كالطالب الذي يُذاكر دروسه ليلـة الامتحان.. أما الجزء المتبقي مـن القاعة فقد ملأَهُ اللاعبون المتمسِّـكون بِطاولاتِهم وأماكنهم وأوراقِهم وألعابِهم، العاشقون لها وكأنها مصدرُ الحياة بالنسبة لهم.

أمـا "مِقَـلَاص" فقـد كان ينهضُ من على عرشـه بيـن الحين والآخـر، فإذا ما لاحظَ من أحدِ اللاعبين أيَّ ضيقٍ أو تضجُّرٍ فإنّه يأتي إليه على الفور ويعقد على رأسِهِ قائلًا بِرِقّةٍ مملوءةٍ خبثًا:

"لا تنزعج وتابع اللعب! أنا هنا لخدمتكم. هيا، هيّا!".

وفعـلًا رأى مطـرُ "مِقَـلَاصَ" وهو يفعل ذلـك، وتابعه بعينيه، فرآه يعود مرة ثانية إلى عرشه ومشاعر الطمأنينة تتملّكه.

في تلك الأثناء دخل شـخص تبدو ملامحه مألوفة، لا بد أنه "الوسـواس" ناقـلُ الأخبار الذي لا غنى عنه فـي كل قصر.. كان واضحًا أن هذا المخلوق الحقير مضطربٌ من مظهره وتصرفاته، فبدأ يتحدث وهو يلتقط أنفاسه بسرعة:

– لدي أخبار سـيئة يا سـيدي، لقد كُشف أننا لم نعطِ العمال الأمـوال الأمانـة التي كان من المفتـرض أن نعطيها لهم بموجب عقد العمل الذي وقعناه سابقًا مـع السيد المدير.. ومبعوث السيد مطـر، حليفـه الذي أوكل إليه مهمة متابعة المسـألة، على وشـك الوصـول إلى قصرنا.. ولهذا ينبغي لنا التفكير في مخرج من هذه الورطة.

حينها أجابه "مِقَلَاص" بهدوء ونضج تامّين:

– مـا الـذي سـأفكر بـه أيهـا الأبلـه؟ ليفكـر السـيد عقـل في مخرج"، لكن السـيد عقل كان منشغلًا عن كلِّ هذه الأحداث بـأوراق اليانصيـب التـي لا تـزال أمامـه، فما كان مـن "مِقَلَاص"

إلا أن رفع صوته بعض الشيء قائلًا: "إني أخاطبك يا سيد عقل! ها هم قادمون ليحاسبوننا على الأموال التي خسرناها بسببك.. دعك من هذا الأمر الذي فشلْتَ فيه وفكِّرْ في إجابة نردُّ بها عليهم.

نظر السيد عقل لمدة طويلة إلى "مِقَلَاص" دون أن يكلّمه، بالضبط كما نظر طَيْفُونْ في ذهول لوجه مطر الذي فكَّر بينه وبين نفسه ففهمَ من ذلك أن هذا الصمت نتيجةٌ لأن شيئًا لا يخطر على باله. ثم كسر "مِقَلَاص" وهو غاضب موجةَ الصمت هذه بقوله:

- افعلْ ما يجب عليكَ فعله! لا أريدك أن تقفَ صامتًا هكذا عندما يأتي مبعوث السلطان مطر!

همَّ مطر للخروج من القصر، لكن خطر على باله شيءٌ فهمس به في أذن الخادم:

- لا أرى السيد ضمير، فلو كان حاضرًا لكان من الممكن أن يتخذ أي إجراء قبل أن تصل الأمور إلى هذا الوضع، أين هو؟

- لو أراد شيطانٌ من جيش الشرِّ الجلوسَ على العرش فإن أوَّل ما يفعله هو سجن السيد ضمير، وطالما ظلَّ على قيد الحياة فثمة احتمال أن يخرج من السجن، غير أن هناك كثيرين منهم لم يستطيعوا الخروج طيلة حياتهم.. ولهذا فإن إحدى مهامنا كخادمين هي تهريب السيد ضمير من السجن في مثل هذه الحالات وجعله يلتقي "السلطان روح".. لو نجح هذا الأمر من الممكن أن يعود العرش لصاحبه مجدَّدًا.. لكن هذه المهمة

أصعبُ مما تتخيّل، وأنت لستَ مستعدًّا لهذا القدر من المشقّة في الوقت الحالي على الأقلّ.

فاستغرب مطر كلام الخادم وسأله:

- ماذا تعني بأنني لستُ مستعدًّا؟! لقد علَّمْتَني الكثير من الأشياء، حتى إنني أشعر بأني جاهزٌ لأيِّ مهمة.

فأجابه الخادم بَردٍّ يستحق التفكير:

- هل تعلم ما اللقب الذي نطلقه على الخادم الذي لم يحن وقت نضجه بعد: إنّه لقب "المهزوم".. أي إنك لا تعتبر خادمًا بما تحمله الكلمة من معنى.. فكما أن باستطاعتك فعل بعض الأشياء، هناك أمور أخرى لستَ قادرًا على إنجازها.. لهذا عليك أن تتحلى بمزيد من الصبر.. لا تقلق، ستفهم قريبًا ما أريد قولَهُ.

بادر مطر بمخاطبة طَيْفُونْ بعد لحظة واحدة مرَّت عليه وهو مغلقٌ عينيه:

- اسمع يا سيد طَيْفُونْ، لا أريد أن أوجِّهك إلى الاتجاه الخاطئ بالأسئلة التي سأطرحها عليك.. لهذا فمن الأفضل أن تحكي لي ما تعرفه بشأن مستحقات العمال عن ساعات عملهم الإضافية الشهر الماضي، هيا تفضّل.. كلِّي آذانٌ صاغية.

كانت هذه البداية بداية رائعة لدرجة أنها جعلت السيد عقل الذي كان ينتظر الأسئلة يتوقّف عن التفكير للحظة، ثم سرعان ما وضع في نيته أن يسرد على مطر أصل القصة الحقيقيّة؛

إذ لـم تُتَـحْ لـه الفرصة أن يختلِـقَ قصّـة كاذبة.. لكن شـيئًا ظهرَ لـم يكن في الحسـبان، فشـعر مطـر بالغرابة، فدخـل القصر على الفـور.. وإذ بـ"الوسـواس" قد جاء مهـرولًا، ويُخاطبُ "مِقَلَاص" بِحيرةٍ وعجالة:

– يا سيدي! لقد ذهبت إلى "السيد مِسْوَط" دون تضييـع وقت كما أمرتَ، وجئت بكل ما قاله مكتوبًا.. هل أقرأه عليك؟

– لا داعي لقراءتك، علينا ألا نضيـع المزيد من الوقت، فربما نصبحُ بعد ذلك في موضـع شـكّ.. أعطِ مبعوث السـيد مطر هذا وقل له لينقله إلى سيده.

وبعدهـا أخذ "مِقَلَاص" من يد المبعوث ما أعده السـيد عقل وأعطاه الخطاب القادم من "مِسْوَط" وأَذِنَ له بالمغادرة.

كان يجـب على مطـر أن يصل فورًا قبل مبعوثه، لكن شـغفه منعه هذه المرة كذلك، فسأل وهو متعجل الخادم الذي كان يقف جانبه:

– من مِسْوَط هذا ومن أين أتى؟

– هي وحدة أخرى من وحدات جيش الشرّ؛ إذ يجري اختيارُ أذكـى الشـياطين للالتحـاق بهـا.. مهمّتهم الوحيـدة هي اختلاق الأكاذيب.. فمبعوثو الشـياطين وكذلك الأنفـس يأتون دائمًا إلى مقرّ القيادة ويحصلون على ردود وسيناريوهات كاذبة بشأن الكثير مـن الحالات المختلفة.. فما إن غـادرتَ المكان فعل "مِقَلَاص"

الشيء نفسه، ولهذا سيردّ عليك فورًا بِردٍّ كاذب جاءه من مِسْوَط.. لقد تعجل لأنه إذا صمت عن الرد -ولو لبرهة- سيثير الشكوكَ حوله، وعليه فربّما كنتَ ستدرك أنه يكذب عليك.. فصدّقني لو لم ترَ ما حدثَ هنا لكنتَ صدَّقْتَ بما جاء في خطاب مِسْوَط.. ولهذا سيكون من الأفضل أن تلحقَ به الآن.

عندما فتح مطر عينيه كان طَيْفُونْ قد بدأ الكلام:

- اسمعني يا أستاذ مطر، لن أحكي لك كلَّ مشاكلي لأجعلَكَ تشعر بالشفقة تجاهي، لكن ما أريدُكَ أن تعلمَهُ هو أن والدتي الغالية خضعت العام الماضي لعمليّة جراحيّة خطيرة جدًّا، وكانت هذه العملية مهمّة للغاية بالنسبة لها؛ إذ اعتبرها الأطبّاء الطريقةَ الوحيدةَ لتبقى على قيد الحياة.. تخيّل أن لولا هذه العملية لكنتُ سأفقد والدتي الحبيبة.. كانت هذه العملية باهظة الثمن، بقدر أهمّيتها، فحصلت على قرض من البنك لتسديد نفقاتها.. وعندما عجزت عن دفع هذا القرض حصلت على دين من أحد المرابين.. واليوم فإنّ شبكةَ عصابات "المافيا" تضغط عليّ، لتكون روحي هي دية روح أمي العزيزة.. لهذا فكرت في كل الطرق لأسدِّدَ ديني لهم، وفي نهاية المطاف علّقْتُ آمالي وأنا عاجز على ألعاب الحظِّ.. وأريدُ أن أكون صادقًا معك، لقد أخذتُ مستحقّات العمّال عن ساعات العمل الإضافية كأمانة، وكنتُ سأعيدُها بعد بضعة أيام، لكن الرياح أتت بما لم تشتهِ سفينتي؛ فاليوم لم أكن على طاولة طعام الغداء لو لاحظتَ ذلك.. أحاول وسأحاول جاهدًا أن أستدرِكَ خطئي هذا بشكلٍ أو

بآخر.. لذا أرجوك أن تسمحَ لي ببعضِ الوقت.

أثّرت عبارات طَيْفُونْ كثيرًا في مطر.. فكما قال الخادم بالضبط، كان يمكن أن يصدق ما قاله طَيْفُونْ بسهولة لو لم يعلم ما حدث في الواقع، حتى إنه كان من الممكن أن يخرِج جميع الأموال التي في جيبه ويعطيها إليه رأفةً به.. لكن الآن يعلم أن كل ما قاله كذبٌ، كما أنه كان مدرِكًا أن لا فائدة من مخاطبةِ قصرٍ محرومٍ من السيد ضمير.. لم يستطع سوى قول: "حسنًا، لِنحاول تسيير الأمور على هذا الوضع لمزيد من الوقت".. حينها تيقن أن الخادم كان محقًّا، وأنه ليس مستعدًّا تمام الاستعداد لمواجهة وحلِّ كلِّ مشكلة تعترضه.

كان ذهن مطر مليئًا بالأسئلة أيضًا وهو في طريقه عودته للمنزل في ذلك اليوم، "داسم"، و"زلنبور"، و"مِقَلَاص"، و"مِسْوَط".. ومن يدري كم من وحدةٍ أخرى في جيش الشرِّ هذا.. لكن متى سأتعلّم كيف أحارب كل هذه الوحدات وكيف سأنقذ الأبرياء من بين أيديهم؟ يقول الخادم إنني لست مستعدًّا، ربما يكون مُحقًّا لكن لو استمر الوضع بهذه الحالة فلن أستطيع أن أكون جاهزًا أبدًا.. ما الذي سأحصل عليه سوى أنني سأتعلم أسماء الشياطين والمهام التي يقومون بها؟ متى سأكون خادمًا حقيقيًّا؟ ليتني أجدُ طريقًا أسرع لهذا الأمر!"..

لكنه لم يكن على علم بالمستقبل القريب الذي كان بانتظاره.

obeikandl.com

الخطر الداهم: "الأعْوَر"

كانت الأيام تتعاقب بسرعة في حين كان مطر لا يزال يتلقّى الدروس من الخادم حول أصناف الشياطين ووظائفهم.. خلال تلك الفترة تعرّف إلى وحدة "ثَبْر" التي تُعتبَرُ مهمّتها التقرّب من الناس وقت وقوع المصائب وتحريضهم على التمرّد.. فهذه الوحدة تمنع البشر من التفكير في أن المصائب التي يتعرّضون لها إنما هي مرسلة إليهم من عند الله بغرضِ ابتلائهم، وتجعلهم يقولون عبارات متمردة من قبيل: "وهل كانت هذه المصيبة تنقصني؟"، "إن المصائب تسع ورائي!"، "ألا لعنة الله على هذه الدنيا!"؛ إذ كانت مهمة هذه الوحدة هي تحريض الناس على التمرُّد والعصيان.

عرفَ مطر كذلك الشيطانين "خَنْزَب" و"الوَلَهَان"، وهما شيطانا الوضوء والصلاة، ومهمّتهما الأساسية هي استغلال الحيل والألاعيب التي لا تخطر على عقل بشر من أجل ألّا يقترب الناس من الوضوء والصلاة، ولو اقتربوا منهما يجعلانهم يبتعدون عنهما فورًا، وذلك رغبة منهما في أن يحيد الناس عن طريق الحقّ.

obeikandl.com

كما أن هناك "الأعْوَر" الذي لم يتعرف إليه مطر بعد، ذلك أنه ليس لديه علم حتى بوجوده، ويا ليته ظلَّ كذلك!

وذاتَ يوم وبينما كان مطر يركب سيارته في جراج الشركة مساءً إذ فَزِعَ من صوتِ نقرِ الزجاجِ بالأصابع.. نظرَ فإذ به يرى "السيدة سَمَر" سكرتيرة المدير العام للشركة، وكان مطر يراها كلّما تردد على مكتب المدير خلال أيام الأسبوع، لكنه لم يكن قد لاحظ جمالَها الفتَّانَ حتى تلك اللحظة.. همست بصوت رقيق:

- هل لي أن أطلب منك شيئًا يا أستاذ مطر؟

- بالتأكيد، تفضلي.

- هناك موضوع أريد أن أتحدث معك بشأنه، وسأكون سعيدة لو أعطيتني القليل من وقتك.

وقبل أن يرد مطر انتقلت إلى الجهة الأخرى من السيارة وفتحت الباب وركبت وجلست بجواره على الكرسي الأمامي.. لم يستطع مطر إلا أن يقول لها بنغمة خجولة ومرتعشة بعض الشيء:

- أأاا... تفضلي يا أستاذة سمر، أسمعك.

كانت رائحة العطر النفاذة تفوح من السيدة "سمر"، فملأَتْ كلَّ ركن من أركان السيارة.. في تلك الأثناء استغلَّت "سمر" إحراج مطر وبادرته قائلة: "لا يمكن أن نتحدث هنا، نحن في وقت انتهاء العمل ويمكن لأحدهم أن يرانا.. أعرف مكانًا

رائعًا يمكننا التحدث به ونحن نتناول بعض الأطعمة الخفيفة"، ولم تمنحه حتى فرصة ليفكر فيما قالت، بيد أنه ما كان له أن يفكر حتى ولو أتيحت له الفرصة، ذلك أنه نسي نفسه أمام تسارُعِ وتيرة الأحداث وجاذبية السكرتيرة الحسناء، مما جعلَهُ يُشغّل سيّارته وينطلقُ إلى المطعَمِ دون تفكير.

استغرق تناولهما للطعام مدة طويلة ساد خلالها الصمت أحيانًا بنظرات رسائليّة ذات مغزى، وأحيانًا أخرى بضحكات عالية الصوت، ثم ركب مطر سيارته حتى يوصل السكرتيرة "سمر" إلى منزلها.. وصلا إلى المنزل بعد رحلة قصيرة استغرقت حوالي عشرين دقيقة، وحينها أظهرت "سمر" نيّتَها السيّئة التي لم يشعر بها مطرُ حتى تلك اللحظة، مستخدمةً كلمات غير صريحة، وذلك عندما تصرَّفت بشكل سريع واقتربَتْ منه قليلًا، وعبَّرَت عن شعورِها براحة عجيبة وكأنها حازت شيئًا كانت تحاول الوصول إليه منذ زمن بعيد، وأما مطر -الذي تجاوب مع هذا التقارب- فكان عكسها تمامًا؛ إذ انزعجَ وقد خالطه شعورٌ كالذي فرّط في شيء رغب به لفترة طويلة.. كان وكأنه أفاق في تلك اللحظة من الغيبوبة التي أصابته منذُ أن ركبت السيدة "سمر" سيارته، حينها أدرك حجم الخزيِ الذي وقع به، فقال وهو مرتبكٌ:

- آاا.. عليَّ أن أذهب.

نزلت السكرتيرة الحسناء من السيارة، فانطلَقَ مطر بسيّارتِهِ دون أن تفهم السيدة "سمر" ما الذي يحدث.

عجزَ مطر عن التنفُّس بحريّة حتى بعدما أنزل زجاج السيارة وأرخى ربطةَ عنقه قليلًا.. كانت نيران الندم قد اشتغلت بداخله وصار لهيبُها يزدادُ بمرور الوقت، فيما كان يُفكِّرُ في أن الموت هو الطريقةُ الوحيدة لإطفاء هذه النار.. وصل به الأمر حتى إنه لم يعد يرغب في مواصلة حياته، ولم يستطع حتى رفع رأسه لينظر إلى الطريق، وحتى إن نظر لم يكن يرَه شيئًا بسبب دموعه المنهمرة الغزيرة.. كان يسير بالسيارة، لكن لم يكن يعلم إلى أين؛ إذ ترك لنفسه العنان ولِسيَّارتِهِ الحرّية.. لم يكن يُحاول التقاطَ أنفاسِهِ، كما لم يكن مهتمًّا إلى أين هو ذاهب.. لم يكن قَلِقًا بشأن من أين سيأتيه الموت، كان ينتظرُهُ فقط.

لم يكن يعلم كم هي المسافة التي استطاع قطعها بسيارته وهو في تلك الحالة البائسة، لكنه أدرك بعد ذلك أن السيارة اصطدمت بشيء ما عندما سمع صوتًا مفاجئًا كالصاعقة وشعر بهزة عنيفة.. ولما نزل من السيارة ليشاهد ما حدث لم تكن دموعه قد توقفت بعدُ.. وعندما وقعَ نظرُه على خاتم الخادم في أصبعهِ ازدادَ لهيبُ النار بداخله لدرجة أنه كان من المستحيل إطفاؤها.. كان يبدو أن الأضرار التي لحقت بسيارته ليست كبيرة؛ إذ ارتطمت مقدمة السيارة من الناحية اليمنى بالرصيف واعتلته حتى اصطدمت بشجرة، لكنه حاول إعادة تشغيل السيارة عدة مرات دون فائدة ولا جدوى.. أما الجانب المثير في الأمر فهو أن أغصان الشجرة التي ارتطمت بها السيارة كانت تمتد حتى جدار

المقبـرة.. لـم يكن يعلم كيف أتى إلى هنـا، لكنه كان يدرك جيِّدًا إلى أين ستكون وجهته.

عندمـا تذكر مطر كلام الخادم أسـرع مـن خطواته، وقال بينه وبين نفسه: "المهزوم.. المهزوم.. المهزوم.. وكأنه كان يعلم أنني سـأكون كذلـك.. ألم يكن ما مرَّ به هزيمة بـكل ما تحمل الكلمة مـن معنـى؟ أم أن الخـادم كان يقصـد كل مـا حـدث عندما قال: "لا تقلق، ستفهم قريبًا ما أريد قوله"؟!!

هـمَّ مطـر بالقفز من أعلى جدار المقبـرة لدخولها، وبينما هو كذلك تجسَّـد أمام عينيه مجيؤُه إلى هذا المكان قبل حوالي (٧-١٠) أيام من أجل عملية إنقاذ وما مرَّ به بعد ذلك.. وكان كل شيء يتذكّره يزيد من حزنه وشدة النار التي بداخله.. هل صار السلطان مطر أسيرًا لامرأة بعدما نجحوا في إنقاذه بمساعدة الخادم؟!

كان يشـعر بالقهـر والانكِسـارِ كلمـا فكـر فـي كيف سـينظر إلى وجه الخادم، حتى إنه خلـع من إصبعه الخاتم الذي اعتقد أنه لم يعد يستحقّه حتى يعيده إليه، وأمسكه بإحكام.

مـا إن وصـل إلى المقبرة حتـى انغلقَ على نفسـه وبدأَ يبكي بأعلـى صوته.. هدأَ بعد برهة، وذلك لأنه لم يعد لديه المزيد من الدموع ليسـكبها، وحينها لمست كتفَهُ يدٌ جعلَتْهُ يفيق من حالته.. وسمـع الصوت القائل:

- هل تعلم لماذا اختار جدك لك اسم مطر؟

– هل أسماني مطر حتى يموت الناس بسبب الجفاف وهم ينتظرون الرحمة التي تأتي منّي؟

– لا، فكما أن المطر سببٌ لرحمة الناس، كن أنت كذلك سببًا للرحمة لينجو الناس.

نعم، كان اللقاء الذي جمعهما للمرة الأولى قبل نحو أسبوعين يتكرّر الآن.. عندما سأله مطر في هذا اللقاء الأول: "من أنت؟" أجابه الخادم: "أنا الخادم، مثلك تمامًا".. وبينما كان مطر في واقع الانهزامِ والتفكيرِ في تركِ هذا الأمر ظنًّا منه أنه ليس أهلًا له تذكَّرَ قصَّةً توضِّح بُؤسَ تاركِ الخدمة.. كان جدُّه قد قصّ عليه هذه القصّة من قبلُ على النحو التالي:

كان الصوفيّ التركيّ الشهير "يونس أمره" قد ابتعد لأيام عن تكيّة مرشدِهِ الشيخ "طَبْتُوكْ"، فعندما شعرَ بالندم وعاد إليها وضع رأسه عند عتبتها وانتظر ليسامحه المرشد. فلما رأته زوجة مرشده على الباب أشفقت عليه كثيرًا، وقالت له وهي تريد مساعدته:

– سأذهب الآن لأحضِر الشيخ إلى هنا، فهو قد طعن في السن ولم تعد عيناه ترى، وعندما ترتطم قدمه بك وهو خارج من الباب سيسأل من هذا؟ فسترد عليه وتقول أنا يونس.. فلو سألك أي يونس؟ هل يونس الذي نعرفه؟ اعلم أنه سامحك.. وأما إن سألك أي يونس؟ وسكت؛ فاعلم أنه لا يزال غاضبًا عليك.

ويُفهمُ من هذه القصّة أن الإنسان بتركِه للخدمة يفقدُ قلبه.. فمهما انهزمَ وابتعد لا بد له أن يرجع حتى يعود إليه قلبه..

كانت الفرصةُ مواتيةً ليختبر مطر ما إذا كان قد طرأَ تغييرٌ على أسلوب الخادم في الكلام أو لا:

- ومن أنت؟

- أنا الخادم، مثلك تمامًا.

شعر مطر ببعض الراحة لهذا الردّ الذي سمعه، فنهض وأدارَ وجهه نحو الخادم وقال:

- سامحني بالله عليك، لكني لن أستطيع أن أؤدّي هذه المهمة.. أنا عاجز عن مساعدة نفسي فكيف لي أن أساعد الآخرين؟ اعذرني، أرجوك أن تعطي هذا الخاتم المقدس إلى من يستحقّه.

قدّم مطر الخاتم الذي كان في يده إلى الخادم الذي أخذه ووجهه كالعادة تعلوه ابتسامة عميقة وحالةٌ من السكون والهدوء المعبِّر، لكنه أعاده إلى إصبع مطر وقال له:

- لا تتَّخِذْ قرارَكَ بهذه العجلةِ، تعالَ لنجلِسْ قليلًا، أريدك أن تصغي جيّدًا لما سأقول.

ثم أمسك الخادمُ ذراعَ مطر وجلسا بجوارِ قبرٍ، وبدأ الخادمُ يحكي:

- تتذكَّر من أين بدأَتْ رحلتُنا في المرة الأولى، أليس كذلك؟ لقد رأينا معًا عداوة عزازيل لسيدنا آدم عليه السلام وانتصاره على سيدنا آدم في أول معركة بينهما، لكننا لم نرَ نصرًا ثانيًا له على سيدنا آدم عليه السلام بعد هذا النصر، فلماذا في رأيك؟

- ليس لدي أدنى فكرة.

- حسنًا، إذًا سأشرح لك هذا الأمر بلغةٍ تفهمها.. هناك شيءٌ اسمه "تسلسل الاحتياجات الهرميّ"، أي إن الإنسان لا يُدرك احتياجاته التالية دون أن يلبّي بعض احتياجاته الأصليّة.. تخيّل معي: رجلًا تُرك وهو عارٍ كما ولدته أمه على قمة جبل، فأيُّ شيء يحتاجه أولًا؟

- بطبيعة الحال سيكون بحاجة إلى رداء يستر عورته.

- صحيح! فلنفترض أنه بحث طويلًا حتى لبّى هذا الاحتياج، فماذا يريد بعد ذلك؟

- يمكن أن يرغب في إشباع بطنه.

- بكل تأكيد! سيرغب في تلبية احتياج الماء والطعام.. وبعد ذلك من الطبيعيّ أنه سيُحاول العثور على مكان يأوي إليه.. وبهذه الطريقة يتواصل تسلسل الاحتياجات الهرمي.. فكلّما لبّى احتياجًا من احتياجاته يبدأ بالشعور بوجود احتياج جديد.. فهل تعتقد أن رجلًا في هذه الوضعية يمكن أن يفكر في المتعة أو الراحة أو الرفاهيّة قبلَ أن يفكر في إيجاد ما يرتديه أو يسدّ به جوعه؟!

- لا أعتقد ذلك أبدًا!

- فبهذه الطريق عوقب سيدنا آدم عليه السلام بعد أوّل خطإٍ ارتكبه؛ إذ انتُزع منه لباس الجنة وأُنزل إلى الأرض على قمة جبل..

فلـو لاحظتَ فإن هـذا ليس عقابًا في الحقيقة، بل مسـاعدة حتى يهتم باحتياجاته البسـيطة ولا ينخدع بألاعيب الشيطان.. لم يركز آدم عليه السلام وهو في هذه الحالة إلا على احتياجاته في ذلك الوقت؛ إذ إنّ الوضعيـة التـي كان فيها متعبة لدرجة أنه لم يكن لديه وقت أو قـوة أو إمكانيـة يخصّصهـا للمتعِ أو الرفاهيـة أو حتى الراحة التي كان يدعوه إليها الشيطان.

– فـي الواقـع هذه ملاحظـات رائعة.. أتذكر أننـي ذات مرة فقـدتُ كلَّ مالـي، وكنـت حينها طالبًـا جامعيًّا بعيـدًا عن بلدي، فاضطررت حينها لأذهب إلى الامتحان سـيرًا على قدمي ماشـيًا لأننـي لا أملـك ثمن الركـوب.. وعندما عدت متعبًـا إلى المنزل فكَّـرْتُ بمـا أننـي لا أملـك من المال شـيئًا أبدًا فليسَ ثمة شـيءٌ يدعونـي للخـروج من المنـزل.. أتذكر أنني لم أخـرج من البيت لعدة أيام.. وبطبيعة الحال لم أرتكب أيَّ ذنب، فكنتُ أشـكر الله وأُشْبِع بطني بالبقوليات التي كانت في المنزل فقط، وذلك لأني لم يكن لديّ المزيد من الإمكانيات.

– ثمـة شـيء آخـر، لكنه يخصّك أنت مباشـرة.. كان سـيدنا آدم عليه السلام قـد حُـرم مـن العديـد مـن النعم التـي لـم يجتهد حتى يحصل عليها، على أن الله وعده بأن يعيد له هذه النعم شريطة أن يقضـي ما بقي من عمره وهو يحيا حياة صالحة.. وهذه الخاصية صاحبت الإنسـان منـذ خلقه، فبقدرِ الجهد الـذي تبذله من أجل الحصـول على شـيءٍ تريدُه تكـون الأهمّيّة التي توليهـا له عندما تحصـل عليه.. الأمر نفسـه ينطبـق عليك أنت أيضًـا.. فكِّرْ قليلًا

فـي النعم المعنويـة التي حصلـتَ عليها بعدما تعرّفـت إليّ، لقد أصبح بإمكانك الدخول إلى عالمك الداخلي أو عوالم الآخرين الداخليـة فـي الوقت الذي تريـده.. وبينما لا يسـتطيـع الآخرون رؤية عدوهم؛ فأنت لم تره فقط بل عرفت أسـماء وحدات جيشه ووظائفهـا.. لكـن النعم التـي وُهِبَتْ لك دون عنـاء أُخذت منك الآن.. لقد خدعك الشيطان الذي يدعى "الأعْوَر" الذي لم تتعرّف إليه حتى هذه اللحظة.. فوحدة جيش الشر هذه مهمتها تزيين الزنا للنـاس وإغراقهم في هذا المسـتنقـع، ولقد تحيَّنَـت هذه الوحدةُ حينًـا خاصًّا فاقتنصت فيه الفرصـة حتى انقضّت عليك في لحظة لم تتوقعها أبدًا.. فالوزير الأكبر السـيد نفس والقائد شـهوة تمرَّدا عليـك بعدما اتّبعا تعليمـات تلقَّوها من "الأعْوَر" مسـتغلين عدم وجودك على عرشـك، وكبّلوك -أي السـلطان مطر- بالسلاسل، ووضعـوا شـريطًا لاصقًـا على فم كلٍّ من السـيد ضمير والسـيد عقل.. ولم يكن هناك أحد آخر يُقدِّمُ لكم المساعدةَ أو الحماية.

- أنـت محق فيما تقول، مرّت هذه الدقائق وكأن عقلي ليس فـي مكانه، وكأنني أرى حلمًا، حدث كل شـيء دون أن أدرك أو أستطيـع أن أحكم مملكتي كسلطان.

- كما قلت لك، أنت بحاجة إلى قوة مسلحة تستطيـع حمايتك كسلطان في مواجهة السيد نفْس والقائدين شهوة وغضب.. تمامًا كمـا تـرى الأمور في العالم الخارجي وهي تسـيرُ بهذه الطريقة.. فمن يمتلك السـلاح يستطيـع ممارسـة الضغط والتهديد ويجعل

الآخريـن ينفـذون ما يريد.. فكّرْ في تشـكيل فريـق خاص وقوي جدًّا يستطيـع حمايتك في مواجهتهم ويجعلهم يطيعونك".

- كيف لي أن أفعل ذلك؟

- هـل يمكن للرحمة أن تنـزل دون بذل الجهد يا مطر؟ فمن أجل أن تحصل على كل تلك النعم التي حصلت عليها في البداية وأكثـر مـن ذلك عليـك أن تكافح وتبذل الجهد كما فعل سـيدنا آدم عليه السلام.. إنـك بحاجة إلى أربعين يومًا تقضيهم في جهد وجوع وعطش وتعب من أجل تشكيل هذا الفريق الخاص وتدريبه.

- أين وكيف ستمر هذه الأيام الأربعون؟ وكيف سيكون ذلك ممكنًا ولديّ أسرة وعمل؟

- لا تقلق! لقد جهّزنا كلَّ شيء، المهم أن تطلب أنت ذلك.. أربعـون يومًـا تقضيها في مكان لا يمكن أن يرتفـع فيه التسلسـل الهرمـي للاحتياجات إلـى مراحل أعلى من المراحل الأولى، أي داخل كهفٍ ما.

- أرغـبُ فـي فعـل ذلك إن لـم يكن ثمة طريـق آخر لأكون خادمًا مثلك، لكن عليك أن تكون بجانبي.

- للأسـف هذا مسـتحيل يا مطر؛ ذلك أنك في ذلك المكان سـتواجه جميـع مخاوفك وحقائقـك وأكبر أعدائك.. سـتموت في ذلك الكهف ثم تولد من جديد.. ولو جاءني إذن من "حظيرة القُدس" سأحاول زيارتك بين الحين والآخر، لا تقلق!

- لكن سيارتي لا تعمل، كيف سنغادر المكان هنا؟

- لقد جهزنا هذا الأمر أيضًا، تعال لنسير حتى نصل إلى الباب.

عندما وصلا إلى الباب لاحظ مطر أنه مفتوح، فلم يتعجّبْ أبدًا؛ إذ اعتاد خلال الفترة التي قضاها مع الخادم على كل الأشياء العجيبة لدرجة أصبح معها لا يتعجَّبُ إلا من أشياء قليلة ونادرة، ولو استثنينا الأعْوَر فبإمكاننا القول إنه لم يعد هناك شيء يصيبه بالدهشة..

كانت هناك سيارة ذاتُ كفاءةٍ عالية تنتظرهما على حافّة الطريق، وكان مطر يعرف جيّدًا صاحب تلك السيارة الفارهة، لأنه كان يعرف هذه السيارة التي كان يراها كل يوم في مكانها الخاص في مرآب الشركة، إنها سيارة مدير الشركة "السيد عادل"!!! حتى إنه عندما نظر بدقّة أكبر شاهده، أي السيد عادل، وهو يجلس أمام المقود!! فلم تكن المفاجآت مع الخادم لها نهاية.

فتح الخادم الباب الخلفي للسيارة ليركب مطر، وركب هو في المقعد الأمامي، ثم طرح على مطر سؤالًا مشوبًا بالمزاح:

- هل تعرف السيد عادل!

- كيف لي ألّا أعرفه؟ إنه صاحب الشركة التي أعمل بها.

- لو كنت مكانك لما استخدمت تعبير المعرفة لوصف علاقتي به إن كان هذا كل ما تعرفه عنه.. السيد عادل خادم متميز وصديق مقرّبٌ لجدّك.

بينما قال الخادم هذا الكلام لفتَ انتباهَ مطر الخاتَمُ الذي كان في إصبع السيد عادل، ولاحظ حينها أنه لم يلاحظ أبدًا هذا الخاتم من قبل رغم أنّه رآه عدة مرات قبل ذلك.. كان ذلك الخاتم يُشبه تمامًا الخاتم الذي في إصبعه باستثناء فرق صغير.. كانت ثمة إشارة في كلا جانبي الخاتم، وربما لم يستطع فهم الإشارة جيدًا بسبب الظلام، لكنها كانت إشارة تشبه الإشارة المرورية التي تعني "ممنوع الدوران للخلف".. شعر مطر بشغف كبير لمعرفة السرّ وراء هذه الإشارة، لكنه لم يستطع أن يسأل بسبب احترامه للسيد عادل أو ربما بسبب خجله منه.. لكن السيد عادل بدأ يتحدث لتأكيد ما قاله الخادم:

- أعتقد أن كوني شابًّا يحتّم عليّ أن أشرح لك كيف كانت تربطني صلة صداقة مع جدك.. رضي الله عن ذلك الإنسان المبارك الذي تعرفت إليه عندما كنت في المرحلة الثانوية.. لقد ساعدني عندما كنت أنتظر يدًا تنقذني ونَفَسًا يعيد إليّ الحياة بعدما غرقت في مستنقع أكبر من أن يتحمله عمري الصغير.. عرّفني إلى مجموعة من الأصدقاء الأوفياء المخلصين الذين في سنّي وكان إلى أن وافته المنية لا يُخاطبني إلا بعبارة "يا صديقي!".. ومن ناحيتي فعلت ما بوسعي منذ ذلك اليوم حتى أكون أهلًا لهذه المعاملة الطيبة التي عاملني بها، وسأواصل بذل ما بوسعي من جهد حتى الممات.

تدخل الخادم في الحوار بسؤال طرحه:

- لا تزال تتذكر الطريق إلى الآن، أليس كذلك؟".

- كيف لي أن أنسى؟ سأظل متذكرًا لهذا الطريق الذي سرت فيه كي أقتل عادل العاصي وأعود بعدما أَحْيا من جديد بإرادتي.. كذلك لن أنسى هذا الخاتم الذي أهديته إليّ، ويعتبر بالنسبة لي رمزًا للوفاء بالعهد، ولقد ذكّرَني دائمًا بالكهف في أصعب أوقاتي والحالات التي كنت فيها أضعف ما يمكن.. فلم يُنسني الوعد الذي قطعته على نفسي أمامك عندما ألبَستَنيه في إصبعي.. واليوم، أشعر بالشغف بشأن الخاتم القديم الذي استَعَدْتَه ذلك اليوم، ماذا فعلت به؟

- هو اليوم في إصبع صاحبه المؤقت ينتظر أن نغيره بخاتم جديد.

openkandl.com

القبر أم رحم الأم؟

"موتوا قبل أن تموتوا!"

وقفوا خارج المدينة في طريق ضيّقٍ كالممر؛ إذ لم يكن من الممكن أن يسيروا فيه بالسيارة، فنزلوا منها، وحينها عبَّر مطر عن تردُّدِهِ بلهجةٍ حَذِرَةٍ بعضَ الشيء:

- وماذا عن زوجتي "رهنما"؟ ماذا لو قَلِقت بشأني؟

- لا تقلق! السيد عادل وزوجته ذهبا إليها وأوضحها لها الأمر.. لكن بطبيعة الحال لم يحكيا لها كل التفاصيل.. كن مرتاحًا، هي ستقيم خلال الأربعين يومًا المقبلة في منزل والدها.. ولقد أرسلتْ لك الأشياء التي أعدَّتْها لك.

ثم أعطاه الخادم كيسًا متوسط الطول.. عندما خطرت زوجته على باله تذكر مطر مجددًا خطأه الذي ارتكبه في المساء، فامتلأت عيناه بالدموع فورًا.. وفي تلك الأثناء طلب الخادم من السيد عادل أن ينتظر داخل السيارة، فاحتضن السيد عادلُ مطرَ وودعه قائلًا:

obeikandl.com

– لا تقلق يا مطر، سيكون كل شيء جيدًا بالنسبة لك.. ربما يكون من غير المناسب أن أقول لك إننا دفعنا للعاملين بالشركة أجورهم المستحقة تمامًا، ولكن فكرت في أن هذا ربما يريحك بعض الشيء. فالسيد طَيْفُونْ جاءني بعدما تحدث معك وقال لي إن ضميره ظلَّ يؤنّبه.

في تلك الأثناء كان مطر ينظر إلى التوهّج الموجود في عيني الخادم، وكان يبدو أن اليوم كذلك ثمة عملية إنقاذ ثانية.

بدأ مطر والخادم يسيران في الطريق الحجري الممتد من أسفل الجبل إلى أعلاه، وبدأ الخادم فورًا في شرح كل ما يجب عليه شرحه وهما يصعدان إلى الكهف:

– هل تتذكر عندما رأينا في الرحلة التي خرجنا فيها إلى قلبك خمسة أنهار تصب في البحيرة الموجودة خلف القصر؟

– نعم، حتى إنني أخذت أشاهدها لمدة طويلة من النافذة في أول ليلة أقمت فيها هناك.

– الواقع أن تلك الأنهار هي أهم شيء في المسألة، فجميع أعضاء الجسد والقوات الموجودة في عالمك الداخلي مثل السيد نفْس والقائدان شهوة وغضب يتغذون من هذه الأنهار.. فلو تغذوا على أشياء نظيفة يصيرون مطيعين، أما إذا تغذوا على أشياء خبيثة يصبحون عصاة متمردين.. ولهذا يجب أن يكون كل ما تراه بعينيك وتسمعه بأذنيك وتفعله بيديك ورجليك وتقوله بلسانك وترسله إلى معدتك حلالًا طيبًا دائمًا.. لو تتذكر كنت

قـد تحدثت معك حول تأسـيس "محطـة التوبة للتنقيـة" لتنظيف الميـاه المجمعـة في البحيـرة، لكنك لو حاولـت تنظيف البحيرة مـن جهـة ومـن ناحيـة أخـرى كانت الأنهـار تنقـل مياهًـا ملوثة إلـى البحيرة من جهة ثانية؛ فإن جهودك سـتذهب أدراج الرياح.. علـى مدار هـذه الأيام الأربعين سـنقطـع الميـاه القادمة من هذه الأنهـار، فهـذه الأيـام الأربعـون سـتكون كافيـة لتنظيـف المياه الموجـودة فـي البحيـرة، كما أنها سـتكفينا لتشـكيل فرقة خاصّة تُدعـى "فرقـة الإرادة" التي ستسـاعدنا علـى تدفُّق الميـاه النظيفةِ من تلك الأنهار.

- وكيف سأشكل هذه الفرقة الخاصة؟

- يمكن تشكيلها عندما لا تأكل أو تشرب أو تنام أو تتحدث أو ترى أو تسمـع، أي أَن تُعَارِض وتُخالِف كلّ رغبات السيد نفْس.. عليـك أن تفـرض عليه أنه ما هو إلا وزير، وأنك السـلطان الذي تأمـره.. تعتبر مدة الأربعين يومًا مدة كافية كي يكتسـب الإنسـان عـادة سـواء في عالمـه الداخلي أو الخارجي.. فلو اسـتطعت أن تُروِّضَـهُ وتجعلـه يُطيعك خلال هذه المدة، سـتكون تلك الطاعة بمثابـة عـادة لديـه طيلة حياتك.. فالشـخص الذي يُروِّضُ نفسـه ويُخضِعُها للإرادة يستطيـع مواجهةَ قوّات جيش الشر كافة.

- إذًا، كيف لي أن أعيش دون أن آكل؟

- لـن يكـون الأمر كمـا تعتقد! أي إنك سـتأكل بقدرِ ما يقيم صلبكَ.. ولهذا فإنك سـتأكل وتشـرب وتنام عندما تكون بحاجة

إلى ذلك فقط وليس عندما تشتهي نفسُك.. فهذه المعارضة التي ستظهرها ضد السيد نفْس بشتى الطرق ستساعدك على تشكيل فرقة الإرادة الخاصة وكذلك إثبات قدرتك وقوتك في مواجهة جميع قواتك بمن فيهم القائدين شهوة وغضب.. وعندما يروا ثقتك بنفسك سيطيعون أوامرك لا محالة.. وفي الواقع فإنك ستختار أفراد الفرقة الخاصة التي حدثتك عنها من تلك القوات.

- هذا يعني أن السر في الطعام القليل؟

- بكل تأكيد! تذكَّر الهرم التسلسلي للاحتياج؛ فالإنسان عندما يتبع شهوة المعدة تتبعها الشهوة الجنسية، ولو لبَّى احتياجات هاتين الشهوتين يتجه إلى شهوة امتلاك المال والبيت.. ولقد كان القدماء محقين عندما قالوا إن الإنسان يرضى بالقليل في البداية ثم يبدأ يشتكي منه.. وتظهر الجدالات والغيرة مع الأشخاص الآخرين حتى يمتلك ذلك الإنسان شيئًا معينًا، ثم يعجب بما يمتلك ويتفاخر به، وبعدها ينظر إلى ما لا يملك ويمتلئُ قلبه بالحسد والكراهية، ثم يبدأ يظلم من أجل امتلاكها.. صدقني يا مطر، ليس ثمة نهاية لهذا الأمر، فلو حتى امتلك ذلك الإنسان كل ما في الأرض فإنه ينظر إلى الناس الذين يتنفّسون ويقول لهم "إنكم تستهلكون الهواء الخاص بي!"، ثم ما يلبث أن يتمادى في ظلمه.

- أنت محق، هذا الكلام منطقيّ تمامًا ورائع للغاية!

- ليس هذا فحسب، هل يزور النوم إنسانًا جائعًا وعطشانًا؟

- لا أعتقد ذلك إطلاقًا! حدث لي هذا مرة فطفقت أتجوَّل في الشوارع حتى الصباح".

- ها قد رأيت أن الطريقة المثلى لتقليل ساعات النوم هي تقليل الطعام. تذكَّر الأيام التي صُمْتها، بيد أن الناس اليوم لا يشعرون بالجوع وهم صائمون.. عندما تجوع ينخفض اهتمامك بالجنس الآخر، وترى عيناك الطعام أكثر مما تراهن.. وحتى لو سبّك أحدهم فلن تسمع إلا صوت معدتك الخاوية، لا سيما وأنه لم يعد لديك طاقة لظلم الآخرين.. وفي الواقع فإن هذه هي الحكمة من الصيام، لكن أغلب الناس لا يفقهون، لدرجة أنك تراهم ينبهون بعضهم البعض ليأكلوا بعض الأطعمة التي تشعرهم بالشبع أو كيلا يأكلوا بعضها الآخر حتى لا يعطشوا خلال الصيام.

- لو كان هذا هو ما عليّ فعله طيلة الأربعين يومًا، فهذا أمر سهل.

- انتظر قليلًا! لو كان بهذه البساطة لكان بإمكان الجميع فعله، أليس كذلك؟ أو كان ديننا قد أمر الجميع بفعله.. طيلة هذه الأيام الأربعين سيُغير عزازيل وجنده عليك من خلال طرق لن تخطر على بالك أبدًا، وسيظهرون أمامك مستغلين أكبر مخاوفك، وسيحاولون إثناءك عن السير في هذا الطريق المقدس الذي تعتبر نهايته النجاة من عزازيل ومساعده السيد نفْس.. ستواجههم بمفردك، وليس للكهف باب، ولهذا بإمكانك الخروج متى شئت،

فالقـوة الوحيـدة التي تجعلك تكمل مدتـك هناك هي محبتك لله ورغبتـك فـي أن تكـون خادمًا لدينه، وسـتقضي جميـع أوقاتك هنـا في العبادة والتسـبيح والدعاء والتوبـة.. وجبتُك الوحيدة في اليوم تتكون من سـبع لقيمات وثلاث رشـفات من الماء، وهذه الوجبة ستتناولها كل يوم بعد صلاة المغرب.. وعندما أحضر لك طعامك بين الحين والآخر سأسأل عن حالك إذا سُمح لي.

دعـك الآن مـن كل مـا قصصتـه عليـك وحـاول أن تعيـش اللحظـة.. ألا تتذكـر عندما قلـت لك في أول لقاء بيننا "سـتتعلم كل شـيء عن طريق المعايشة"؟ وعلى نفسِ المنوال ستتعلم هذه الأشـياء.. عليك أن تستفيد من الجوع والعطش وقلة النوم وعدم رؤية البشـر وعدم سـماع أحـد أو رؤيته من خلال معايشـة ذلك بنفسك، وإلا فإن معرفةَ هذه الأشياء دون معايشتِها وقولَك: "أنت محق، هذا الكلام منطقيّ تمامًا ورائـع للغاية"؛ لن ينفعك بشيء.

– أفهمـك، إن شـاء الله أسـتطيع إتمـام هذه المهمـة، ولهذا أسألك الدعاء.

– دعاء جميـع الخادمين معك.. حاول أن تستشـعر وجودهم بجانبك باستمرار، جميعهم يثقون بك، لا تنسَ هذا أبدًا!

لقـد أثّرتْ هـذه الكلمات الأخيـرة في مطر كثيـرًا، فهو الآن واحـد من أفراد "زمـرة الخادمين"، وجميـع الخادمين يثقون به، ولهذا لم يكن ليخذلهم أبدًا.

اليوم الأول

كان كل شيء يبدو أنه على ما يرام، لكن عندما حان وقتُ تناوُلِ الغداء شعرَ مطر بمعدته تُصْدِرُ أصواتًا بسبب الجوع، لكن هذا لم يكن شيئًا يستحق الكثير من الاهتمام.. كما كان جو الكهف البارد يساعده على الجوع ويمنع النوم من أن يغلبه.

كانت السعادة الغامرة تسيطر عليه عندما حان وقت الإفطار الذي انتظره بفارغ الصبر، لكن هذه السعادة تحولت إلى حزن عندما رأى ما بداخل كيس الطعام؛ إذ لم يكن بداخله سوى الخبز والماء. وكما قال له الخادم، أكلَ سبعَ لقماتٍ من الخبز وشربَ ثلاثَ رشفات من الماء، ثم احتار في أمره، ذلك أنه لم يشبعْ، ولم يسكت الجوع عنه إلا قليلًا.. كان مُدرِكًا أنه لن يشبع حتى لو أكل بقيّة الخبز، هذا فضلًا عن أنه كان يعتقد أن عليه التصرف بحذرٍ فيما يتعلق بمؤنة الأكل لأنه لم يكن يعلم متى سيحضر له الخادم المزيد من الطعام.

اليوم الثاني

كان مطر يشعر ببعض التعب، لكنه كان جائعًا أكثر، فلم يستطع النوم ليلًا سوى لأربع ساعات.. فبرودة الكهف أمس وقفت مع الجوع ضد مطر، فحجبت عنه النوم، وأما اليوم فقد وقف الجوع مع البرودة واتّحدَا ضده ليمنحانه جوًّا شديد البُرُودة ويُشعرانه بالصقيع.

قضى صلواتٍ فائتة عن خمسين يومًا تقريبًا، لهذا كانت ركبتاه تؤلمانه كثيرًا، كما أن الوحدة أشعرته ببعض الحزن.

اليوم الرابع

أكل مطر خلال آخر يومين أكثر من سبع لقمات بقليل ولم يعد لديه المزيد من الطعام.. فخطر على باله الخروج من الكهف للبحث عن شيء يأكله، لكنه في كل مرة كان يُفكر في أن هذا خدعة من السيد نفْس ليس إلّا، كما أن الخادم لم يكن ليتركه يموت في هذا الكهف.. لكنه كان في النهاية وحيدًا، فكان هذا يُقرّبه أكثر إلى الله.. كان اليوم يدعو الله أكثر من الأيام السابقة، وفي الواقع كان الدعاء هو الوجبةُ الوحيدة على مائدة الإفطار.

اليوم الخامس

يشعر مطر اليوم بانخفاض طاقته البدنية بالكامل بسبب عدم قدرته على تناول الإفطار أمس، كما أن الشعور بالعطش كان في مستوى لا يمكنه تحمّله، فوجد نفسه بشكلٍ لا إراديٍّ يقول: "الماء!".. كانت أول مرة يسمع فيها صوته منذ أيام، لكنه لم يكن متأكِّدًا من هذا، وكان ذلك الصوت غريبًا على أذنيه وكأنّ الذي يتحدث شخص آخر.. في تلك اللحظة تولَّدَ بداخله شعورٌ بالغربة إزاءَ نفسه، ولاحظَ أنه لا يعرفها.. لكن الطريف في الأمر أنه خاف من نفسه.. فكر في أن ما يريد تركه ليس هذا الكهف ولكنها نفسه.. لكن إلى أين يهرب الإنسان من نفسه؟!

لم يكن في حالة تسمح له بالصلاة، فظلَّ يفكر في هذه الأشياء حتى المساء.. بقي القليل حتى موعد الإفطار، لكن بالنسبة له لم يعد هناك موعد للإفطار، ذلك أنه لم يعد يمتلك شيئًا يأكله.. نهض في آخر محاولة له مع غروب الشمس، وسار حتى وصل إلى مدخل الكهف، تذكر حينها السؤال الذي طرحه على الخادم خلال المعركة التي خاضها ضد جيش عزازيل: "متى نصر الله؟"، ثم تذكر الخادم، فجاءته الإجابة: "ألا إن نصر الله قريب"، فامتلأت عيناه بالدموع، وسرعان ما انهمرت زخًّا، فما من أحدٍ كي يواسيه ههنا في هذا الموقف؟!

أصبح وحيدًا في هذا الكهف مع نفسه التي شعر بأنها غريبة تمامًا بالنسبة إليه، ومَن كان سيكون خليلًا له هناك؟ حينئذ خطر على باله الخليل إبراهيم عليه السلام الذي جاءته الملائكة تواليًا يعرضون عليه أن يكونوا أخلّاء له وأن يُقدِّموا له المساعدة عندما أراد الكفار أن يُلقوا به في النار، لكنه رفضهم جميعًا، بمن فيهم جبريل عليه السلام، وقال: "علمُهُ بحالي يُغنيه عن سؤالي"؛ إذ لم يتخذْ لنفسه خليلًا إلا الله.

رفع مطر يديه إلى السماء وبدأ يدعو "إلهي! أنا أيضًا لا أريد خليلًا سواك، فلن أتخذ لنفسي خليلًا في هذه الحياة التي أجهل فيها حتى نفسي.. أنت خليلي وعلمُكَ بحالي حسبي عن سؤالي".. ثم عاد إلى كهفه الذي حلَّ به الظلام مع غروب الشمس.. توضَّأ متيمّمًا لأداء صلاة المغرب التي لم يستطع أن يصليها إلا وهو جالس.. كان يشعر بالإعياء الشديد حتى إنه لم

يستطع حتى أن يرحب بالخادم الذي دخل الكهف، ناهيك أصلًا عن أن يقف احترامًا له.

لاحظَ الخادم إعياءَ مطر، وتدهوُرَ حالتِهِ، فسارع إلى سقيِهِ القليل من الماء، ثم أخرج الطعام الذي جلبه، والذي كان عبارة عن سلطانية من الحساء، وإن كان باردًا، والقليل من الزيتون والعسل.. تناول الطعام وأصبح كالذي عاد للحياة من جديد.. لم يتحدث الاثنان حتى هذه اللحظة، فقال الخادم وهو يهمّ لمغادرة المكان:

- هل راودك سؤال من قبل أردتَ أن تسألَنيه حتى هذه اللحظة؟

فكر مطر قليلًا، ابتلع ريقه، ثم طرح سؤالًا لم يكن متوقعًا أبدًا في تلك الحظة لدرجة أنه شاهد الخادم للمرة الأولى وهو يضحك بصوت عالٍ:

- لماذا نبلع نواة الزيتون؟

تبادلا الضحكات التي تردَّدَتْ أصداؤها في أركان الكهف، ثم حل محلها صوت الخادم الحنون:

- عجبًا لك يا مطر! أراك تستطيعُ طرحَ سؤالٍ كهذا وأنت في هذه الحالة! إنك حقًّا إنسانٌ مختلفٌ تمامًا.

بعدها بدأ يشرح مسألة نواة الزيتون التي شكّلت لغزًا بالنسبة لمطر لسنوات:

- إن أولياء الله حسَّاسون للغاية منذ القدم فيما يتعلق بمسألة الأكل والشرب، فهم يحاولون الاكتفاء بأقلّ القليل قدر المستطاع.. ولهذا فإن الزيتون، الذي أقسم الله به في القرآن الكريم، كان صديقهم الصدوق خلال هذه الرحلة الشاقّة، ذلك أن نواته أكثر الأطعمة التي تستغرق وقتًا طويلًا في الهضم؛ إذ تبقى في المعدة لفترة ما بين عشر إلى أربع عشرة ساعة، ويشعر من يبتلعُها بالشبع لفترة طويلة.

لقد رأى مطر، للمرة الأولى منذ أيام، خليلًا له بين الجدران التي كان يعتبرها عدوًّا له؛ إذ سمع صوت خليل من بين الصمت الذي اعتبره عدوًّا له، فنسي المعاناة التي يعيشها منذ خمسة أيام ببعض الكلمات العذبة.

ترك الخادم وراءه أحلى الذكريات وهمّ لمغادرة المكان، بينما نظر مطر من خلفه لبرهة، فذلك الإنسان المبارك، الذي كان يستطيع مطر أن يميزه بسهولة جدًّا تحت ضوء القمر بفضل الثياب البيضاء التي يرتديها، وكأنّه يد حنونة مدّها الله تعالى إليه.

اليوم العاشر

وضع الجوع والعطشُ وقلّة النوم سيوفَهم في أغمادِها، وبدؤوا يظهرون وجوههم الحميمية لمطر بمرور الوقت.. ولهذا فلم يعد لديه أية مخاوف بشأن ما تبقّى له من أيام يقضيها داخل الكهف الذي أصبح العيش داخله تقريبًا أفضل بالنسبة له من الحياة بالخارج.. امتلكَتْهُ مشاعرُ الشكر على كل هذه الأحاسيس

الرائعـة، وحينها كان قد حان وقت صلاة المغرب، فقام لأدائها.. قـرأ فاتحـة الكتـاب كاملةً وعينـاه مغلقتـان، ولأنه يعـرف معنى كلمات هذه السورة القصيرة، كان إغلاقُ عينيه والتفكير بما يتلوه من آيات من عاداته المألوفة.. وفي نهاية السـورة قال "آمين!" ثم فتح عينيه.

تسـمّر فـي مكانـه أمام مـا رآه، وتعقّد لسـانُه، وجـفَّ حلقُهُ، وتوقَّفَـت أنفاسُـهُ.. رأى مخلوقًا مخيفًـا، بل هو أكثر ما يخيفُهُ في حياته، وكان هذا المخلوق قد التوى واستدارَ بجسده عند موضـع السجود، وكان ينظر متلفِّتًا برأسِهِ المرفوعة إلى الأعلى.. كان هذا المخلـوق ثعبانًـا كبيـرًا أصفر اللون!! مـا إن رآه مطر حتى رجـع برجله اليسـرى نحـو الخلف، كان ذلك ردَّ فعـلٍ طبيعيٍّ لما رآه، وبينمـا همَّ لتحريك رجلـه الأخرى إلى الجهة نفسـها؛ طَرَحَ عن نفسـه الدهشـة وتوقَّفَ.. إلى أين سـيذهب؟ فمهما تحرك في أيِّ مـكان فـي الكهف كانـت نهايته هي أن يهاجمـه الثعبان.. كما أن هروبـه إلى الخارج كان يعنـي نقضَ العهد، فدار في خلده الكثير من الأشياء خلال وقتٍ قصير قائلًا في قرارة نفسِهِ:

"يا إلهي! لا شك أن كل شيء في هذا الكون يتحرك بإذنك وأمرك، وأنا هنا من أجل أمرك.. سـأركـع وأسجد لأنـك أمرتَني بذلـك.. ولا ريب أن هـذا الثعبان لم يأت إلـى هنـا إلا بأمرك، ولـن يضرّني إلا بإذنـك. ولهذا كل شيء بين يدي قدرتك، وأنا استسلمت لك".

"عندما أرادوا أن يُلقوا بنبيِك إبراهيم عليه السلام، الذي وصفتَهُ أنتَ بالخليل، في النار جرى تنفيذُ أمرك، لقد كانت النيران مشتعلةً لكنها لم تحرقه لأنك لم تأذن لها بذلك".

"وعندما أراد سيدنا إبراهيم عليه السلام التضحية بابنه إسماعيل، أراد تنفيذَ أمرك، فبدأ يحرّك السكين على عنقه، لكن السكين لم يذبحْه لأنك لم تأذن له".

"وعندما قفز نبيُك يونس عليه السلام في البحر جرى تنفيذ أمرك، وابتلعه الحوت، لكنه لم يستطع أكله لأنك لم تأذن له".

"يا إلهي! ها أنا أؤمن بأن هذا الثعبان جاء إلى هنا بأمرك، ولن يلدغني إن لم تأذن له بذلك، فالخير والشر كله بيديك".

وعندما أراد الركوع كان الثعبان قد ابتعدَ قليلًا ومدّ رأسه نحوه وبدأ يُظهِر لسانه.. رفع رأسه من الركوع، وأراد السجود، وربما كان هذا أصعبَ قرارٍ في حياته، وربما يكون قد وجد نفسه للمرة الأولى يواجه خوفه بشجاعة.. كان يَقِفُ منتصِبًا وكأنه يتحدّى الموت، ثم قال: "الله أكبر!"، وأغلق عينيه، وكتمَ نفسه، وخرّ ساجدًا.

اليوم الحادي عشر

عندما دخل الخادمُ الكهف كان قد بقي القليل من الوقت حتى وقت الإفطار.. وبعد أن انتظر مطر قليلًا؛ لم يستطع أن يتحمل الكتمان والانتظار أكثر، فبدأ يحكي للخادم ما حدث له

أمس، وأخذ يشرح له كيف فكّر عندما كان واقفًا، وبمَ شعر عندما ركـع، وتصميمه عندما رفـع من الركوع، وكيف أنه عندما سـجد اختفـى الثعبان تمامًا.. عندما أنهـى كلامه نظر إلى الخادم وعيناه طافحتان شـغفًا وكأنه طرح عليه سـؤالًا، أما الخادمُ فكان يعرف أن هذا التلميذ الذي يعرفه جيّدًا ينتظر منه إجابةً على ما حدث:

"ينبغي لأي خادم يسير في سبيل الله ليخدم فيه ألا يخاف؛ ذلك أن الخوف ما هو إلا خدعة داخل عقلك.. حينما تشـعر بالخوف فكِّرْ قليلًا فيما تخاف منه في الواقـع، ما عشته بالأمس على سبيل المثال: في اللحظة التي رأيتَ فيها الثعبان بدأ حدثٌ يتجسـد في ذهنـك، وبـدأتَ تتخيّل أنك سـجدتَ وأن الثعبان لدغك، أي أن مـا يخيفك هو شـيء لم -وربما لـن- يحدث أبدًا.. الأمرُ نفسُـهُ ينطبـق علـى من يخـاف من الكلاب، فمـا إن يـرى الكلبَ حتى يتخيل في ذهنه أنه سيجري نحوه وأنه سيقفز عليه ويعضّه بكل ما أوتي من قوة.. في تلك اللحظات فإن العقلَ الباطن يعتبر أن هذا السـيناريو واقعي، وسـرعان ما يرسـل "الوطاء" (وهو الرابط بين الجهاز العصبي الذاتي والجهاز الإفرازي) إشـارةً إلى الغدد فوق الكلويّـة لتُفرز هرمون الأدرينالين الذي يعملُ على مضاعفة القوّة لدى الإنسان وتجهيزها في مواجهة المخاطر المحتّمة، لكنه يُفرز رائحةً تستطيـع الكلاب شمَّها بسهولة.. ولهذا فإن الشخص الذي يـرى أن الكلب يجري نحوه لا يعرف أن هذا الحيوان المسـكين إنما يجري نحو هذه الرائحة الشـهية لهرمون الأدرينالين، وعندما يبـدأُ هذا الشـخص بالجري تبتعد رائحـة الأدرينالين، فيجبر هذا

الكلب على الجري خلفه، وحينها يتحقق كل ما تخيله ذلك الشخص وألّفه في عقله وكأنه سيعيشه.. ثم يقول ذلك الشخص: "يقولون لو رأيت كلبًا عليَّ ألا أهرب، لكن إن لم أهرب فإنه سيلتهمني!".. وهذا خطأ.

ثم تابع الخادم حديثه قائلًا:

- لم يكن ما مررتَ به عشية "عملية الإنقاذ" مختلفًا عن هذا.. تذكَّرْ ما الذي أشعرك بالخوف عندما كنتَ تسير في المقبرة! ألم تتخيَّل أن الموتى المدفونين هناك سيخرجون من قبورهم ويبدؤون بمطاردتك ببطء؟! وأنه ربما يقفز العشراتُ منهم وينقضُّوا عليك ويُنهكونك عضًّا ونهشًا؟

أجابه مطر وهو مستغرب:

- بالضبط!

- حسنًا، هل رأيتَ هذا حدثَ من قبلُ حتى يحدث الآن!؟

- لا، لكن هذا المشهد يتكرَّرُ في الأفلام التي أشاهدها.

- إذًا فأنت تخاف لأنك تتخيل شيئًا لم ولن يحدث أبدًا، وهذا يعني أنك لو تخيَّلْتَ أشياء جميلة فلن يبقى شيءٌ لتخافَ منه، بل سيكون كلُّ شيءٍ أفضل".

- "جزاك الله خيرًا! الآن أشعر بمزيد من الراحة.

بينما قالها مطر كان قد حان وقت أداء صلاة المغرب.. فبادر الخادم بالحديث رغبة منه بالبوحِ عن آخرِ ما يريدُ قوله:

obeikandl.com

- لكن عليّ تحذيرك بشأن موضوع ما، الأيام المقبلة ستكون أصعب بالنسبة لك.. لقد أظهر تصرفك بالأمس أنك جاد في طريقك لكي تكون خادمًا.. ولا شك أنهم سينقلون هذا الخبر إلى عزازيل.. ولهذا أريد منك أن تحفظ هذا الدعاء وتدعو به كل يوم عقب صلاة الفجر:

"اللهم إنك سلطت علينا عدوًّا عارفًا بعيوبنا يرانا هو وقبيله من حيث لا نراهم اللهم فآيسه منا كما آيسته من رحمتك، وقنِّطْه منا كما قَنّطتَه من عفوك، وباعد بيننا وبينه كما باعدت بينه وبين رحمتك إنك على كل شيء قدير".

كان محمد بن واسع يدعو بهذا الدعاء كل يوم.. وذات يوم عندما كان في طريقه إلى المسجد ظهر له الشيطان وقال له:

- يا ابن واسع! هل تعرفني؟

فأجابه:

- لا أعرفك، من أنت؟

- أنا الشيطان.

- وماذا تريد مني؟

- لا أريد منك شيئًا سوى ألا تُعلّم أحدًا ذلك الدعاء الذي تدعو به كل صباح.. وفي مقابل ذلك لن أضايقك أبدًا.

حينها قال ابن واسع:

obeikandi.com

- والله إنـي لأعلّـم هذا الدعاء لمن يريد.. وأما أنت فافعل ما تستطيـع!

وبعدها قال الخادم وقَلَق طفيف يعتري صوته:

- كن أكثر حذرًا من الآن فصاعدًا.

اليوم الثالث والثلاثون

كانت المصاعب تتضاعف بمرور الأيام، لكن ما كان يشجع مطر على الاسـتمرار هو أنه كان يشـعر بسعادة غامرة لأنه اقترب مـن تحقيـق هدفه.. فبعد أن صلّى العشـاء في خشـوع وطمأنينةٍ، خلدَ إلى النوم يُراوده شغفُ القيام لصلاة التهجد بعد ساعتين.

لـم يعد بحاجة حتـى إلى المنبّه لِيسـتيقظ، وبالفعل اسـتيقظَ بعد سـاعتين بالضبط، لكن الظـلامَ الدامسَ كان يُحيطُ به من كلِّ جانـب، ذلك أن ضوءَ الشـمعة قد انطفأ.. رأى وكأن شـخصًا أو شيئًا يَلِجُ من مدخل الكهف، فسارع على الفور إلى تلاوة الدعاء الذي تعلمه من الخادم قبل يومين: "أعوذ بكلمات الله التامات من شـر ما خلق".. تحسَّـسَ بيدِهِ في الأرجاء حتى عثر على الحقيبة التي تحتفِظُ بأشيائهِ، فأخرج منها شمعةً جديدة وقدَّاحة (ولّاعة).. ما إن أشعل الشمعة حتى نفثَ شخصٌ أو شيء مجهولٌ من داخل الظـلام إلـى أن أطفأَها، وتكرَّرَ هذا عـدة مرات، فصاح مطر نحو الظلام المجهول:

- من هناك؟

فـي الواقـع سـأل مطر هـذا السـؤال ليتأكد مـن الإجابة التي كان يتوقعها، ذلك أن رائحة النَفس الذي نفث في الشـمعة كانت مألوفة جدًّا بالنسـبة له، لقد شـمها في مقر قيادة جيش عزازيل.. ولهذا فإن الرد لم يدهش مطر:

– أنا معين مَن لا معين له، خليل من لا خليل له، أنا من يجده الحائرون.

– هـل يمكـن يا أيهـا الملعون أن يكـون من نعتَـهُ الله بالعدوِ خليلًا؟ دعني أُشعل الشمعة وأوقِدُها وبعدها قُلْ ما تريد.

حينها تبادل الاثنان الحديث على النحو التالي:

– اسـمعني أيها الشـاب! هل ظننتَ أنك أصبحتَ من أولياء الله لأنـك انقطعـت عـن العالم لعدة أيـام في هـذا الكهف؟ إياك أن تتظاهر بأنك تعلم كل شيء وإلا سأعاقبك عقابًا شديدًا!

– لـو كنـت قادرًا حقًّا على فعل هـذا لما توانيت للحظة عنه، لكنك لا تستطيـع فعل أي شيء إلا بإذن الله.

– وكيف لك أن تعرف أن الله لم يأذن بذلك؟

– لو كان الله أَذِنَ بشـيء كهذا وأراد أن يبتليني فلا أطلب منه إلا الصبر.

تأثـر الشـيطان مـن شـجاعة "الفريسـة" التـي أمامـه، فحاول أن يجرب طريقًا آخر:

– على أي حال، دعك من هذا الآن، أخبرني ماذا تفعل هنا؟

– أنا هنا لأعلّم السيد نفْس أن لعرش المملكة صاحبًا وسلطانًا، لا سيما بعدما انخدع ظنًّا منه أنك خليل له وحاول خيانتي منساقًا خلفَ وعودِك الكاذبة.

– إني أُشفق عليك، لأن مجهودك عديم الفائدة.. هل رأى أحد قبلك أن السيد نفْس قطع الأمل منّي؟ لقد خدعك أحدهم خدعة كبيرة.. فماذا ستستفيد من هذا القدر من الجوع والعطش والتعب وقلة النوم؟ أنا أجيب عنك: لا شيء!! فعندما تخرج من هنا سترى أن السيد نفْس سينفِّذُ أوامري مجدَّدًا، وسيستعين بالقائدَين "شهوة" و"غضب"، وإذا فشل فَسوف يستعين بِصديقَيك "النوم" و"الراحة"، وإن فشلَ فبـ"الكِبر" و"الرياء" و"الغيبة" و"الزنا"... أي إنه سيخدعك بأي طريقة كانت.. هل تريد أن تنجو مني؟ أمامك خياران لا ثالث لهما: إما أن تستسلم، أو تكون قد جنيت على نفسك.. لقد خدعتُ حتى جدك آدم، فهل سأفشل في خداعك؟

– حسنًا، لماذا فشلت في خداع إبراهيم وإسماعيل وهاجر؟

– ها! من قال لك إنني لم أستطع خداعهم؟ لقد خدعتهم خداعًا كبيرًا.

– اخرس أيها المخلوق السافل! لقد رأيت كل شيء بعيني.

– هـا، صحيـح!! تذكَّرتُ أنكَ رأيتَ ذلـك.. لكن لماذا تنظر إليهـم؟ وتظنّ نفسـكَ مثلهم؟! إنهم نبي وأسـرته.. فمن يعرف ما يعرفه إبراهيم عن جيش الشر لا ينخدع بألاعيبنا أبدًا.

– لا تقلـق أيهـا الـكاذب القـذر! لقـد تعرفـت علـى جميع أفـراد جيشـك واحدًا تلو الآخر، "داسـم" و"زَلَنْبُـور" و"مِقَلَاص" و"مِسْـوَط" "وثبـر" و"خَنْزَب" و"الوَلَهَان"، وذلك السـافل المدعو "الأعور"، وسـنتعرف كذلك على من تبقى من وحدات جيشـك، وهـم كذلك سـيعرفونني.. سـأكون بلاءً مُسـلَّطًا عليكـم.. ينبغي لكـم أن تخافوا مني وليس العكس، فأنا أتعلَّم حيلكم وآلاعيبكم وأسـلحتكم وجوانب ضعفكم الواحد تلو الآخر، وقريبًا سـأُنهي هـذه الدراسـة لأكـون جاهـزًا لمواجهتكـم، وسـأضحي بحياتي وروحـي، وإن اسـتلزم الأمـر بجنّتـي، لأنقـذ مـن بيـن مخالبكم هؤلاء المسـاكين الذين لا يعرفون حيلكم ويشعرون بالعجز أمام ألاعيبكم ويفقدون إرادتهم عندما يرون وعودكم الكاذبة!

لـم يكـن عزازيـل ينتظر من مطـر كل هـذا أبـدًا؛ إذ يبدو أن الوحدات الاسـتخباراتية لجيشـه فشـلت هـذه المـرة كذلك في الحصول على المعلومات المناسـبة، ولهذا فقد فشـل هو بِدَوره في تقييم ذلك الرجل الذي يقف أمامه وكأنه عدو له.. فبادر على الفـور إلى تنفيذ مناورة جديدة مسـتغلًا ذكاءه الحاد.. كان يعرف مـن تجاربه السـابقة أن ما سـيقوله بعـد قليل سـيقضي على هذا الرجل الذي أُعجب بنفسـه كثيرًا.. كان أقوى سـلاح لديه، وكان يثق به كثيرًا، التقط السهم الأخير واستعد لرميه:

- أحسنت صنعًا أيها الفتى! إني حقًّا أبارك لك على هذه الخطوة الجريئة، فشجاعتُك وإيمانُك وإخلاصُك وتصميمُك جديرٌ بالتقدير، وأيّما تقدير! لقد تأثرت كثيرًا.. فلو كانت ذرة من إيمانك هذا لدى شخص ما فسأفقد أملي في غوايته.. يبدو أنك شخصية استثنائيّة للغاية حتى يدرّبك "حظيرة القُدس" تدريبًا خاصًّا بهذه الطريقة.. فأنت شخصية فريدة للغاية لدرجة أنني أريدك أن تعتبرني من الآن فصاعدًا خليلك لا عدوّك، فالجميع يفتحون قلوبهم لإنسان يعرف ماذا يفعل وبماذا يؤمن مثلك.. ولهذا يمكنك أن تثق بأنني لن أضرك بعد ذلك أبدًا.. لم أكن أخشى أحدًا سوى عمر بن الخطاب حتى إنني كنت أسير في طريق غير الذي كان يسير فيه، والآن أصبحت أنت عمر الثاني.

كان عزازيل يبدو مخلصًا وهو يقول هذه الكلمات، ولهذا كان ظاهرًا أن هذا السلاح مؤثرٌ للغاية.. لفتت كلمة قالها عزازيل من بين هذه الكلمات التفاتَ مطر أكثر من أي كلمة أخرى، ولِحُسْنِ حظِّهِ أن شيئًا كهذا حدثَ وإلا لكان السهمُ أصابَ الهدف منذ البداية:

- تريدني أن أعتبرك من الآن فصاعدًا خليلًا لي لا عدوًّا، أليس كذلك؟!! بعد أن طُرِدْتَ من رحمة الله أسكن الله آدم وحواء ﷺ الجنة وحذَّرَهما تحذيرًا شديدًا بشأن شيء ما، لا يزال هذا التحذير يرنُّ في أذني: ﴿**يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى**﴾، كما سمعت آية أخرى من الخادم أخبرتني لماذا علينا الانضمام إلى جيش الخير والقتال ضدك:

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾، وأنت الآن تطلب مني أن أعتبرك خليلًا لي؟ لا لا لا!!! لا يمكن لأحد أن يكون خليلًا لك إلا نفسك.. عن أي صداقة تتحدث أيها الملعون وحتى من ستقودهم معك إلى الله سيعلنون عداوتهم لك في جهنم؟!

تعجَّب عزازيل كثيرًا من هذا الكلام، وحينها أدرك أنه أخطأ عندما حاول خداع مطر بمسألة الصداقة، لكن الأوان كان قد فات.. لم يستطعْ أن يردّ بكلمة واحدة، فنهض وغادر المكان بعدما لم ينفعه التهديد أو الهجاء أو حتى المدح.. لكنّه حمل معه الأمل في الانتقام من هذه الهزيمة النكراء في لقاء العودة.. وبطبيعة الحال لن تكون هذه هي المرة الأخيرة التي يراه فيها مطر.

اليوم الأربعون

نام مطر هذه المرة كذلك ليستيقظ بعدها لأداء صلاة التهجّد، فلقد تجرّد من الزمن لدرجة أنه لم يكن ليدرك أن المحنة صارت على وشك الزوال إلا من خلال الأشياء الرائعة التي رآها في منامه وطُلب منه ألا يحكيها لأحد حتى يحين الوقت المناسب. نعم، يبدو أن الأربعين يومًا شارفت على النهاية.

عندما حل صباح هذا اليوم كان مطر سيولد مع شروق شمسه، وأصبح هذا الكهف -الذي كان يراه في البداية كالقبر- وكأنه رحم الأم بالنسبة له.

وبينما كان يستعدّ لأداء صلاة الصبح؛ دخل الخادم والابتسامة تعلو وجهه وقال وهو يهم باحتضانه:

- أبشر يا مطر! لقد قُبِلْتَ بأول أربعين يومًا تقضيها هنا.. أسأل الله أن يزيد علمك وإيمانك وخدمتك وجهودك.

صلى مطر صلاة الصبح إمامًا بالخادم، ثم جلسا وجهًا لوجه وركبتا كل واحد منها ملتصقة بركبتي الآخر.. كان الخادم يُمسك خاتمًا جديدًا، فأخرج الخاتم القديم من إصبع مطر وهو يقول:

- أطلب منك الآن أن تُردّد ما أقوله.

ثم تابعَ -ومطرُ يقول خلفه-:

"إلهي! أطلبُ منك وظيفة كالخدمة التي هي تجلّي رحمتك على عبادك، وأعاهدك على أنني سأُقاوِم دون خوفٍ وأضحّي بحياتي إذا استلزم الأمر لمواجهة عزازيل وجيشه الذين يقفون على نواصي الطرق التي يسلكها عبادك إليك ليصعّبوا عليهم الحلال، ويزينوا لهم الحرام، ويكترسوا حياتهم للسير في طريق العصيان..

وأعاهدك على أنني لن أتراجع أبدًا عن هذا الكفاح مهما حدث، وأنني سأعمل في سبيل تحقيق الخير أكثر مما يعمل عزازيل لإفشاء الشر، وأنني سأثبت على موقفي هذا حتى أصل إلى هدفي..

أدعوك يا إلهي أن تدعمني بقدرتك ولطفك وإحسانك..

أُقسم لك باسمك العظيم الأعظم بأنني اعتبارًا من ارتدائي هذا الخاتم، الذي هو رمزٌ لانضمامي إلى "زمرة الخادمين"؛ لن أتراجع عن السير في هذا الطريق أبدًا.. والله متمُّ نورِه ولو كره الظالمون.. اللهم تقبل هذا منّي يا ربي! آمين".

كان هذا الخاتم هو نفسه الذي يرتديه السيد عادل.. استطاع مطر هذه المرة أن يرى بوضوح الإشارة التي يحملها الخاتم، بالضبط كما توقّع من قبل، كان الخاتم يحمل إشارة "ممنوع الدوران للخلف!"، وكان الاختلاف الوحيد هو أن الخط الموجود على إشارة الرجوع والذي يعني إلغاءَ ومنعَ الرجوعِ كانَ يُشبه حرف "V" أحد الأحرف اللاتينيّة.

ألبس الخادم مطر هذا الخاتم بعناية، ثم نظر إلى خارج الكهف وقال:

- أسرع! إننا نتأخر.

فسأله مطر بقلق:

- إلى أين سنذهب؟

- طائرتُنا ستقلع في الساعة الحادية عشرة، وعلينا الإسراع حتى نستطيع أن نذهب إلى البيت أولًا.

- إلى أين سنذهب بالطائرة؟

- سأعرّفك إلى شخص عندما تراه سيزيد إيمانك برحمة الله، وستقول: "بما أن الله قد خلق إنسانًا كهذا فهو لا يريد بي إلا الرحمة!" هيا، السيد عادل يتنظرنا بالأسفل".

obeikandl.com

obeikandl.com

الخادم

اغتسَلَ مطر وتطيَّبَ ولبسَ ملابس جديدة، ثم خرج على الفور مع الخادم الذي حاول على مدار هذه الرحلة تزويده بمعلومات حول المكان الذين كانا في الطريق إليه، غير أن مطر كان يطرح أسئلة لا نهاية لها.

- ما اسم ذلك الشخص العظيم؟

- كل شخص يعرفه باسم مختلف، ينعته البعض بـ"الشيخ" والبعض الآخر بـ"الأستاذ"، ويلقّبه آخرون بـ"سيدي" وفريق آخر بـ"شيخي"، فيما يناديه آخرون بـ"أستاذي" أو بـ"معلمي". لكنهم جميعًا لا يعلمون أنهم يتحدثون عن الشخص نفسه ولكن بألقاب مختلفة.

- وكيف لهذا أن يحدث؟

- لأنه يظهر بشكل مختلف لكل فريق منهم؛ يراه البعض بلحيته الطويلة والعمامة والعباءة، ويراه آخرون فقط بشاربه وبزته المكوية، فيما يراه فريق ثالث وعلى رأسه الطاقية الأفغانية وهو يرتدي رداءً أفغانيًا.

obeikandl.com

- سامحني، لكنني لم أفهم ماذا أردت أن تقول؟!

- انتظر لحظة، سأشرح لك الأمر بالطريقة التي تفهمها.. لا يمكن لرؤية الناس وملاحظاتهم أن تكون موضوعية أبدًا؛ إذ إنهم ينظرون إلى الأشخاص والأشياء دائمًا تحت تأثير توقُّع ما، ويركزون لمشاهدة ما يريدون مشاهدته فقط.. أي إن عقولهم تحتوي على صورة جاهزة، وعندما يرسخون ما يرونه فوق هذه الصورة التي في عقولهم، يظهر أشخاص ينظرون إلى الشيء نفسه، لكنهم يرون أشياء مختلفة، وبهذه الطريقة يزيد حبهم لما يرونه، وهذا ما يعتبر رحمة من الله بهم.

- حسنًا، في أي صورة سنرى ذلك الشخص؟

- من المؤكد أن كلينا لن يراه بالشكل عينه! تمامًا كالنظر إلى السحابة ذاتها ورؤية أشكال مختلفة.. في الواقع، هذا ليس شيئًا يدعو إلى الدهشة والاستغراب.

- لكن هل هو في حقيقته فقط شخص من هؤلاء الأشخاص؟

- ليس من السهل أبدًا معرفة حقيقة ذلك الشخص، لكن فكر بهذه الطريقة إن كانت ستريح ذهنك: نَعَتُوه في عصر من العصور بسيدنا أبي بكر ﷺ، ثم بسيدنا عمر بن الخطاب ﷺ، ثم بسيدنا عثمان بن عفان ﷺ، ثم بسيدنا علي ﷺ.. وفي العصور التالية أطلقوا عليه اسم الشيخ النقشبندي، وبعدها عبد القادر الجيلاني، والشيخ أحمد بدوي، وأحمد الرفاعي... ثم جاء وقت أطلقوا عليه يونس أمره، وجلال الدين الرومي، والإمام الغزالي،

والأستاذ أحمد يسوي... أي إن ذلك الشخص هو نفسه دائمًا حتى لو تغيّر اسمه أو جسمه: كان "خادمًا" و"رجل الخدمة"، كان خادمًا، لكنّه بدا في شخصيات مختلفة، عَرَفَهُ الناس بأسماء مختلفة، لكنّه فعلَ الشيء نفسه دائمًا: لم يبخل بخدماته لنجاةِ الأمة المحمّدية، وبالتالي نجاة البشرية كافة.

– ولماذا يسعى أي إنسان لإنقاذ الآخرين؟ هل يجب عليه فعل هذا؟

– دعني أعطيك مثالًا تقريبيًّا بسيطًا مع حفظِ البون الشاسعِ بين الأصلِ والمثال: تخيّل معي شخصًا يُجري صيانة للمصاعد، سحب المصعد إلى آخر دور بالمبنى كي يستطيع إصلاحه.. أخذ يحاول صيانته بعدما دخل إلى غرفته من الفراغ الموجود بسطح المبنى، ثم لاحظ أنه نسي آلة من الآلات التي يحتاجها لإنجاز عملية الصيانة في السيارة، فنزل إلى الشارع لإحضارها. في تلك الأثناء يركب أحد السكان المصعد ويضغط على زر النزول إلى الطابق الأرضي ليحدث ما لا تحمد عقباه. هل تعتقد أن عامل صيانة المصعد مسؤول عن هذا؟

– نعم بالتأكيد! كان عليه على الأقل أن يعلّق لافتة لتحذير الناس.

– ولنفترض أن مدير العمارة يعرف أن المصعد تجري صيانته، فيرى جاره وهو يركبُ المصعد ولا ينبس ببنت شفة، فما رأيك؟

– هـو كذلـك مذنـب، كان ينبغـي لـه أن يحذِّره ولو بشـكلٍ شفويّ.

– لـو لاحظـتَ سـتَجِدُ أنك قلـتَ إنه كان يجـب على عامل الصيانـة أن يُحذِّر الرجل بشـكل مكتوب وأن مديـر العمارة كان عليه أن يحذره بشكل شَفَويّ.. وهذا هو بالضبط ما نتحدّث عنه.. ثمة لافتة كتابية تحذر الناس بشأن الأفعال التي يمكن أن تجرّهم إلى كوارث في حالة إن فعلوا شـيئًا أو لم يفعلوا شـيئًا آخر، هذه اللافتة الكتابية هي القرآن الكريم.. وعندما يُقدم الناس على فعل هذه الأشياء ثمة جماعة خاصة من البشر تحذرهم بشكل شفهي، ألا هـم الأنبيـاء. حسـنًا، هل يجب علـى الواحد منـا أن يصمت لأنـه ليـس نبيًّا؟ كلا بالتأكيد! كان سـيدنا أبو بكـر ﷺ أوّل هؤلاء الأشـخاص؛ إذ كان كلما يخطر على باله أن الناس سـيعذَّبون في النار؛ كانت الشفقةُ التي يشعر بها تجاههم تهيجُ فتعتصر قلبه.

امتلأت عينا الخادم بالدموع، ثم تابـع قائلًا:

– لا نتوقّـع أن تكـون لـدى أحـد رحمة أكثر مـن تلك التي كانـت موجـودة عند أبي بكر ﷺ، لكن على الأقل ماذا أنت فاعل لو رأيتَ إنسانًا يفعل شيئًا يسوقه إلى جهنم؟ ولهذا فإننا نُطلق لفظ الخدمـة علـى إجابة هذا السـؤال، وإلا فإنك ستُسـأل يوم القيامة لأنـك لم تحذر الناس، بالضبط كما أصبح عامل صيانة المصعد ومديـر العمـارة مسـؤولين عندما لم يحـذّرا الرجـل الذي ركب المصعد.

– معك حقّ! مستحيل أن نقف موقف المتفرّج ونسكت بينما يقدم الناس على فعل أشياء تجعلهم يندمون في النهاية ويقولون يا ليتَنا وجَدْنا مَن يُحَذِّرُنا".

– "لنفترض أن والدتك التي تحبها وتحترمها كثيرًا كانت تسير في الشارع عندما جذبَ ذراعَها لصٌّ في محاولة منه لسرقة حقيبةِ يدها، فلم تتحمل هذا الموقف وتوقَّفَ قلبُها عن الخفقان.

مطر يقطع كلامَ الخادمِ قائلًا:

– حفظها الله!

– بالتأكيد نسأل الله أن يحفظها، بل إننا ندعوه أن يأذن بأن يكون أحد عباده موجود في ذلك المكان حتى يحفظها بواسطته.. لكن لنفترض أن ذلك الرجل وقف دون أن يفعل شيئًا لإنقاذ والدتك في حين أنه شاهد كل ما يحدث ولديه القدرة على إيقاف اللصّ.. ألا تغضب الآن على ذلك الرجل وتسعى لأخذِ حقِّكَ منه يوم القيامة؟

– فهمتُ الآن جيّدًا ماذا تريد قوله.

– تخيّل كيف سيكون حال المجتمع لو تكاسل البعضُ عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. وعليه، فما دام الله أرسلنا إلى هذه الأرض لنكون خلفاء له فيها؛ فإن مهمَّتنا هي أداء جميع الخدمات التي يجب علينا فعلها باسمه، ولا شكَّ أنك تُقدِّر أن إهمالنا لهذه الخدمات خيانةٌ كبيرة للغاية.

– بالتأكيد! لقد قلتَها بشكلٍ رائع عندما التقينا للمرة الأولى؛ إذ قلتَ: " أليس كل إنسان خادمًا؟"، فثمة حقيقة ألا وهي أننا سنقضي عمرنا هذا ونحن نخدم بعضنا، فأما أنا فاخترتُ الخدمة لله، وبدأتُ أعتبر أن سببَ وجودي في هذه الدنيا هو خدمة عباده من أجل نيل رضاه.. أسأل الله الثباتَ على هذا الطريق.

كان مطر وهو يقول هذه العبارات ينظر إلى خاتمه الذي كان يُمثِّلُ رمزًا لكلِّ كلامه..

ما إن نزلا من الطائرة حتى أديا صلاتهما.. وكان ينتظرهما شخص في المسجد، اقترب منهما بعد أن صليا وقال: "جئتُ لأصطحبكما يا سيديَّ، تفضّلا معي".

وفعلا فقد استقلَّا السيّارةَ بصحبتِه فكان كل كيلومتر تقطعه السيارة في هذه الرحلة الشاقّة يزيد من حماس مطر.. ووفق ما قاله الخادم، فإنه سيرى بعينيه الدنيويّتين كيف تتجلّى رحمة الله في جسد شخص من البشر.. كان حماسه قد وصل إلى درجة عالية إلى أن وقفت السيارة أمام منزل كبير مستقلّ جميل ذي حديقة.

بادر الشاب الذي أوصلهما إلى ذلك المكان بفتح باب السيارة، وطلب من ضيفيه دخول المنزل الذي كان من الداخل يمنح الطمأنينة لمن يراه بفضل نظامه وبساطة تصميمه.. فتوجّه الخادم نحو السلم وقال لمطر "اتبعني"، فسار مطر خلفه.

عَبـرَا مـن أمام بعض الأبـواب التي اصطفّـت جنبًا إلى جنب فـي الطابـق العلوي إلى أن وصلا أمام بابٍ ذي جناحين في نهاية الممر.. كان مطر على وشك سماع صوت ضربات قلبه من شدة التوتر، فالتقط نفسًـا عميقًا قبل أن يدخـل.. وعندما طرق الخادم الباب ودخل الغرفة، تبعه مطر وهو مطأطئُ الرأس.

عندمـا رفـع مطر رأسـه رأى مشـهدًا كان يصعـبُ تصديقه، ذلـك أنـه لم يكن أحـد بالغرفة.. فقال له الخـادم: "تعال، اجلس هنـا لننتظـر"، فاسـتراح قلبُ مطر بعض الشـيء بعدمـا اعتقد أنه ليس هناك حالة اسـتثنائية، ثم جلس على المقعد الذي أشـار إليه الخادم.

لـم يكـن هناك أي صوت في الغرفـة، وكان الصمت قد خيّم على مطر وهو ينتظر بشغف أن يدخل الغرفةَ ذلك الشخصُ الذي ينتظـره في أي لحظة.. وبطبيعة الحال خيّم الصمتُ على المكان بوجه عام إلى أن كسر الخادم موجة الصمت هذه بقوله:

- سأتركك الآن معه.

- لم أفهم، ماذا قلت؟

- قلتُ إنني سأغادر الغرفة لأترككما بمفردكما.

أخـذ مطر يتلفّت حوله بسـرعة، ولم يفهم شـيئًا في ظل هذا الكمِّ من الغموض؛ إذ يبدو أن مفاجآت الخادم لم تكن لها نهاية.

obeikandl.com

شخص غريب في المرآة

قال مطر:

- سامحني، لكني لا أرى أحدًا في الغرفة سواك.

فأجابه الخادم:

- انظر أمامك بالضبط، ماذا ترى؟

- أرى مرآة.

- حسنًا، ليكن سؤالي كالتالي: ماذا ترى في المرآة؟

- أرى نفسي.

- هـا هـو مـا أتحدث عنـه! كما قلت لـك سـابقًا: أليس هو أفضل شخص يمكن أن ترى فيه تجلّي رحمة الله عندما تنظر إليه؟ فبغض النظر عن الشخص الذي تراه هنا، لن تكون قيمته إلا بقدر ما تُوليه له، أليس كذلك؟ كان هناك عُمَرَان ينظران إلى الشـخص نفسـه، أحدهما كان يعتبره نبيًّا مرسلًا والآخر كان يعتبره ساحرًا، فعمـر بن الخطّـاب كان ينظر إلى النبي على أنـه نبي، وعمرو بن هشـام أي أبـو جهـل كان ينظر إلى النبي على أنه سـاحر.. أي إن كل شـيء يبـدأ وينتهي عنـدك يا مطر.. انظـر إلى المـرآة بعناية،

إنهـا ليسـت مرآة عاديـة، فثمة سـبب مهم جعلنا نسـافر كل هذه المسـافة كي نأتِي إلى هنا.. لكن إياك أن تنسـى! عليك أن تُنحّي عقلَك جانبًا لبعض الوقت وتؤمن بما ستراه بعد قليل.

ثـم خرج الخـادم من الغرفة.. نهض مطر، واقترب من المرآة حتى كاد أن يلتصق بها، وسـحب كرسـيًّا وجلس أمامها مباشرة.. لـم يكـن قادرًا على رؤية شـيء سـوى نفسـه: مطـر يجلس على الكرسي.. كان يحاول من ناحية أخرى أن ينحّي عقله جانبًا.. وما إن نجح في فعل هذا واستسـلم لما سـيحدث، بدأت صورته في المرآة تتحرك.. فمطر الذي كان يجلس بالضبط مثله صامتًا على الكرسي قبل قليل، بدأ يتحدث الآن:

- أخيرًا استطعنا أن نتقابل!

فهمَ مطر في تلك اللحظة بشكل أفضل لماذا كان يجب عليه أن ينحّي عقله جانبًا، ذلك أن ما يراه الآن ليس من نوعية الأشياء التي يصدقها العقل.. تابـع مطر الذي في المرآة الحديث:

- لقد نوّمْتَني ونسيتني لسنوات طويلة بما شاهدتَه على شاشة التلفـاز والطعـام المختلط بالحـرام الذي أكلتَه، ولـم أكن طوال ذلـك الوقت سـوى أسـيرًا عاديًّـا لجيش الشـر.. والحمد لله أنك أنقذْتَني في النهاية.

- ولكن من أنت؟!

– أنـا أنـت! أنا الشـخص الأصلي الـذي كان يقصده كل من يتحدّث عنك، أنا الشخص الأصلي المقصود بأوامر الله ونواهيه.. أنا مطر الذي أُسـرت لسـنوات عدة في السـجن بكهف الغفلة.. لكنـي الآن حُـرٌّ بفضـل جهودك وهِمـم العظماء.. بعدمـا أنقذتُ عرشي من بين مخالب عزازيل، حان الوقت لأنقذ الآخرين.

– عن أي هِمم عظماء تتحدث؟

– أتحدث بالطبع عن الخادِمين الذين كانوا قبلي.. فمن تظن أنهـم سـاعدونا في تلـك المعركة التي خضناها ضد جيش الشـر فـي وادي الإيمـان؟ كان ذلك الجيش جيشًـا مقدسًـا قاده سـيدنا إبراهيم عليه السلام وتألّفت قواته وتشـكَّلَت من الخادمين.. لأنك لا بد أن تكـون قد سـمعت أنـه لا يمكن وصفهم بالموتـى، فهم أحياء عنـد ربهم يرزقون.. سـأريهم لك على التوالـي بعد قليل.. تخيل أن هـذه المـرآة هي مرآة قلبك، فكمـا أن بإمكانك التحدث معي الآن؛ سـيأتي يـوم لتكـون قادرًا على أن تتشـاور معهـم بالطريقة ذاتها.. لكن هذا سيسـتغرق بعض الوقت.. وعندما تنجح في أن تجعـل مـرآة قلبك نظيفة دائمًـا وتلمّعها بذكر الله، سـيبدأ أولئك العظمـاء يظهرون عليها تواليًا، وسـيكون هذا أول سـلاح تُمنَحه بصفتك خادمًا.. ستراهم بهذه الطريقة في المرآة إلى وقت محدد، وسيكون بإمكانك أن تراهم في المرايا كبديل للتلفاز الذي تركتَ مشـاهدته.. وفـي المرحلة التالية سـيظهرون لك فـي مرآة قلبك عندما تغلق عينيك.. ولكي تكون قادرًا على التعرّف إليهم عندما تراهم، سأعرّفهم لك بأسمائهم الآن.

ثم بدأت الصورة التي في المرآة تتغير لتظهر صورة كل الخادمين الذين ذكر الخادم أسماءهم قبل ذلك، فيُذكَرُ أحدُهم ويعرَّف به ثم تَعرض المرآة الخادم الذي يليه.. بهذه الطريقة نقش مطر أسماء المئات منهم في ذاكرته.. وفي النهاية، ظهرت صورته مرة ثانية على المرآة، وأتم كلامه بقوله:

- اذهب الآن يا مطر! فكما أنقذني الخادم من الأسْر عليك أن تنقذ الناس من أسر جيش الشر، من أسر التلفاز الذي يعتبر أقوى أسلحتهم، من أسر الطعام الحرام، من أسر كل الذنوب التي تأتي مع الغفلة والكسل.. اذهب يا مطر كي لا تبقى العروش بدون ملوك والقلوب بدون مطر!

وبعدها اختفت هذه الصورة أو أن مطر أصبحَ لا يرى شيئًا بسبب دموعه.. ثم استعاد نشاطه وغادر الغرفة متوجِّهًا إلى الطابق السفلي، وحينها أخبره الشاب الذي اصطحبه من المطار بأن الخادم ينتظره في الحديقة الخلفية، ثم أشار إلى الباب الموصل إلى الحديقة.

كانت هذه الحديقة تتمتع بجمال لا يمكن تخيله عند النظر من الواجهة الأمامية للمنزل؛ إذ كانت مليئة بالكثير من الأزهار التي لم يرها مطر في حياته، كما لفت انتباهه شجرة دُلْبٍ سامقة رائعة في وسط الحديقة.. أما الخادم فقد جلسَ في خشوع متكئًا إلى تلك الشجرة العملاقة تعتلي شفتيه البسمة ذاتها وعيناه مغلقتين ويمسك بالسبحة ولا أحد يعلم ما الذكر الذي يتلوه.

فتح الخادم عينيه بعدها بقليل ثم وجه كلامه لمطر الذي كان منشغِلًا بالأزهار: "هيا بنا لِنذهب! إن صديقنا وعدونا ينتظراننا".

انطلق الاثنان للذهاب إلى المطار.. لم يكن مطر يعلم حتى تلك اللحظة أين هما، وكان ينظر حوله بانتباه باحثًا عن أي علامة تدله على المكان الذي كانا فيه، لكنه فشل في فهم أي شيء على الإطلاق.. في نهاية المطاف وجد أن الحل هو أن يسأل الخادم كعادته، لكنه حاول ألا يفعل هذا -ولو لمرة واحدة- فتراجع عن طرح سؤال كهذا.. وبتراجعه عن سؤال عن شيء بهذه الأهمية في حين أنه يسأل حتى عن أصغر شيء يثير فضوله حاول أن يظهر تسليمه للخادم وانقياده له.. وفي الواقع لاحظ الخادم هذا فشعر بسرور كبير بهذا الطالب النجيب الذي تعلم الكثير خلال فترة وجيزة.

ركب مطر والخادم الطائرة بعدما ودّعهما الشاب الذي اصطحبهما إلى المنزل بعبارة: "رحلة سعيدة"، وكانت هذه هي الجملة الثالثة التي يسمعونها منه منذ أن التقياه للمرة الأولى.

أخرج الخادم من جيبه ظرفًا بعد حوالي عشر دقائق من إقلاع الطائرة وأعطاه إلى مطر قائلًا:

- لقد أُرسل لك هذا الظرف، أهلًا وسهلًا بك بيننا!

فتح مطر الظرف وأخرج الورقة التي كانت داخله وبدأ يقرؤها بعناية فائقة:

"من رئاسة جهاز الاستخبارات بوحدة المراسلين بجيش الخير إلى الخادم مطر؛

أما بعد... نود في البداية أن نهنئك على تشرّفك بهذه المهمة المقدسة، ألا وهي خدمة الإنسانية، ونخبرك بأنك عُينت كأحد أفراد "حلف الفضول" نظرًا لما تتمتع به من بعض القدرات الخاصة.. أما بالنسبة لمهام فريق العمليات الخاصة وصلاحياته فستَرِد إليك معلومات عنه في أقرب وقت ممكن..

وفيما يتعلق بأولى مهامك؛ ستلاحظ شيئًا غريبًا ما إن تعود إلى المنزل، فلا تدع هذا يثير القلق داخلك، هذا ليس هجومًا موجهًا إلى عائلتك، بل إنها عملية أطلقها جيش الشر في ربوع العالم كافة.

ومهمتك بصفتك خادمًا هي إنقاذ جميع الأبرياء، وفي مقدمتهم زوجتك، من هذا الهجوم الذي يتعرضون له.. ستصلك التفاصيل والعتاد اللازم لاحقًا.

نتمنى لك النجاح في هذه المهمة الصعبة، وندعو الله أن يعينك ويمددك بملائكة من عنده".

رئيس جهاز الاستخبارات بوحدة المراسلين

أعاد مطر الورقة إلى الظرف، وبدأ ينظر إلى عيني الخادم عساه أن يجد بعض السلوى.. في تلك اللحظة رأى آلامًا لا تحصى في عيني الخادم حتى اعتقد أن آلامه لا تساوي شيئًا

بجانبها، فأمسك الخادم بيد مطر وقال أجمل شيء يمكن أن يقال في لحظة كهذه:

ما أعذب البلاء إن كان من جلالِهْ

وما أحلى الوفاء إن كان من جمالِهْ

فكلاهما صفاءٌ للروحِ

فما أحلى لطفه وما أعذب قهره!

إلى اللقاء في الكتاب التالي: "عملية الشاشة الصغيرة".

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com